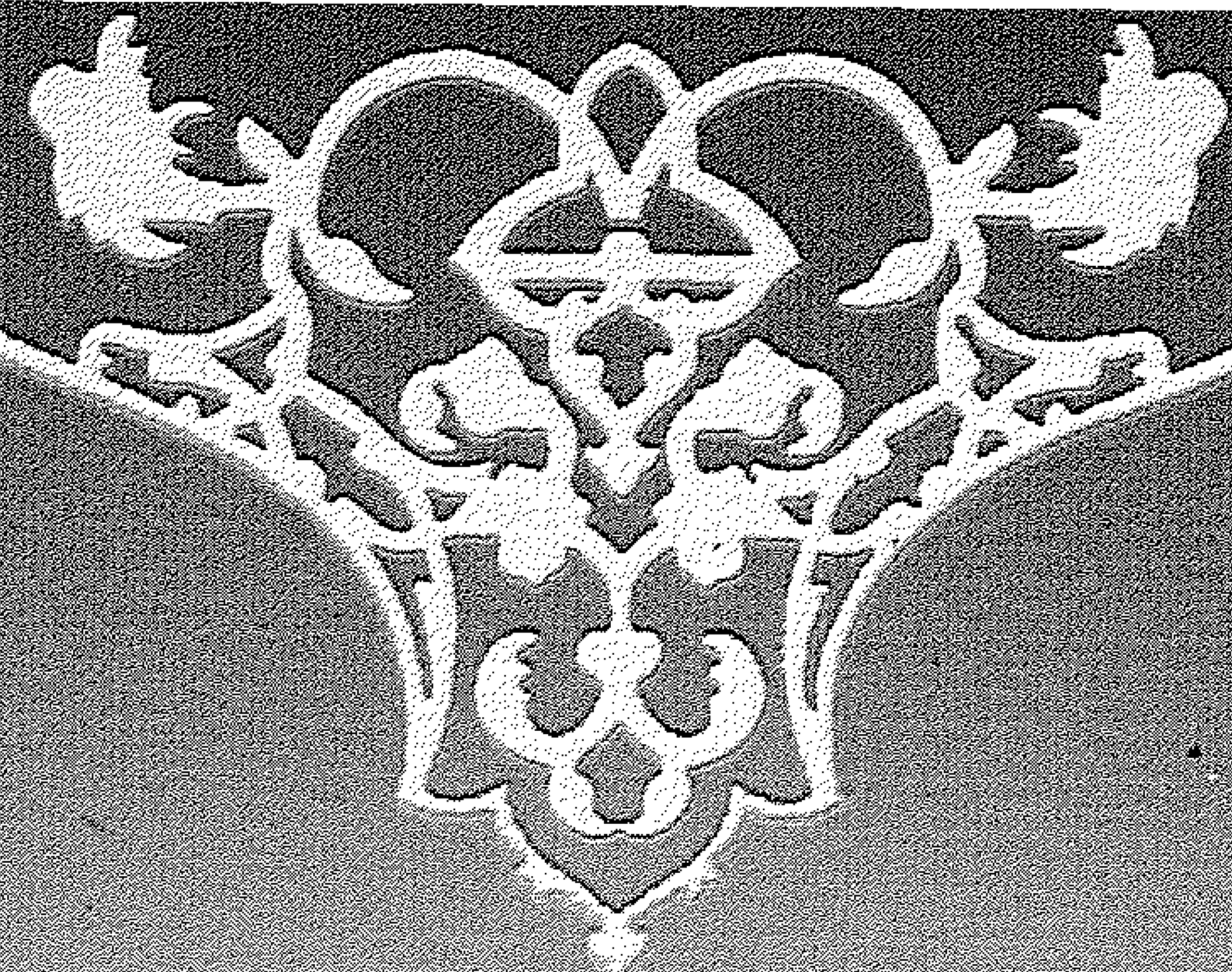
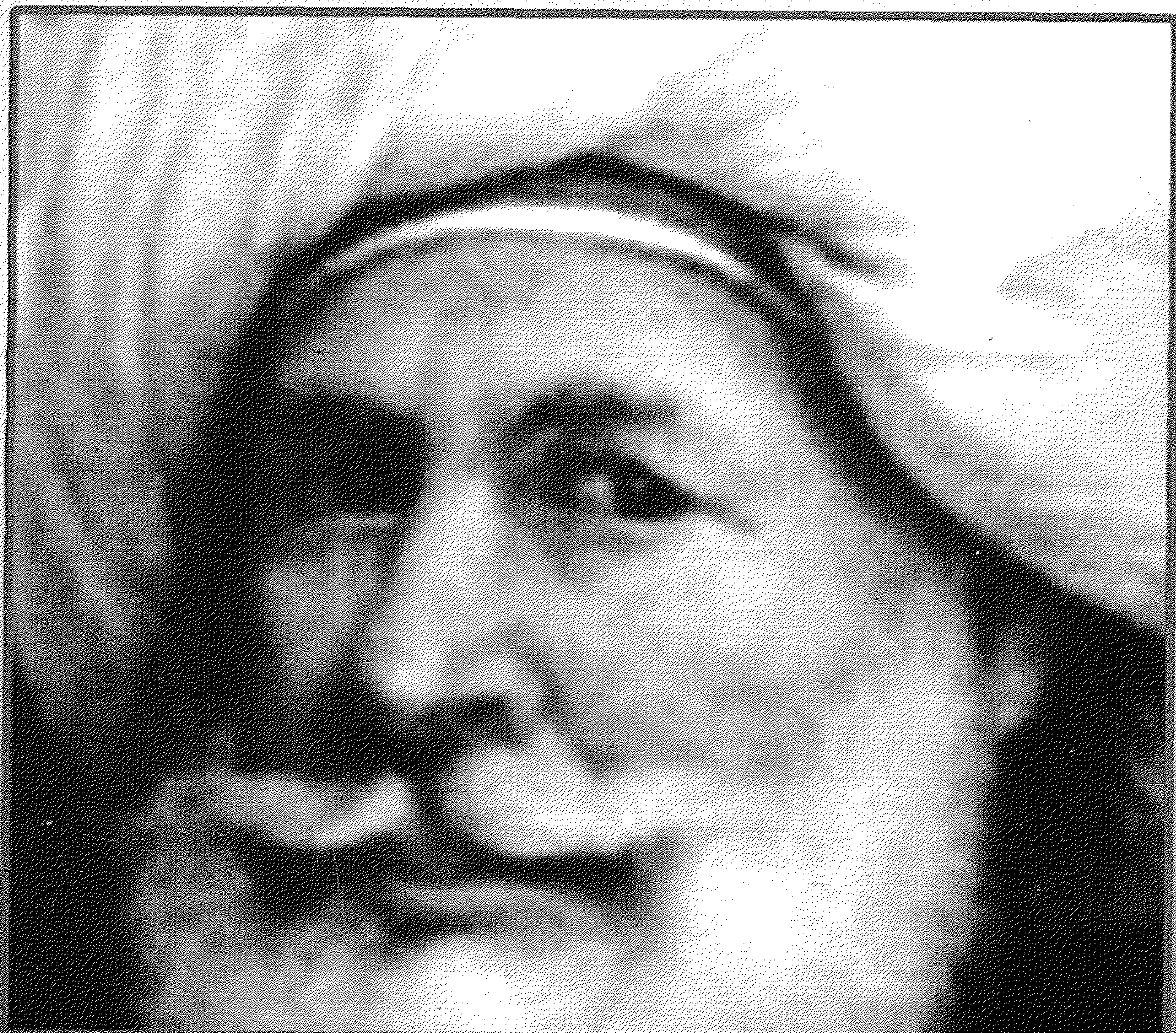




البهجة التوفيقية
في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية



تأليف: محمد فريد بك
تحرير ودراسة: د. أحمد زكريا الشِّلق

البهجة التوفيقية
في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية



البهجة التوفيقية
في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية

تأليف: محمد فريد بك

تحرير ودراسة: د. أحمد زكريا الشلق

الطبعة الثانية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

محمد فريد ، بك ، 1868 - 1919.
البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية/ محمد فريد «بك»؛ دراسة وتحرير أحمد زكريا الشلق . ـ ط 2 . ـ القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ، 2005.
261 ص ؛ 24 سم.
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.
تدمك 0 - 0420 - 18 - 977

٩٦٢,٠٣١

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٥/٢٣٨٧٤

I.S.B.N. 977 - 18 - 0420 - 0

محمد فريد وكتابه عن محمد على

"البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية"

دراسة

د. أحمد زكريا الشِّلق

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد فريد وكتابه عن محمد على

"البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية"

سيرة دالة:

نود فى البداية أن نشير إلى أن حياة مؤلفنا معروفة بما فيه الكفاية فهو الزعيم الوطنى الكبير محمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩)، رفيق مصطفى كامل وخليفته فى قيادة الحزب الوطنى المصرى فى العقدين الأولين من القرن العشرين، لكننا لا نرى بأساً من عرض مركز لحقائقها الأساسية بقصد إجلاء الظروف التى وضع فيها محمد فريد هذا الكتاب، مما يفسر الكثير من آرائه واجتهاداته بشأن الكثير من الأحداث خلال هذه المرحلة من حياته، ويكفى أن نشير فى البداية أنه وضع هذا الكتاب عن محمد على وهو موظف كبير فى الجهاز الإدارى لدولة يحكمها حفيد محمد على، كما أنه نَسَب إسم الكتاب إلى توفيق "البهجة التوفيقية" وهو يؤرخ لمؤسس "العائلة الخديوية".

وقد ولد مؤلفنا فى يناير ١٨٦٨ لأب ميسور من كبار رجال مصر، كان ناظراً للدائرة السنية، هو أحمد فريد باشا، الذي ينتمى لأسرة من أصول تركية وفدت إلى مصر خلال سنى الفتح العثمانى لها، وظل أرباب هذه الأسرة يتوارثون وظيفة "كتابة العملة" التى كانت من أرفع وظائف الحكومة آنذاك، وقد تلقى والده تعليمه فى المدارس التى أنشئت فى عهد محمد على وخاصة المدارس الحربية، ثم تقلب فى وظائف الإدارة العليا، فتولى منصب المدير لمديريات عديدة، حتى صار ناظراً للدائرة السنية (١٨٨٦-١٨٩٤) خلال عهود حكام مصر من أسرة محمد على، كما بلغ مكانة اجتماعية وسياسية عالية جعلت الخديوى عباس حلمى الثانى يستعين به فى حل بعض الأزمات، وإن قدر له أن يحال إلى المعاش عام ١٨٩٤ عندما اتجهت الحكومة إلى بيع أملاك الدائرة

السنية لشركة أجنبية دون الوطنيين الذين عرضوا شراءها بثمن أكبر، ويشير الرافعى، ربما بقدر من المبالغة إلى انتقاد ناظر الدائرة لمسلك الحكومة وتضحيته بوظيفته.

وهكذا نشأ محمد فريد فى أسرة يدين عائلها لمحمد على بتعليمه الحديث ووظائفه التى تدرج فيها فى عهد خلفائه، كما يدين هؤلاء بتلك المكانة الإجتماعية المرموقة التى احتازها، مما وفر له حياة كريمة أتاحت له أن يدفع بابنه إلى المدارس الأميرية، فمدرسة الحقوق، التى كانت تسمى مدرسة الإدارة آنذاك، حيث حاز شهادتها عام ١٨٨٧، وهو دون العشرين، ليبدأ حياة الوظيفة مترجماً بقلم قضايا الدائرة السنية، فى نفس العام بدعم من والده بطبيعة الحال، الذى كان ناظراً للدائرة السنية كما أشرنا، ثم يصبح وكيلاً لنفس القلم فى العام التالى، ولينعم عليه الخديوى عباس حلمى برتبة البكوية عام ١٨٩١. أى بعد عام من إصدار كتابه الذي بين أيدينا "البهجة التوفيقية".

وقد انتقل محمد فريد من وظائف الدائرة السنية إلى وظائف النيابة العمومية مساعداً للنيابة، فخدم فى محكمة مصر الإبتدائية، فنيابة الأزبكية، فوكيلاً للنيابة من الدرجة الثالثة عام ١٨٩٣، ثم وكيلاً لنيابة الإستئناف عام ١٨٩٥، وأظهر كفاية ومقدرة عالية أهلته لأعلى مناصبه الدولة، لولا أنه آثر الجهاد الوطنى على الوظيفة وقيودها، فاستقال منها عندما أبدى تعاطفاً وطنياً ضد الحكومة وسلطات الإحتلال، عندما رفعت الحكومة قضية ضد الشيخ على يوسف وصحيفة المؤيد– لسان حال الوطنيين آنئذ – وكذلك ضد أحد موظفى مكتب تلغراف الأزبكية، لنشرهما تلغرافات سرية للورد كتشنر تتعلق بما يلقاه الجيش المصرى من متاعب صحية خلال حملة دنقلة، مما اعتبرته الحكومة إفشاء لأسرارها. ولما كان محمد فريد قد شهد نظر هذه القضية وجاهر، وهو وكيل نيابة بالإستئناف، بتعاطفه مع صاحب المؤيد وبميوله الوطنية. وبمعارضته لسلطات الإحتلال وسياساتها، فقد أوعزت هذه السلطات إلى الحكومة لنقله إلى

الوجه القبلى، فلم يقبل ذلك واعتبره مساساً بإستقلال القضاء وإهانة لشخصه، وقدم استقالته التى قبلت على الفور عام ١٨٩٦.(١)

وربما كان محمد فريد مدفوعاً فى التعبير عن مشاعره الوطنية، إلى جانب حسه الوطنى الخاص، بتلك الموجة التى سرت بين الشباب المتعلم آنذاك، والتى شجعها الخديوى الشاب عباس حلمى الذى تولى الحكم فى بداية عام ١٨٩٢ وأراد أن يلعب دوراً وطنياً، وجمع الشباب حوله، وكان مصطفى كامل ولطفى السيد ومحمد فريد فى طليعتهم، وجعل ينفق على جمعياتهم السرية، ويرسل بعضهم إلى أوربا للدعاية للقضية الوطنية، فضلاً عن تمويل صحفهم كما هو معروف، غير أن المعتمد السياسى البريطانى اللورد كرومر تصدى له وأثار فى وجهه عدة أزمات انتهت بالخديوى الشاب إلى إلقاء السلاح والإبتعاد عن الحركة الوطنية والرضوخ لسياسة الإحتلال.(٢)

ويسجل لنا عبد الرحمن الرافعى بداية نضوج الشعور الوطنى لدى محمد فريد، فيذكر أن ميوله الوطنية بدت عليه منذ حصوله على شهادة الحقوق واتجه إلى خدمة الوطن بالكتابة والتأليف، ساعده على ذلك سعة ثقافته وشغفة بالإطلاع وإجادته الكتابة باللغتين العربية والفرنسية، كما أنه كان يراسل الصحف وينشر فيها مقالاته، وخاصة مجلة الآداب للشيخ على يوسف خلال عامى ١٨٨٧-١٨٨٨، بينما كان والده يخشى عليه من الإشتغال بالصحافة والسياسة خوفاً من أذى الانجليز والحكومة، وربما لأنه كان يعده لإنتقاء وظائف الدولة.(٣) واستكمالاً لمسيرته ينبغى الإشارة إلى أنه انجذب، ككثير من مثقفى عصره إلى الحركة الماسونية وتنظيماتها فى مصر، مأخوذاً ببريق أفكارها الظاهرة، فانضم إلى "محفل النيل" فى أواخر عام ١٨٩٢، كما كان عضواً فى الجمعية الجغرافية، فضلاً عن عضويته النشطة فى الجمعية الخيرية الإسلامية.

لقد كان محمد فريد يميل بطبعه إلى التحرر من قيود الوظائف والمناصب الحكومية، وقد كشفت تعليقاته على مذكراته عن تاريخ مصر التى سجلها منذ

عام ١٨٩١ عن ذلك، حيث كان ينسب إلى كبار الموظفين ممالأة سلطات الإحتلال وتأييد سياساتهم، ولعله كان يتوق إلى فرصة مناسبة ليحرر نفسه من تلك القيود وينطلق إلى ميدان الجهاد الوطنى، وقد هيأت له الفرصة في أعقاب "حادثة التلغرافات" المشار إليها، والتى أدت إلى إستقالته من وظائف الحكومه عام ١٨٩٦ ، فتحرر من قيود الوظيفه وبدأ يشتغل بالمحاماه منذ عام ١٨٩٧، ويروى فريد فى مذكراته أنه بعد أن قدم استقالته من وظيفته فى نوفمبر عام ١٨٩٦ أصدر الخديوى عباس حلمى أمراً فى مايو عام ١٨٩٧ بتعيينه فى وظيفة مستشار لقلم قضايا الأوقاف، غير أن السلطات البريطانية اعترضت على ذلك، وأرسل اللورد كرومر احتجاجاً على ذلك إلى رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا، مدعياً أن هذا التعيين، مع اشتهار فريد بمعاداة الإنجليز ومجاهرته بذلك، يشجعه على انتهاج هذا السلوك ويشجع غيره على ذلك، ونجحت السلطات البريطانية فى تعطيل أمر الخديوى.(٤)

قيد محمد فريد اسمه فى جداول المحامين أمام المحكمه الأهلية، ثم المحاكم المختلطه ، ولبث يعمل فى المحاماة لسبع سنوات، رأى بعدها أنها تصرفه عن الجهاد الوطنى، فاعتزلها عام ١٩٠٤ بعد أن كانت صلته بالزعيم قد توثقت منذ عام ١٨٩٦ – وإن كان الرافعى يرجع بدايتها إلى عام ١٨٩٣ – وذكر فريد آنذاك إنه أراد أن يخصص من وقته "المقدار الكافى لخدمة بلادى وأبناء وطنى خدمة أعم وأنفع" فبدأ نشاطاً واسعاً فى الحركة الوطنية المصرية، توج بالمشاركه فى تأليف الحزب الوطنى مع مصطفى كامل الذى كان أكبر حزب جماهيرى عام ١٩٠٧، حيث صار وكيلاً للحزب، فرئيساً له منذ فبراير عام ١٩٠٨ فى أعقاب وفاة مصطفى كامل.

ورغم ذلك عاد محمد فريد للإشتغال بالمحاماه مرة أخرى عام ١٩١١، عقب خروجه من السجن بعد أن ظل رهينه ستة أشهر حكم عليه بها فى قضية بسبب كتابته مقدمة لديوان "وطنيق" للشيخ على الغاياتى، ورغم أنه أراد بعودته إلى

المحاماة تعويض بعض خسائره الماليه نتيجة جهاده المتواصل، إلا إنـه لم يستمر طويلاً لكثرة مشاغله الوطنية، التى لم تترك له مجالاً للتوفر على هذه المهنة. ولما سافر لحضور مؤتمر السلام بأوربا فى سبتمبر عام ١٩١١، انتهز هذه الفرصة للتنقل بين مختلف الدول الأوربية للدعاية للقضية المصرية، وعندما عاد إلى مكتبه فى منتصف نوفمبر من نفس العام، لم يلبث أن حوكم للمرة الثانية على أثر خطبة ألقاها فى المؤتمر السنوى للحزب الوطنى فى مارس عام ١٩١٢ اعتبرها الحكومة تحريضاً على كراهيتها، وقدمته للمحاكمة تمهيداً لسجنه مرة أخرى، لذلك قرر الهجرة من مصر فى نفس الشهر قبل أن تصدر الحكومة أوامرها بالقبض عليه وسجنه، ليبدأ فى الخارج مرحلة جديدة من مراحل جهاده الوطنى، سواء من عاصمة دولة الخلافة أو من عواصم الدول الأوربية، داعياً لإستقلال وطنه، حتى توفى غريباً ببرلين فى نوفمبر عام ١٩١٩، بعد أن سجل صفحات ناصعة فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية ومقاومة الإحتلال البريطانى، وقد حظى دوره بمؤلفات حزبية وعلمية لها قدرها، أرخت لنضاله الوطنى سراً وعلانية، داخل مصر وخارجها كما هو معروف.

* * *

ينبغى الإشارة إلى أن محمد فريد ولد عام ١٨٦٨ وأن مصر احتلت من الإنجليز وهو فى الرابعة عشرة من عمره، حيث لم يكن وعيه السياسى قد تشكل تماماً ونضج، ولأن والده كان يعمل فى خدمة الخديوى، فمن الطبيعى أن يكون حريصاً على إبعاده عن العمل بالصحافة والسياسة، ليؤمن لمستقبله حياة رغدة وهادئة. كما نلاحظ أن فريداً ألف كتابه هذا عام ١٨٩٠، وهو فى نحو الثانية والعشرين من عمره، مما يدل على اتجاهاته الثقافية والفكرية فى هذه المرحلة من حياته، فى الوقت الذى كان فيه، هو ووالده، يحتازان مراكز مرموقة فى الحكومة المصرية مما جعلهما جزءاً من الصفوة الإجتماعية والسياسية آنذاك. فلم يكن فريد حتى بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر قد انجذب إلى تلك الموجة الجديدة الناشئة من موجات الحركة الوطنية المصرية وهى الموجه التى ظهرت

خلال عهد الإحتلال البريطانى كرد فعل لسياساته ومظالمه. والتى انخرط فيها فريد فيما بعد، وصار أحد زعمائها الكبار.

ولعل ما سبق يوضح كيف أن محمد فريد فى بداية اكتمال وعيه السياسى كان معتدلاً أقرب إلى الإتجاه الذى مثله الإمام محمد عبده وأصدقاءه وتلاميذه فى فترة ما بعد الإحتلال، ذلك الإتجاه الذى نظر، بواقعية من وجهة نظر أصحابه، إلى وجود الإحتلال وسياساته ووجوب تقبل إصلاحاته ومساعدة الإنجليز حتى تصبح مصر أهلاً للإستقلال والتقدم.. ويفسر هذا ما كتبه فريد فى مذكراته فى يناير ١٨٩١، عندما أراد أن يسجل تاريخاً لمصر منذ ذلك العام، معبراً عن إشادته بسياسة الإنجليز المالية والإقتصادية، بل إنه بالغ فى هذا الإتجاه حين سجل أن الإنجليز لم يأتوا، حتى الآن، ما يوجب كراهاتنا لهم، وأنهم يعاملون الأهالى بالرفق والدعة، وأضاف أن حب الوطن يلزمنا تمنى خروجهم من مصرنا العزيزة، دون عودها إلى الدولة العثمانية، كما سجل، بدون مبالاة، أن مصر محتاجة لمساعدة الإنجليز مدة لا تقل عن خمسة عشرة سنة لتبلغ شأوها من التقدم والتمدن فى سبيل المعارف، وعندئذ يمكنها أن تدبر أحوالها بنفسها.

لقد كان فريد خلال هذه المرحلة من حياته — أى حتى مطلع التسعينيات، يرى أن الإحتلال الإنجليزى أمر واقع حتمته الظروف، وأن على المصريين أن تستفيد من مساعدته ليتدربوا على حكم أنفسهم، وليتمكنوا بعد ذلك من التخلص منه ومنعه من التدخل فى شئون مصر وإدارالها "على أن يتم ذلك شيئاً فشيئاً، لا مرة واحدة كما فعل العرابيون عام ١٨٨٢ فعادوا بالخيبة" أى أنه كان يرى أن دورهم يجب أن يقتصر على دور الخبراء والمستشارين، لا دور ذوى السلطة المنفذين، الذى يجب أن يختص به المصريون وحدهم. وحسبما يلاحظ رؤوف عباس، أن فريداً لم يكن يتفهم الدوافع الموضوعية التى كانت تكمن وراء الإحتلال والتى كانت تستهدف المصالح الإستراتيجية لبريطانيا، التى

لم تكن مجرد رسول للتمدن وداعية للإصلاح وتدريب المصريين على حكم أنفسهم.(٥)

وقد يلفت النظر أن فريداً بعد أن كتب ذلك، عاد فى نفس مذكراته (التى لم ينشرها فى حينها والتى أشرنا إليها) فى مارس من نفس العام (١٨٩١) ينعى على الخديوى توفيق تخاذله أمام الإنجليز وعدم مقاومتهم حرصاً على عرشه مع أن من واجبه المحافظة على صالح الوطن ولو أدى ذلك إلى فقدانه هذا العرش، ذلك أن هذا الموقف الجديد من فريد يتناقض مع رأيه السابق الذى يذهب إلى عدم مواجهة الإنجليز والإستفادة من وجودهم ثم التخلص منهم تدريجياً.. غير أننا نلاحظ أن هذه الأفكار كانت بداية تحول حقيقى فى قناعاته وأفكاره السياسية، مما يسجل بداية حقيقية لنضجه الوطنى، فقد كتب فى نفس المذكرات فى ديسمبر ١٨٩١ معبراً عن ضرورة عدم التعاون مع الإحتلال، ويعيب على النظار المصريين رضوخهم لإرادة الإنجليز، بدلاً من امتناعهم عن قبول الوظائف الكبرى فى ظل تلك الظروف، ويرميهم بالحرص على مرتباهم أكثر من الحرص على استقلال الوطن، بل ويتهمهم بصراحة بأهم هم الذين ساعدوا الإنجليز على احتلال الوطن.(٦)

ومن الواضح أن فترة التحول والنضج الوطنى فى تفكيره السياسى هذه، التى بدأت مع بدايات عام ١٨٩١، قد غيرت من موقفه تجاه الخديوى توفيق أيضاً، فقد رأينا أنه كتب فى مذكراته التى سجل فيها تاريخاً لمصر منذ ذلك العام – والتى لم تعرف إلا بعد وفاته عام ١٩١٩ – منتقداً الخديوى لتخاذله وضعف عزيمته على مقاومة الإنجليز وملاينته لهم حرصاً على عرشه مضحياً بمصلحة الوطن. وعندما تولى الخديوى عباس حلمى الثانى واتجه إلى مقاومة الإنجليز وتوثيق علاقاته بالسلطان العثمانى، بارك فريد هذا الإتجاه، وعبر عن ذلك فيما كتبه بمذكراته فى شهر يوليو ١٨٩٣، ورأى فى ذلك نهجاً قويماً، وأشاد

بالخديوى الشاب الذى ترك "سياسة إسماعيل وتوفيق ومن قبلهما.. لما فى هذه السياسة العوجاء من تسهيل السبل لإحتلال الأجانب (لمصر) وامتلاكهم لها.."

ويتصل بذلك أيضاً تغير موقفه من الدولة العثمانية التى كان يتحمس لجهود محمد على فى الإستقلال عنها، فبعد أن كان يرى عدم عودة مصر إلى حظيرتها فور خروج الإنجليز منها، جعل يتمسك بالسيادة العثمانية عليها، ويرى أن استقلال مصر التام عنها، يجعلها مطمعاً للدول الأجنبية، ويلفت النظر – فيما كتبه بالمذكرات فى فبراير ١٨٩٤ – إلى أهمية تأييد روابط تبعيتها للدولة لكف الإنجليز عن ابتلاعها. وفى غضون نفس العام نشر فريد كتابه الشهير عن "تاريخ الدولة العلية العثمانية" الذى ذهب فيه إلى أن الإبقاء على دولة الخلافة الإسلامية إبقاء للإسلام نفسه، لأن الدولة العثمانية دافعت عن الإسلام ضد جميع دول أوربا المسيحية، وانتهى إلى أن المسألة الشرقية حلقة من حلقات الصراع بين الدولة العثمانية والقوى المسيحية، ومن ثم فهى مسألة دينية وليست سياسية. ويستمر فى السعى لتأكيد الولاء للدولة، حتى أنه يقيس الشعور الوطنى عند المصريين بمقدار ما يظهرون من الولاء للدولة العثمانية وتأييدها ضد أعدائها، فيشيد بحملة اكتتاب المصريين لمساعدة الدولة فى حربها ضد اليونان عام ١٨٩٧، ويرى ذلك دليل على زيادة الإحساسات الوطنية عند المصريين.(٧)

وهكذا ظل فريد على قناعاته الجديدة بعد نضج فكره السياسى والوطنى، منذ استقال من وظائف الحكومة واشتغل بالمحاماة بين عامى ١٨٩٧– ١٩٠٤، وحتى رغم انصراف الخديو عباس عن تأييد ودعم الحركة الوطنية، فارتبط بمصطفى كامل، وتحول من مجرد مثقف يحمل مشاعر وطنية متدفقة يتوق لتحرير بلاده من الإحتلال خلال هذه الفترة، إلى مناضل سياسى شديد المراس، يضحى بأمواله وبحياته الخاصة فى سبيل مقاومة الإحتلال، مؤيداً تبعية مصر لدولة

الخلافة متخذاً من ذلك حجة لمدافعة الإنجليز، ومناضلاً، فى إطار الحزب الوطنى المصرى، من أجل حياة دستورية لمصر والمصريين.

* * *

محمد فريد مؤرخاً:

ينبغى التأكيد على أن محمد فريد ولج الحياة العامة باعتباره مؤرخاً، قبل أن ينخرط فى السياسة بشكل عملى، وقبل أن يترك الوظائف والمحاماة، وأن عشق التاريخ والكتابة فيه لم يفارقه طوال حياته حتى بعد أن أصبح هو ذاته شخصية تاريخية أو من صناع التاريخ، فعندما أصبح مناضلاً وزعيماً سياسياً سجل مذكراته لثقته أنها ستصبح يوماً ما مصدراً من مصادر التاريخ، وهو ما حدث بالفعل. وكان يرى أن "فن التاريخ عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تأمل واذّكر.. له فوائد جمة، وثمرات مهمة، تعرب عما مضى من كوارث الأزمان والأوقات، وتكشف عن وجوه الحوادث قناع الشبهات، فلكثرة نفعه، وعظم وقعه، كان له فى الكتاب المبين أصل قوى متين.. إذ لولا التاريخ لجهلت الدول، ومات فى الأيام الأخر ذكر الأول.."[8] فالتاريخ عنده خبرة بالماضى وحوادثه ينبغى تأملها والإعتبار بها، كما أنه يكشف عما يحيط بهذه الحوادث من الشبهات من خلال تحقيقها، استجلاء للماضى واستيعاباً لدروسه، وقد تمثل فى صدر أول كتاب له فى التاريخ بقول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عالم   من لم يع التاريخ فى صدره
ومن درى أحوال من قد مضى   أضاف أعماراً إلى عمره

وكان كتاب "البهجة التوفيقية.." عن محمد على أول عمل تاريخى ينشر له حيث صدر فى مارس عام ١٨٩٠، وهو ما سنعرض له بالتفصيل بعد قليل، وبعده شرع محمد فريد منذ عام ١٨٩١ يسجل وقائع عصره بشكل حولى فترك لنا مذكراته عن "تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية" والتى توقف عن كتابتها عام ١٨٩٧، وإن لم تر النور إلا بعد وفاته بزمن طويل[9]،

وفى تقديرنا أنه خلال تسجيله لها، لم يستهدف نشرها آنذاك، ثم ألف عمله التاريخى الثالث المهم وهو "تاريخ الدولة العلية العثمانية" الذى نشر طبعته الأولى فى يناير عام ١٨٩٤. واستمر خلال التسعينيات على حبه للكتابة التاريخية عندما أنشأ عام ١٨٩٨، مجلة علمية نصف شهرية تسمي الموسوعات (بالإشتراك مع حافظ عوض ومحمود أبو النصر) نشر فيها فصولاً من تاريخ الرومان جمعها فى كتاب صغير أصدره عام ١٩٠٢ تحت عنوان "تاريخ الرومان" شمل تاريخاً قصيراً لروما حتى نهاية الحروب البونية.. كما نشر "بالموسوعات" الكثير من مقالاته التاريخية عن سياسة انجلترا وفرنسا فى إفريقيا، وسياسة روسيا فى آسيا، وحرب الترنسفال، ومطامع أوربا فى الصين.. إلخ وظل يتابع الكتابة فى التاريخ إلى أن جذبته السياسة والحزب الوطنى خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، ومع ذلك سجل مذكراته بين عامى ١٩٠٤- ١٩١٩ التى أشرنا إلى أنها تعتبر مصدراً مهماً من مصادر تاريخ مصر خلال هذه الفترة.(١٠)

والواقع أن محمد فريد قد ترك عملين تاريخيين مكتملين ومهمين بمقياس عصره، نشراً فى حياته، أولهما كتابه عن عصر محمد على وهو "البهجة التوفيقية" والآخر عن الدولة العثمانية وهو "تاريخ الدولة العلية العثمانية"، وقد ملأ الكتابان ما يعد فى ذلك الوقت فراغاً كبيراً، حيث لم يتوفر حتى وقت نشرهما عمل مخصص لأى من الموضوعين فى مصر،(١١) ومن ثم كان إسهام محمد فريد يدل على درجة عالية من الوعى والمقدرة.

أما كتابه عن الدولة العثمانية فقد اجتهد فيه ليثبت للقراء — حسب تعبيره — أن سبب تأخر المسلمين هو تفرق كلمتهم، وأن يبين فضل الدولة فى إبقاء الإسلام والذود عنه، وكيف أنها قاومت دول أوربا المسيحية، وليبرهن على أن المسألة الشرقية مسألة دينية وليست مسألة سياسية.(١٢) يضاف إلى ذلك أنه يربط بين دراسة التاريخ والوعى به وبين المدنية العصرية، باعتبار ذلك من متطلباتها، فكل جيل من الأجيال المتعاقبة يرث معارف وأخلاق وأعمال من

سبقه ليضيف إليها "من معلوماته الخصوصية، وتجاربه الذاتية فيكـون بـذلك مدنيته العصرية.." فضلاً عن أنه كان يرى أن دراسة التاريخ بشكل عام توقفنا على أخبار كل أمة فى جميع أطوارها "كأسباب ظهورها والروابط بين أفرادهـا والوسائل التى اتخذتها لنموها وارتقائها وحدود محكوميها وحكامها، ووصـف وقائعها وتحديد تخومها وأملاكها، وأطماعها وأسباب خذلانها وسقوطها.."(١٣)

وإذا كان محمد فريد فى كتابه السابق على هذا (البهجة التوفيقية) قد انحـاز وتحمس للسياسة الخارجية لمحمد على والتى أدت إلى صدامه مع الدولة العثمانية بل إنه عند حديثه عن موقعة قونية انتقد الدولة صراحة وذكر أنها "لم تتمكن من التأليف بين قلوب رعاياها حتى تكون منهم أمة واحدة عثمانية بل لم يزل كـل شعب محافظاً على تقاليده وعوائده ولا تجمعه مع بـاقى الـشعوب إلا جامعـة الخضوع لسلطان واحد ذى بأس وبطش"(١٤)، وربما كان مـدفوعاً إلى ذلـك برغبته فى إرضاء الخديو توفيق، فإنه فى هذا الكتاب قد أعاد النظر فى موقفه من الدولة العثمانية على ضوء المتغيرات التى حدثت فيما بعد، فالدولـة العثمانيـة ابتعدت عن صداقتها التقليدية لبريطانيا، مما كان فى صالح تحـسين العلاقـات العثمانية – المصرية، كما أن بريطانيا وفرنسا توصلتا عـام ١٨٩٠ إلى حـل أغلب نزاعاتهما الإستعمارية، فلم يعد ثمة ما يجعل مـصر ترتـاب فى علاقتـها بالدولة العثمانية، ولذا أصبح الطريق ممهداً لنوع جديد من التفاهم العثمـانى– المصرى المؤسس على الروابط الدينية القديمة والإحساس القوى بالولاء الـذى يحسه المسلمون تجاه الخلافة.

وفى داخل مصر، بينما كان الخديوى توفيـق يبـدى خـضوعاً للـسياسة البريطانية فى مصر، وهو ما تقبله محمد فريد آنئذ، مما يفسر رأيه عـام ١٨٩١ بشأن المظاهر الإيجابية للإحتلال، فإن الصورة قد اختلفت عندما تولى الخديوى عباس حلمى الثانى وبدأ يظهر أمام المصريين باعتباره حاكماً وطنيـاً يتحـدى الوجود البريطانى، مما أدى إلى صدامه مع اللورد كرومر، ولابد أن محمد فريـد

قد تأثر بهذا الإتجاه الجديد للخديو عباس، وكان ثمة شكوك لدى الإنجليز بأن شبكة مركبة من العلاقات المصرية – العثمانية يجرى بناؤها.[١٥] ويمكن فهم اتجاه محمد فريد صوب الدولة العثمانية وتأليفه هذا الكتاب عنها فى هذا الإطار.

ومن الطبيعى أن يكون هذا العمل، الذى وضعه فريد بعد ما يقرب من أربع سنوات من كتاب "البهجة التوفيقية" أكثر نضجاً وأهمية، فقد تميز بقدر أعلى من التوثيق، وهو ما ظهر من اقتباساته الواضحة من نصوص المعاهدات والإتفاقيات والفرمانات والمراسيم، والتى وضعها فى سياقها التاريخى، فضلاً عن نشر الكثير من نصوص هذه الوثائق كلما تطلبت الحاجة ذلك، بالإضافة إلى رجوعه إلى مؤلفات من سبقوه كعلى مبارك وجودت والجبرتى وفيليب جلاد وغيرهم.. وكان صادقاً مخلصاً لأمانة البحث التاريخى ومسئولياته، عندما ذكر بحق، أنه بذل غاية الجهد وأورد فى هذا التأليف من مواقف التحقيق قدر طاقته، فضبط الأعلام بقدر الإمكان وشرح فى حواشى الكتاب أسماء الملوك والأعيان وبعض البلدان معتمداً فى ذلك كله على الأمهات المعتبرة والأصول الموثوق بها.. ويبقى أن نشير أنه فى هذا الكتاب أظهر معرفة كاملة بتاريخ أوربا الحديث وبما كان يدور فى أروقتها السياسية، كما استطاع أن يتتبع بمهارة التطورات الداخلية فى الدولة العثمانية، ليترك لنا عملاً تاريخياً على جانب كبير من الأهمية، أظنه لا يزال يمثل مرجعاً مفيداً من مراجع تاريخها الحديث.

* * *

المؤرخ والباشا، كتاب البهجة التوفيقية:

أوضح محمد فريد أسباب تأليفه لهذا الكتاب فذكر أنه أراد به التأريخ لفضل ساكن الجنان (جنتمكان) محمد على باشا الكبير، باعتباره "أكبر مؤسس لمصر وأشهر مهندس لخططها" وأنه أراد بذلك التعبير عن اعترافه بفضله، باعتباره أحد الذين تربوا فى المدارس الخديوية، كما أوضح أنه وضعه كذلك لخدمة الوطن وتزويد المصريين بمعرفة تاريخهم وماضى بلادهم، وتقديم

الشكر للخديوى توفيق على نعمه، كما ذكر أنه تشجع فى تأليفه للكتاب بانتشار المعارف والعلوم، فأراد به الإسهام فى المعرفة التاريخية وتشجيع التسابق فى ميدانها..

والواقع أن محمد فريد كان من أشد المعجبين بنشاطات محمد على وحملاته العسكرية، وكم أغدق عليه من الألقاب خلال صفحات كتابه، فهو مؤسس مصر الحديثة وأكبر مؤسس لديار مصرنا، محيّ مجد مصر، وعزيز مصر، وممدن مصرنا وعزيزها الأول، والعزيز محمد على باشا وأحياناً يلقبه بالخديوى، وكثيراً ما كان يكنى عن إسمه بهذه الألقاب، غير أنه لم يقدم تاريخاً كاملاً لعصره وسياسته الداخلية والخارجية بقدر ما قدم تاريخاً عسكرياً لحروبه وحملاته، حتى كاد هذا الكتاب أن يصبح مجرد تاريخ عسكرى لحملات محمد على وحروبه، ونظرة سريعة على محتوياته تؤكد ذلك.

فالكتاب يبدأ بقصة مجئ محمد على إلى مصر ضمن الحامية العثمانية التى جاءت لإستردادها من الفرنسيين فى مارس ١٨٠١ ووصف كيف ارتقى عرش الولاية، ثم بدأ فى تتبع جهوده ونشاطاته العسكرية منذ مقاومة حملة فريزر على الإسكندرية ورشيد عام ١٨٠٧، لينتقل بعدها إلى تسجيل حروبه فى الجزيرة العربية، والتى سماها "حرب الحجاز"، وعالج بعد ذلك عملية بناء الجيش الجديد لمصر، وجهود سليمان باشا الفرنساوى "الكولونيل سيف" فى هذا الشأن، وقد خص هذا بترجمة مستفيضة لما له من جهود عسكرية فى بناء جيش محمد على وفى حملات هذا الجيش وحروبه، وانتقل مؤلفنا بعد ذلك لمتابعة حروب اليونان، وحروب إبراهيم باشا ابن محمد على فى الشام وحكمه له، وثورات الأهالى ضد الحكم المصرى، وصراع الجيوش المصرية مع جيوش السلطان العثمانى خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وتدخل الدول الأوربية وتطور المسألة المصرية، حتى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وإجلاء المصريين عن الشام.

ولم يعالج محمد فريد فى كتابه موضوعات أخرى إلا فى الجزء الأخير منه، حين سجل زيارة الدوق مونبانسيه، ابن ملك فرنسا لويس فيليب إلى مصر عام ١٨٤٥، ثم رحلة إبراهيم باشا إلى أوربا للعلاج والإستجمام (٤٥-١٨٤٦) حيث رواها بالتفصيل. ويبدو أن فريداً رأى أنه استغرق فى تأليف هذا التاريخ العسكرى، ولم يكتب شيئاً عن سياسة محمد على الداخلية وبناء الدولة الحديثة، فاستدرك ذلك فى فصل ختامي عالج فيه بشكل مركز ما أقامه "ممدن مصر من إصلاحات وتأسيسات" فكتب عن جهوده فى تطوير التعليم والبعثات، والطب والمستشفيات، وبناء الأسطول والترسانات، والمصانع، وتطوير الزراعة، ومشروعات الرى الكبرى.. ومن الواضح أن مؤلفنا أدرك أن هذه الإنجازات جميعاً كانت فى سبيل تحقيق الأهداف العسكرية، وارتباطها بتأسيس الجيش الجديد ونشاطاته، فهو عندما تحدث عن إنشاء خطوط التلغرافات أضاف "لتصل إليه أخبار جيوشه المشتغلة بقتال اليونان فى أقرب وقت..".

وعموماً استطاع محمد فريد أن يقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً، فى معظم الأحيان، للمعارك التى خاضها الجيش المصرى خاصة تحت قيادة إبراهيم باشا، الذى لم يدخر وسعاً فى إغداق ألفاظ البطولة والشجاعة عليه، كما كشف عن إعجابه بشأن سياسة محمد على فى توسيع حدود مصر، وكان يرى أن ذلك من أسباب عظمة الدول وقوتها، والثابت أن محمد فريد أثبت مهارة واضحة فى تتبعه سير المعارك وتتبع حركة الجيوش، كما أظهر معرفة دقيقة بما دار فى أروقة السياسة الأوربية بشأن المسألة المصرية، وتدخل هذه الدول فى الصراع الدائر بين محمد على والسلطان العثمانى خلال حروب الشام، فكشف عن إدراك عميق لمدى تعارض المصالح الأوربية ودوافع وطبيعة تحالفاتها.

وفى المقابل، كان يمر مرور الكرام ودون تحليل نقدى، على الإخفاقات التى لقيها الجيش المصرى فى بعض المعارك فى بلاد اليونان، وفى معارك الشام وأسلوب إدارته مما أدى إلى ثورات أهله ضد حكم إبراهيم باشا. ويتصل بذلك أيضاً أن محمد فريد رفض الإعتراف بأن ثمة خلافات حدثت بين إبراهيم باشا والكولونيل سيف "سليمان باشا" بشأن اتخاذ بعض القرارات العسكرية، وأرجع فريد التقارير الواردة بهذا الشأن إلى "الحسد والوشاية" وليس إلى اختلاف النظر فى سير بعض المعارك..

وفى معالجته لمسألة هزيمة الجيش المصرى فى حرب اليونان ومعركة نوارين البحرية، قدم فريد دفاعاً هزيلاً، حين ذكر أن بقايا الجيش والأسطول المصرى عادت إلى الإسكندرية متوجة بالنصر المبين والفوز العظيم، عندما ألزم إبراهيم باشا بإخلاء اليونان، ورأى أن مجرد وقوف قوة مصرية محصنة أمام إحدى هذه الدول العظام ليكسبها فخراً وشرفاً ولو خرجت من هذا الموقف الحرج مكسورة.! كذلك لم يكن محمد فريد يتوقف ليحلل الظروف الموضوعية التى أدت إلى نشوب بعض الحروب، فبعد انتهاء حديثه عن حرب اليونان، انتقل فجأة للحديث عن حرب الشام ولم يذكر من أسبابها إلا سبباً ظاهرياً وهو هروب الفلاحين المصريين إلى الشام بسبب الضرائب المفروضة عليهم ولم يشأ أن يحلل الأسباب الأكثر أهمية..

وعندما انتقد المؤرخون إبراهيم باشا بسبب تعريض نخبة جيشه للموت من الجوع والعطش والحرارة فى اقتفاء أثر الشيخ قاسم الذى قاد عصياناً كبيراً ضد الحكم المصرى للشام، دافع عنه محمد فريد، وذكر أن هؤلاء المؤرخين فاتهم أنه لو ترك الشيخ قاسم وشأنه لعثا فى الأرض فساداً واعتبر الشاميون ذلك عجزاً منه وتجرأوا عليه..

وبالرغم مما وصف به موقف محمد فريد من انحياز واضح لبطولات محمد على وإنجازاته، حتى لقد اعتبر البعض كتابه نوعاً من الملاحم وقصص البطولة

أكثر منه تاريخاً[١٦] إلا أننا لا نعدم أن نجد نقداً واضحاً لمحمد على وسياسته من جانب مؤلفنا، فهو فى حديثه عن هروب الفلاحين من مصر إلى الشام فراراً من الضرائب يذكر بعبارة صريحة "ويسوؤنا أن نقول أن مصر مع كونها قد تقدمت فى زمن المغفور له محمد باشا عما كانت عليه زمن المماليك مالياً وعسكرياً، لكن لم يصب الفلاح من هذا التحسين إلا كثرة الضرائب وأعمال السخرة لإتمام الأعمال العمومية، التى لم تعد بالفائدة على فلاحى ذلك الوقت، بل على من أتى من بعده.."

كما كشف محمد فريد عن أن محمد على كان يضيق بالنقد ويحاسب من يمارسه بشدة، ففى حديثه عن قصة عزل الشيخ الدواخلى نقيب الأشراف، ذكر مؤرخنا أن الباشا طلب من المشايخ أن يحرروا محضراً يبينون فيه أسباب عزله ليرسله إلى نقيب الأشراف فى استانبول باعتباره صاحب الحق فى العزل والتولية بولايات الدولة العثمانية، وأضاف فريد "أنه لم يكن فى الأسباب التى ذكروها السبب الحقيقى لعزل الباشا له، وهو فى الحقيقة انتقاده على أحكام الباشا على مرأى ومسمع من المقربين إليه".

وعندما تدخلت الدول الأوربية بين محمد على والسلطان عام ١٨٣٧ بعد أن اقتربت جيوش إبراهيم باشا من استانبول، وقدمت مقترحات أولية لتسوية الأزمة، ورفض محمد على هذه الشروط وعزم على المحافظة على ما فتحته الجيوش، وأخذ يستعد للقتال، أرسلت بريطانيا ودول أوربا، إلى محمد على تخبره أنها سوف تستعمل القوة ضده دفاعاً عن الباب العالى، علق محمد فريد على موقف الباشا بقوله إنه "لم يعبأ بكل ما ورد إليه من هذه التهديدات ولم يرد عليهم، وورد نبأ سفره إلى السودان للبحث عن الذهب وترك حكومته وكأنها لم يكن بها شئ من التهديدات".

وفيما يتعلق بتوثيق الكتاب ومصادره، فقد استطاع مؤلفنا أن يطلع على مجموعات من الوثائق والسجلات المهمة بحكم مركزه الوظيفى، كما استفاد

من مجموعات عديدة منشورة من الوثائق الأوربية، وكذلك اعتمد على الكثير من كتابات المؤرخين السابقين واقتبس عنها وذكر ذلك فى موضعه، فاستفاد من كتابات الجبرتى وكلوت بك وعلى مبارك، وكذلك كتابات هامون ومانجان، خاصة تقاريرهم عن مدرسة الطب والطب البيطرى، وكذلك اعتمد على جريدة أركان حرب الجيش المصرى ومجلة جورنال أزياتيك.. ورغم أنه كان يشير إلى الفقرات التى يقتبسها من مصادره فى متن الكتاب، إلا أنه لم يسجل ذلك فى حواشيه التى اختصها بترجمات لعدد من الأعلام الذين وردت أسماؤهم بالمتن، والتى كان حريصاً على كتابتها، بقدر من الإسراف أحياناً ودون تعليق من جانبه.. ولا ينبغى أن ينظر إلى هذا الكتاب من هذه الزاوية بمقاييس عصرنا وما تطورت إليه قواعد الكتابة العلمية وتقاليدها، ويكفى أن خطة المؤلف واضحة ومصادره واقتباساته مدونة، وآراءه وأفكاره جلية، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه.

أما لغة الكاتب وأسلوبه فمن المسلم به أنه، رغم صغر سنه آنذاك وقلة خبرته فى الكتابة (٢٢ عاماً) كان أفضل بكثير من الكتاب والمؤرخين الذين سبقوه، ورغم أنه استخدم مصطلحات هجرت بدلاً من مرادفاتها الحديثة (كدونائمة بدلاً من أسطول) واستخدم أكثر من إسم لعاصمة دولة الخلافة (استانبول، إسلامبول، القسطنطينية) إلا أنه لم يسرف فى تكلف السجع، كما ذكر جاك كرابس، ولم يتضح هذا إلا فى عنوان الكتاب وخطبته الإفتتاحية، وكذلك فى نهاية خاتمته، أما فى صلب الكتاب وسياقه، فقد كانت لغته سهلة وعصرية، قياساً إلى لغة من سبقوه من المؤرخين، وباستثناء عدد من أخطاء الإملاء والنحو، فإن الكتاب بشكل عام سليم فى لغته وسلس فى تعبيراته وواضح فى أفكاره.

* * *

بقى علىَّ أن أوضح للقارئ ما الذى قصدته بكلمة (تحرير) الكتـــاب هنـــا، وأود الإشارة إلى أن المؤلف وضع لكتابه حواشٍ كثيرة للأعلام والبلدان، وطابق بعض التواريخ الهجرية بالميلادية، وأن الكتاب اتخذ شكل طباعة القرن التاســع عشر من حيث التصاق الكلمات والحروف، والتصحيف، وعدم تفقير الكتابــة أو استخدام علامات الترقيم، مما يعيق القارئ كثيراً عن القراءة والمتابعة والفهم، كما أن النص به كثير من أخطاء الإملاء والنحو والصرف، وقد سجل فريــد قائمة ببعضها فى نهاية طبعته الأولى، كما أن الكتاب لم تقسم موضوعاته الرئيسية إلى فصول، رغم الفهرس التفصيلى الذى أورده.

لذلك اجتهدت فى تحرير النص من ذلك كله، فقدمتــه بـــشكل الكتابــة العصرية، وحررت النص من أغلاط الطباعة والتــصحيف والإمــلاء واللغــة وهفوات التحرير، وصوبت أخطاء النحو، مع ضبط بعض التعبيرات ليــستقيم المعنى وأشرت إلى ذلك فى الحواشى واستكملت مطابقة التــواريخ، وأضــفت بعض الحواشى الإيضاحية، واستخدمت علامات الترقيم، وأبرزت الموضوعات الرئيسية فى شكل فصول، ملتزماً بخطة المؤلف كما هى. وإذا كان ثمة كلمــة أو عبارة لم أستطع نبيين معناها أشرت إليها فى الحاشية بعبارة (هكذا فى الأصـــل) تاركاً إياها لإجتهاد القارئ.. وعموماً حافظت للمؤلف علـــى الـــنص كـــاملاً واقتصرت على التصويب فى الحواشى، وإن أصلحت الكثير من أخطاء الإملاء والكتابة الواضحة والتى لا لبس فيها، ولم أشر إلى ذلك فى الحواشى حتى لا أثقل النص بكثرتها.

وأخيراً، لقد قدم محمد فريد كتاباً مهماً إذا نظر إليه باعتباره تاريخاً عسكرياً لعصر محمد على، كشف فيه عن مؤرخ راسخ وواعد، لم تلبث الحركة الوطنية أن جذبته إلى أتونها فآثر العمل السياسى والوطنى المباشر والعملى، وإذا كنا قد خسرنا بذلك "مؤرخاً" فقد كسبت مصر زعيماً سياسياً ومناضلاً وطنياً مخلصاً، أصبح من "صناع" تاريخها الحديث والمعاصر.

الهوامش والمصادر

[١] عبد الرحمن الرافعي: محمد فريد، رمز الإخلاص والتضحية، ط (٣)، النهضة المصرية ١٩٦٢ ص ١٦- ٣٧.

[٢] أحمد زكريا الشلق: حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٩- ٣٢.

[٣] عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص ٢٧- ٣١.

[٤] محمد فريد: تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ ميلادية، مذكرات محمد فريد، القسم الأول، تحقيق وتقديم رؤوف عباس، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٢٩٢ (حوادث سنة ١٨٩٧).

[٥] محمد فريد: المصدر السابق، دراسة رؤوف عباس ص ٥٤- ٥٦.

[٦] محمد فريد: المصدر السابق (أحداث ديسمبر ١٨٩١) ص ٩٦- ٩٧.

[٧] نفس المصدر: دراسة رؤوف عباس

[٨] محمد فريد: البهجة التوفيقية فى تاريخ العائلة الخديوية (المقدمة).

[٩] وقد نشرها رؤوف عباس عام ١٩٧٥ بعد أن حققها وقدم لها بدراسة وافية عام ١٩٧٥.

[١٠] وقد نشرها مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر تحت عنوان "أوراق محمد فريد، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤- ١٩١٩" قدم لها بدراسة شاملة عاصم الدسوقى، هيئة الكتاب ١٩٧٨.

[١١] جاك كرابس جونيور: كتابة التاريخ فى مصر فى القرن التاسع عشر، دراسة فى التحول الوطنى، ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر، هيئة الكتاب ١٩٩٣، ص ٢٣١.

[١٢] هذا ما كتبه محمد فريد فى الجزء الأول من مذكراته فى يناير ١٩٩٤، ص ١٩٣.

[١٣] محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية طبعة دار الجيل، بيروت ١٩٩٧، ص ٣- ٨.

(١٤) جاك كرابس: المرجع السابق، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.
(١٥) محمد فريد: البهجة التوفيقية، راجع ما كتبه تحت عنوان "واقعة قونية".
(١٦) جاك كرابس: المرجع السابق ص ٢٣٤.

نص كتاب

البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية

تأليف محمد فريد بك

وكيل قلم قضايا الدائرة السنية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف

الحمد لله الذى جعل فن التاريخ عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تأمّل واذّكر والصلاة والسلام من الملك السلام على نبينا محمد سيد ولد عدنان القائل حبّ الوطن من الإيمان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه، من خاضوا الفيافى والقفار حتى جاء تاريخهم من أحسن الآثار.

﴿أما بعد﴾ فأقول وأنا المتوكل على مولاى المبدئ المعيد عبده محمد فريد غفر الله له ولوالديه ولأرباب الحقوق عليه: لما كان لفنّ التاريخ فوائد جمة وثمرات مهمة تعرب عما مضى من كوارث الأزمان والأوقات وتكشف عن وجوه الحوادث قناع الشبهات فلكثرة نفعه وعظم وقعه كان له فى الكتاب المبين أصل قوىّ متين. قال الله تعالى: "يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون" استدل على بطلان دعوى اليهود فى إبراهيم أنه يهودىّ وبطلان دعوى النصارى أنه نصرانىّ بأنّ التوراة والإنجيل إنما نزلا من بعده، ولله الحجة البالغة والحكمة الدامغة إذ لولا التاريخ لجهلت الدول ومات فى الأيام الأخر ذكر الأول، عنّ لى مع قلة بضاعتى وكساد صناعتى أن أؤلف فى وطنى العزيز مختصر تاريخ وجيز يدل على فضل جنتمكان محمد على باشا الكبير علىّ الشأن من هو أكبر مؤسس لديارنا المصرية وأشهر مهندس لخططها النيلية على أحسن الوجوه كما يشهد له بذلك الوجوه، برّد الله مضجعه، وجعل فى رياض النعيم مرتعه.

وحيث كنت ممن تربى فى المدارس الخديوية ذات الشهرة المرضية رأيت أن أعتنى بتأليف هذا الكتاب قياماً للوطن بواجب أداء الخدمة وشكراً لما للحضرة التوفيقية على جميعنا من النعمة، حملنى على ذلك انتشار المعارف والعلوم التى

أصبحنا نتسابق فى مضمار حلبتها يوماً عن يوم، وانتزع ما كان اعترى همنا من الفتور وخرجنا من الظلمات إلى النور بعناية خديو مصر الأعظم وعزيزها الأكرم ذى العلم الآصفى والحلم الأحنفى والذكاء الأياسى والرأى الذى هو لداء الأعداء الألدّاء، وإن أعضل أعظم آسى، الشهم القوى الجنان والسهم النافذ فى أكباد أهل العناد وإن كان مجبولاً على الرأفة والحنان، من تغنت بلابل الأفكار من أمداحه بفنون، وترنمت سواجع الأطيار من الثناء عليه بما أرقص معاطف الغصون، المتحلى بآداب السنة والكتاب، المتخلى عن الميل مع الهوى وهو فى ريعان الشباب، ذى الفضل الجم والبيان الذى أفحم بلغاء عصره وألجم من سكنت هيبته ومحبته قلوب الخاص والعام وأغدق على أرباب دولته بالتشاريف والانعام، فكان قبولها دليل إقبالها وتلقيها بحول الله وقوّته أصل استقبالها، فكانت على الدوام هى أولى له وهو أولى بها ألا وهو سيد ولاة الأمصار، المعطر ذكره الذى ذاع فى سائر الأقطار، الجدير بالمدح على التحقيق، أفندينا خديو مصر ﴿محمد باشا توفيق﴾ حفظ الله دولته وأنجاله وحرس بعينه التى لا تنام نظاره الكرام ورجال دولته الفخام والله المرجوّ لبلوغ كل مرام ومنه جلت قدرته الإعانة فى المبدأ وعليه حسن الختام.

* * *

﴿المقدمة﴾

١ – مجئ محمد على إلى مصر وتوليته

ولد ممدّن مصر المغفور له محمد على باشا فى مدينة قولـة[١] سنة ١١٨٢ هجرية الموافقة سنة ١٧٦٩ ميلادية وتوفى والده وهو فى حداثة سنه وقام بتربيته بعده عمه طوسون أغا، كافل أمر ضبط هذه المدينة إلى أن قضى نحبه فقيض الله له أحد أصدقاء والده للقيام بكفالته وكان ضابطاً بجيش الإنكشارية[٢] ومقيماً بفرقته فى مدينة (براوستا) بالقرب من قولة بصفة حاكم وجابٍ للخراج، فرباه مع ولده إلى أن بلغ أشدّه وصار يمرّنه على قضاء بعض مهماته التى تتعلق بوظيفته، فوجد منه عضداً ومعيناً فيها فى بعض القرى التى لا تؤدى ما عليها إلا بالتهديد الشديد أو استعمال القوى العسكرية، فلم يزل كذلك حتى بلغ من العمر ثمان عشرة سنة وذلك يوافق (١٧٨٧) فزوّجه بإحدى قريباته ليربطه بعائلته، وكانت زوجته ذات يسار فاشتغل بتجارة الدخان حيث كان يزرع فى هذه الجهة كثيراً، وساعده على ذلك ما كان بينه وبين أحد التجار الفرنساويين من العلائق الودّية فبرع فيها حتى ربح منها كثيراً ونال شهرة جليلة بين تجار هذا الصنف.

---

[١] هى بلدة فى بلاد مقدونية وطن الإسكندر الأكبر واقعة على بحر الأرخبيل وبها مينا متسع وتجارتها عظيمة ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة جلهم من المسلمين وتبعد ١٢٨ كيلومترا عن مدينة سالونيك واسمها عند الرومانيين القدماء نيو بوليس أى البلدة الجديدة.

[٢] كلمة محرفة عن التركية كانت تطلق على فرقة من الجند أسسها السلطان أورخان سنة ١٣٨٩ مسيحية ثم طغت تلك الفرقة وتجبرت حتى صارت تولى السلاطين وتعزلهم تبعا لأهوائها مع أنها كانت أقوى أسباب تقدم فتوحات الدولة العلية واستمرت على هذا الفساد إلى أن أمر السلطان محمود الثانى بإبطالها فقتل أغلبها فى يوم ١٦ يونيه سنة ١٨٢٦.

مجئ محمد على باشا إلى مصر:

لما احتل الفرنساويون مصر تحت قيادة بونابرت[1] فى سنة ١٧٩٨ أرسل الباب العالى إلى الأقاليم والبلدان جميعها بتجهيز الجند لإخراجهم منها، وطلب أيضاً من حاكم (براوستا) ثلثمائة جندىّ فجمعهم، وجعل ولده على أغا قائداً لهم والمرحوم محمد على باشا قائم مقام له.

فسارت هذه الكتيبة مع الدونانمة[2] العثمانية إلى سواحل مصر حيث نزل الجيش بأبى قير فى يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٩٩. وكان الجيش العثمانى مؤلفاً من ثمانية عشر ألف مقاتل ومعه مدافع كثيرة من الطراز الجديد يتولاها ضباط من الإنكليز، وبعد قليل انتشب الحرب بين بونابرت والجيوش العثمانية واستمر بينهما عدة أيام سجالاً، لثبات العثمانيين بموازة الدونانمة لهم ولعدم يأس الفرنساويين من الإنتصار وبعد أن قتل عدد عظيم من الجانبين التجأ العثمانيون إلى مراكبهم، وكان ذلك فى ٢ أغسطس سنة ١٧٩٩، ولبثوا فيها إلى أن تمكن الباب العالى والإنكليز من إخراج الفرنساويين من مصر بتقدم جيش تركى مركب من ثلاثين ألف مقاتل من جهة العريش فالصالحية فالقاهرة تحت قيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ونزول الإنكليز إلى الإسكندرية (أول مارث سنة ١٨٠١) ورشيد وصعودهم النيل إلى القاهرة على مراكب صغيرة أتوا بها من بلادهم لهذا الغرض.

وفى أثناء ذلك عاد على أغا قائد الكتيبة المقدونية، فخلفه محمد على باشا فى رياستها ثم بعد أن أخلى الفرنساويون القاهرة بمقتضى الإتفاق الذى أبرم بين

---

[1] ولد هذا الرجل الشهير فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ بمدينة (اجاكسيو) بجزيرة (كورسيكا) من عائلة شريفة لكنها قليلة الثروة ثم دخل المدرسة الحربية بباريس سنة ١٧٨٤ وترقى إلى رتبة ملازم ثانى طوبجى سنة ١٧٨٥ واشتهر فى استخلاص مدينة طولون من حوزة الإنكليز ثم تعين قائداً للجيش المحارب فى إيطاليا سنة ١٧٩٦ وبعد أن قهر الجيوش النمساوية عاد إلى باريس حيث كلف بفتح مصر فدخل الإسكندرية فى ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ وهزم المماليك فى واقعة الأهرام (٢١ يوليو سنة ١٧٩٨) ثم رجع إلى فرانسا فى أواخر سنة ١٧٩٩ وتولى قيادة الجيوش وصار بعد قليل رئيساً للحكومة (قنصل) وفى سنة ١٨٠٤ نودى به امبراطورا على فرانسا وقهر جيوش أوروبا التى تألبت عليه فى عدة وقعات شهيرة وكان منتهى أمره أن هزم فى واقعة واترلو (١٨ يونية سنة ١٨١٥) وارسل أسيراً إلى جزيرة سانت هيلانة حيث توفى فى يوم ٥ مايو سنة ١٨٢١

[2] يقصد بها الأسطول البحرى (المحرر).

الجنرال (منو) قائد الفرنساوية، الذى ينسب مؤرخوهم خروجهم من مصر لسوء إدارته وعدم كفاءته، وبين الصدر الأعظم والأميرال كيث الإنكليزى فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٠١. وسافروا إلى بلادهم فى أوائل سبتمبر من هذه السنة وتبعهم الإنكليز، وعادت بذلك سلطة الباب العالى إلى ما كانت عليه قبل دخول الفرنساوية، وعينت الدولة العلية خسرو باشا والياً من قبلها على الحكومة المصرية فى ثانى عشر جمادى الأولى سنة ١٢١٦[١] وكان بها إذ ذاك من الجنود أربعة آلاف من الأرنؤد، منهم فرقة تحت قيادة محمد على باشا، فلما توسم فيه الإستعداد لمهمات الأمور وجه إليه التفاته ورقاه تدريجياً حتى وصل فى وقت قريب إلى رتبة (سرششمه) أى رئيس فرقة مؤلفة من ثلاثة أو أربعة آلاف جندى، ومن ذلك العهد أخذ فى استعمال الجند واستمالة قلوبهم إليه للإستعانة بهم عند سنوح الفرصة.

أما المماليك فكانوا لا يزالون يجادلون ويحاولون الإستقلال، ويرغبون فى عدم رجوع مصر إلى الباب العالى وصيرورتها كغيرها من الولايات، فلما بلغ الدولة هذا الخبر أصدرت أوامرها إلى خسرو باشا بأن يقاتلهم حتى يفنوا عن آخرهم، وكانت قوتهم قد ضعفت لوقوع الشحناء بين رئيسيهم، وهما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى، اللذان كانا يتنازعان السلطة ويودّ كل منهما لو انفرد بها بدون مشارك أو منازع، فوجه خسرو باشا جماعة من الأرنؤد ومعهم فرقة محمد على باشا لمحاربة المماليك بالقرب من الجيزة وكانت الدائرة فيها على الأرنؤد قبل وصول محمد على مع فرقته.

فلما حصل ذلك حنق قائد هذه الحملة غيظاً، وعزم على نسبة عدم انتصاره إلى تأخر محمد على، وأنه اتفق مع المماليك، فسعى بذلك عند خسرو باشا فسرّ بهذه التهمة الباطلة ومع اعتقاده بطلانها أرسل للمرحوم محمد على يطلبه ليلاً إلى سرايه بالقلعة محتجاً بأنه وردت إليه أوامر مهمة من دار الخلافة وأنه لابد أن

---

[١] ٢١ سبتمبر ١٨٠١.

يعلمه بها فى الحال وأصرّ على قتله وأمر خدمة بذلك حين دخوله من البـــاب. فلما وصل الطلب إلى محمد على جزم بداهة بأن هذا الإســـتدعاء لم يكـــن إلا للإيقاع به، فتحير فى أمره وعلم أنه إن لم يجب طلب الوالى عدّ ذلك عـــصياناً وإن امتثل وذهب كان فى ذهابه ذهاب حياته، فبعد التروّى فى ذلك ظهـــر لـــه أرجحية عدم التوجه وآثر نسبة العصيان إليه على قتله وبات ليلته يترقب مـــا يبدو له وقت الصباح.

فساعده الحظ الأوفر بقيام الجند على خسرو باشا ومأمور ماليته (خزنة دار) لعدم صرف مرتباتهم وكان هذا ناشئاً عن عدم تحصيل الخراج لإستيلاء المماليك على الوجه القبلى وجزء عظيم من الوجه البحرى بحيث لم يكن فى حوزة الوالى إلا القاهرة وثغر الإسكندرية وما بينهما من القرى والبلدان.

ثم إن خسرو باشا أمر بإطلاق المدافع على الثائرين حتى خرّب جزأ عظيمـــاً من القاهرة، ولما علم أركان حرب الوالى المدعو طاهر باشا بذلك نـــزل مـــن القلعة ليتوسط بين الفريقين، فاتهمه الوالى بالإتحاد مع العصاة فاغتاظ طاهر باشا ومال مع الجند وحارب الوالى إلى أن ألزمه بالفرار إلى المنـــصورة ثم انتقـــل إلى دمياط وتحصن بها فاتخذ طاهر باشا هربه فرصة للحصول على الولايـــة، وجمـــع أعيان البلد وعلماءها وطلب منها أن يختاروه والياً على مصر حتى يعين البـــاب العالى خلفاً لخسرو باشا، فأقره المجلس على ذلك، لكنه لم يلبث الجند أن عصاه خصوصاً الإنكشارية لعدم صرفه مرتباتهم وصرف مرتبات الأرنؤد لـــيس إلا، فحاصروه فى سرايه فى يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ وأرسلوا إليه اثنين من أغواتهم ليرفعا إليه شكواهم فلم يستعمل السياسة معهما، بل نهرهما علـــى عـــصيانهما وطلب منهما أن يكونا مطيعين لأوامره فلم يرضيا بذلك واشتدّ الأمـــر بينـــه وبينهما إلى أن جردّ أحدهما سيفه وحز رأسه وألقاها من النافذة وكانت مـــدة ولايته ستا وعشرين يوماً.

وبعد قتله رغب الإنكشارية فى تولية أحمد باشا أحد أمراء الدولة وكان موجوداً بمصر أثناء توجهه للمدينة المنورة حيث عين والياً، فلم يقبل محمد على باشا هذا التعيين بل صعد إلى القلعة ومعه أربعة آلاف من الأرنؤد وأراد أن يقاوم الإنكشارية ولكنه لما علم أنه لا يقدر على المقاومة كاتب عثمان بيك البرديسى المقيم بالصعيد وغيره من أمراء المماليك بأن يساعدوه على طرد الإنكشارية، ويرد مصر إلى حكمهم المطلق كما كانت عليه، فاغتروا بوعده وصاروا يأتون القاهرة أفواجاً، حتى استجمع محمد على باشا من القوّة ما يقاوم بها الإنكشارية وزيادة فترل من القلعة وانضم معهم ثم تفرّقوا فى أنحاء القاهرة وأحدقوا بمترل أحمد باشا المذكور وهددوه وخيروه بين أمرين: الخروج من مصر أو القتل، فامتثل وخرج ثم نهبت العساكر داره.

ثم حول محمد على فكرته إلى الفتك بالإنكشارية خيفة أن يثوروا عليه كما فعلوا مع طاهر باشا فأوعز إلى الأرنؤد بذلك فانقضوا عليهم كالسيل المنهمر وسلبوا أموالهم وقتلوا أعيانهم، فاجتمع الباقون منهم بمصر القديمة وعزموا على التوجه إلى الشام من طريق الصحراء فهجم عليهم الأرنؤد وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق إلا من اختفى منهم، ففتشوا عليهم البيوت وغيرها ثم أطالوا أيديهم إلى الأهالى وتعدّوا عليهم بالأذى وتفرقوا فى النواحي وأكثروا من النهب خصوصاً فى الوجه البحرى.

وكان إذ ذاك محمد خسرو باشا مقيماً بثغر دمياط يقرر على أهلها ومن جاورهم الأموال الباهظة ويسومهم سوء العذاب ألواناً فتوجه محمد على باشا وعثمان بك البرديسي لمقاتلته، فحارباه وأسراه بعد أن هزما من معه فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٢١٨[1] وأرسلاه إلى مصر فى سجن القلعة.

أما الأرنؤد فارتكبوا من أنواع السلب والنهب وغير ذلك ما يعجز عن وصفه الواصفون، ويكل عن إحاطته العالمون، ثم عاد محمد على باشا إلى مصر

---

[1] ٥ يوليو ١٨٠٣.

وتوجه البرديسى إلى رشيد لمحاربة من فيها من العثمانيين فهزمهم وأسر على باشا القبطان، وحصل برشيد ما حصل بدمياط وكان الأرنؤد كلما مروا بقرية نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وآذوا مردانها ولما وصل خبر هذه الفوضى إلى دار الخلافة وعلم الباب العالى فوضوية مصر وأن لا والى لها يؤيد سلطته، أرسل إليها على باشا الجزائرلى والياً عليها لإخماد هذه الثورة ومعاقبة أمراء المماليك وكل من كان سبباً فى عزل خسرو باشا.

فلما وصل إلى الإسكندرية اشتغل بتدريب من أتى معه من الجند على النظام الأوربى، وأظهر له أمراء المماليك الميل والطاعة والإمتثال لأوامر الدولة ودعوه للحضور إلى القاهرة فاغتر بذلك الوعد وخرج من الإسكندرية قاصداً العاصمة فخرج عليه الأرنؤد فى الطريق وقتلوا من كان معه من الجنود العثمانية وأسروا الباشا وأتوا به إلى مصر أسيراً لا أميراً، ومحكوماً لا حاكماً، ثم أخرجه الأمراء بقصد إرساله إلى الشام من طريق الصحراء وأمروا من رافقه من الجند بقتله فى الطريق فقتلوه قبل أن يصلوا إلى الصالحية.

وفى أثناء هذه المدة عاد محمد بك الألفى من انكلترا، التى كان قد ذهب إليها ليطلب منها مساعدته على الإستقلال بمصر وإبادة الباقى من الأمراء العاملين على معاكسته ويقال أنه وعدها بتسليمها بعض الثغور لو نال مرغوبه بمساعدتها. ولما علم محمد على باشا بقدوم الألفى خشى من اتحاده مع البرديسى فيضيع عمله سدى، فعمد إلى توغير صدر البرديسى على محمد بك الألفى فنجح فى مسعاه حتى هم بالفتك به غدراً ولولا هرب الألفى إلى الصعيد لقتل بدسيسة البرديسى ومحمد على وبعد هرب الألفى إلى مصر العليا هاج الأرنؤد على البرديسى لطلب مرتباتهم (وربما كان ذلك بإيعاز من محمد على) فأمر البرديسى بضرب الضرائب الشديدة على أهالى العاصمة وخصوصاً الأغنياء من بينهم لإرضاء الجند فتذمرت الأهالى من هذا الظلم الدائم وشكوا أمرهم إلى محمد على باشا، لما كانوا يرونه فيه من الميل إليهم والحنوّ عليهم فتلقاهم بالبشر

والإيناس ووعدهم بالمساعدة على دفع المظالم، ثم بعد قليل اتحد الأهـالى مـع الأرنؤد وهاج الكل على البرديسى وحاصروه بمنزله وأرادوا قتله لكنه تمكن من الفرار وحارب مماليكه الجند وقاوموهم مقاومة عنيفة، فصعد محمد على باشا إلى القلعة وأحكم مدافعه على الجهة التى بها منزل البرديسى فخرب أكثر منازلهـا وانجلت هذه المعركة عن خروج كافة أمراء المماليك من القاهرة فنهبت بيـوتهم وسبيت نساؤهم ويتمت أطفالهم.

فصفا الجوّ لمحمد على باشا، لكن لحسن سياسته لم يرغب إظهار مـا يكنُّـه صدره من الإنفراد بالحكم والإستقلال بولاية مصر بل تربص حـتى تـساعده الفرص فينال مرغوبه بلا عناء ولا نصب.

تعيين محمد على باشا والياً على مصر:

لما خرج عثمان بك البرديسى وكافة الأمراء من القاهرة، دعا المرحوم محمد على باشا أعيان البلد وعلماءها وقال لهم أنه لا يليق بقاء مـصر بـدون وال يواليها ولا سائس يسوسها ولا راع يراعيها، وأن الأولى إخراج خسرو باشا من سجنه بالقلعة وجعله والياً فأقر المجلس على ذلك وأخرج الباشا من الـسجن. لكن بعد يوم ونصف ثار عليه رؤساء الأرنؤد وطلبوا من محمد على إخراجه من مصر وطرده منها فأذعن لطلبهم وأرسله تحت الحفـظ إلى رشـيد ومنـها إلى اسلامبول، ثم طلب محمد على من الأرنؤد أن يعين أحمد باشا خورشـيد واليـاً على مصر فرضى الكل بذلك بشرط تولية محمد على قائم مقام لـه وبـذلك انحسم النزاع وحرر بذلك محضر وأرسل للباب العالى للتصديق عليه فـصدق على ما حصل وأرسل بذلك فرماناً مع مخصوص من طرفه فقام خورشيد باشـا من الإسكندرية وانتقل إلى القاهرة وحصل بعد ذلك وقائع لها وقع بين الجنـد والمماليك الذين كانت سلطتهم مبسوطة على الصعيد إلى الجيزة. وبينما محمـد

على مشتغل بمحاربتهم استحضر خورشيد باشا طائفة من الدلاة[1] ليجعلهم حرساً لنفسه وذلك لتوجسه خيفة من محمد على وجنوده الأرنؤد وعدم ثقته بهم، لا سيماً وكان الأهالى يميلون كل الميل إلى محمد على لإستعماله اللطف واللين معهم خصوصاً مع العلماء والأعيان.

فلما علم محمد على بحضور هؤلاء الدلاة عاد بسرعة إلى القاهرة واشتغل بمقابلة علمائها وصار يشنع لهم على الدلاة وما ارتكبوه وكانوا قد انتشروا فى البلد كالجراد ينهبون وفى العالم يقتلون وفى النساء يهتكون ويأخذون أموال الناس ظلماً وبهتاناً وصار محمد على يحرض الناس على رفع شكواهم إلى الوالى فاتبعوه وتظلموا لخورشيد باشا، فكان يعدهم بالنظر فى شكواهم والتأمل فى بلواهم ولا يمكنه الوفاء بوعده مراعاة للجند حتى ملّ الأهالى من إزدياد الجور والتعدى وانتشر الهياج فى كافة أنحاء البلد وخاف كل فريق من الآخر.

وبينما هم على ذلك إذ ورد فرمان بتولية محمد على باشا على جدّة فأظهر الإمتثال وأخذ يتأهب للسفر فاضطرب العسكر والأهالى لعدم رضا الأهالى بمفارقته، وفى أثناء ذلك صادف أن طلب الجند صرف مرتباتهم فأحالهم محمد على باشا على الوالى ولما لم يكن بيده ما يسدّ به عوزهم، صرح لهم بنهب القليوبية فتفرّقوا فيها شذر مذر ونهبوها وسبوا النساء وباعوا الأولاد فتغيرت قلوب الأهالى وأبغضوا الوالى ومالوا إلى محمد على لما كانوا يرونه فيه من الحزم والمساعدة فألح العلماء والأعيان، ولجوا على محمد على باشا بعدم السفر إلى جدّة وانتخبوه والياً عليهم ثم أرسلوا إلى خورشيد باشا بذلك فقال لهم إنّى مولى من طرف السلطان فلا أعزل إلا بأمره، وتحصن فى القلعة، أما جميع القوى العسكرية من أرنؤد ودلاة وغيرهم فانحازت إلى محمد على إلا القليل وكتبوا

[1] قال الجبرتى أن الدلاة طائفة تنتسب إلى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأكثرهم من نواحى الشام وجبال الدروز والمتاولة يركبون الأكاديش وعلى رؤسهم الطراطير السود مصنوعة من جلود الغنم الصغار طول الطرطور نحو ذراع وهذه الطائفة مشهورة فى دولة العثمانيين بالشجاعة والإقدام فى الحروب ويوجد فيهم من هم على طريقة حميدة ومنهم دون ذلك وقليل ما هم اهـ

باشتراكهم مع العلماء إلى الباب العالى يطلبون تولية محمد على على مصر فأجاب الباب العالى طلبهم أملاً فى حسم النزاع وأصدر بذلك فرماناً وصل إلى القاهرة فى ٩ يوليه سنة ١٨٠٥.

لكن لم يقبله خورشيد باشا بل ظنه إفكا افتراه أعداؤه فحاصره محمد على فى القلعة ورتب على أبوابها الخفر من الأرنؤد إلا أنهم لم يفعلوا ما أمروا به لعدم صرف مرتباتهم فتركوه وتفرقوا فى البلد ينهبون ويسلبون، إلا أن ذلك لم يؤثر فى عزيمته بل رتب بدلهم خفراء من الأهالى وقلدهم بالسلاح.

وبعد قليل حضر قبطان باشا من قبل الدولة العلية ومعه أوامر مشدّدة بإخراج خورشيد باشا، فامتثل وخرج مع بعض الدلاة إلى الجهات البحرية يعثو فى الأرض فساداً فأرسل خلفهم محمد على بعضاً من جنده فلحقوهم وأجلوهم عن مصر، فذهبوا إلى الشام واستقل محمد على بولاية مصر ولم يكن له فيها منازع إلا من بقى من المماليك بعد هذه المناوشات والحروب.

ثم إن الإنكليز طلبت من الباب العالى عزل محمد على أو نقله إلى ولاية أخرى لأمر بدا لها فى ذلك، سنأتى على تفصيله قريب، فسمع الباب العالى مقالها وأرسل إلى مصر دونانمة تحت إمرة قبطان باشا ومعه فرمان بتولية محمد على باشا سلانيك وتعيين من يدعى موسى باشا مكانه، فأتى الإسكندرية ومعه فرقة من العساكر المنتظمة وأمر بإعادة أمراء المماليك إلى ولاية الأقاليم. ولما بلغ هذا الفرمان إلى محمد على باشا لم يظهر عدم الإمتثال بل استعدّ للسفر فاجتمع عليه العلماء والقوّاد والجنود وأخبروه أنهم لا يرضون بخروجه، وأنهم يحررون خطاباً للباب العالى ويرسلونه مع ولده إبراهيم بك ويكون مضمونه إظهار رغبتهم فى بقائه عليهم والياً لما رأوه منه من مراعاة جانب الأهالى ومنع مظالم الجنود عنهم واتباعه مشورة العلماء فى الأمور المهمة، ولما وصل إبراهيم بك إلى الإسكندرية رجع معه قبطان باشا بمراكبه ومعه موسى باشا الذى أتى ليكون والياً فلما وصلوا إلى إسلانبول وعرض الأمر على الباب العالى، قبل السلطان

ما طلبه المصريون وأرسل إلى مصر فرماناً بتثبيت محمد على باشا على ولايته فوصلها الفرمان فى أواخر شعبان سنة ١٢٢١ (٧ نوفمبر سنة ١٨٠٦).

لكن لم ينقطع أذى الجند عن الأهالى بل كان الخلاف عاماً فى جميع الأنحاء والشغب ضارباً أطنابه بين صفوف العساكر، فالأرنؤد تخالف الإنكشارية وتقاتلها، والدلاة تعادى كل فرقة وتنازعها، والكل معاد للأهالى عاصٍ للوالى يعيثون ويعربدون فى أنحاء القاهرة وينهبون الأهالى ويطردونهم من منازلهم ويسكنونها واستعملوا فى النهب والسلب أنواع الحيل فيما لم يجدوا إليه سبيلاً فربما جلس العسكرى على حانوت رجل بدعوى الإستراحة أو اشتراء شئ ثم يقوم ويعود ثانياً قائلاً إنى نسيت وتركت هنا كيساً، ويجعل ذلك سبيلاً لإهانة صاحب الحانوت ونهب ما عنده وربما زاد على ذلك ما لا يخطر بالبال ولم يحصل مثله عند الأمم الجائلة فى ظلمات التوحش وفيافى الهمجية. فشاركوا الباعة فى عروضهم وساهموهم فيما يربحون من أموالهم، هذا والأهالى يتحملون كل هذه الشدائد ولا يهمون بمنعها بل يتجلدون بالصبر والتضرع إلى الله فى أن يخلصهم مما نزل بهم من شرور هذه الفئة الباغية فكانوا متقلبين على جمرات البلايا فى بحار الرزايا تضيق صدورهم ولا تنطلق ألسنتهم.

ولما أتى إلى محمد على باشا الفرمان المؤذن ببقائه فى ولاية مصر أخذ فى استعمال الوسائط لإراحة البلاد من شر هؤلاء الطغاة تارة بالملاينة وأخرى بالمحاربة، حتى أذعن له أمراء المماليك فأقطعهم البلدان والأقاليم وأعطى لشاهين بك إقليم الفيوم وثلاثين بلداً من أقاليم البهنسا وعشرة من الجيزة – ومما ساعد على استتباب الأمن موت محمد بك الألفى الذى كان من أكبر أمرائهم جسارة وإقداماً، وعقب موته مات عثمان بك البرديسى فكانت وفاة الأول فى ديسمبر سنة ١٨٠٦ والثانى فى يناير سنة ١٨٠٧، ثم حضر إليه نعمان بك من أمرائهم فأكرمه وزوّجه إحدى جواريه وأعطاه بيت المهدى بدرب الدليل. وهكذا صار يكرم كل من أتى إليه منهم كعمر بك وغيره ثم أتى إليه إبراهيم بك الكبير

فولاه إقليم جرجا وبهذه الحالة لم يعد لمحمد على باشا شاغل من جهة الأمراء ولا أتباعهم، لكنه لم يزل يخشى غدرهم وخيانتهم عند حصول أقل أمـــر يغـــضبهم وتيقن أن لا راحة له إلا بعد استئصال جرثومتهم الخبيثة وتطهير القطر المصرى من دنس وجودهم، ولقد ساعده الحظ على تتميم ذلك وتمكن من إبادتهم كما سيجئ.

* * *

٢- دخول الإنكليز مصر

لما علم الإنكليز بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر يئسوا من نوال مرغوبهم بالطرق السلمية وعمدوا إلى استعمال القوّة وأرسلوا إلى الإسكندرية إسطولاً بحرياً مركباً من سبعة عشر مركباً حربياً يقل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف جندى تحت قيادة الجنرال (فريزر) لإحتلالها فوصلت إلى الثغر فى أول المحرم سنة ١٢٢٢ (١٠ مارث سنة ١٨٠٧) وأرسل قائد الجيش إلى حاكم المدينة أن يأذن لهم بالنزول إلى البر، لأنهم يريدون احتلال الثغر محافظة على مصر من الفرنساويين خوفاً من أن يعيدوا الكرّة عليها فأجابهم الحاكم بأنه لا يأذن لهم بذلك إلا إذا كان معهم أمر من الدولة العلية، فلما وجد الإنكليز أنه لابدّ من النزول إلى البرّ عنوة تأهبوا للقتال وأمهلوا المدينة أربعاً وعشرين ساعة، وقبل انقضاء هذا الميعاد سلم حاكم المدينة، المدعو أمين أغا من ضباط الإستانة، المدينة بدون أن يتعرض لمنع خروج العساكر إلى البر ولا لمنع تقدمهم نحو المدينة، بل قبل العار وسلم نفسه ومن معه من العساكر من غير أن يرمى شيئاً من المقذوفات عليهم وبهذه الكيفية تمكن الجنرال الإنكليزى من أخذ هذه المدينة الشهيرة بدون أن يفقد أحداً من عساكره[1] فاحتلها الإنكليز فى صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم سنة ١٢٢٢.

وذكر الجبرتى أنهم شرطوا مع الأهالى أنهم لا يسكنون البيوت قهراً عن أصحابها بل بالمؤاجرة والتراضى، ولا يمتهنون المساجد ولا يعطلون الشعائر الإسلامية وأعطوا أمين أغا نظير خيانته أماناً على نفسه ومن معه من العساكر وأذنوا لهم بالذهاب إلى أىّ محل أرادوه ومن كان له دين على الديوان يأخذ

[1] الإسكندرية مدينة بحرية واقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وتبعد عن القاهرة بمسافة ١٣٢ كيلومترا أسسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل المسيح واشتهرت بمكتبتها الشهيرة التى ينسب حرقها إلى عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو خطأ بين كما يشهد التاريخ ثم فتحها الرومانيون سنة ٣٠ قبل المسيح ودخلها المسلمون سنة ٦٤٠ مسيحية (سنة ٢٠ هجرية) ثم استولى عليها السلطان سليم الأول العثمانى سنة ١٥١٧ ميلادية.

نصفه حالاً والنصف الثانى مؤجلاً ومن أراد السفر فى البحر من التجار وغيرهم يسافر فى خفارقم إلى أىّ جهة أراد ما عدا إسلامبول، وأما إلى الغرب والـشام وتونس وطرابلس ونحوها فطلق السراح ذهاباً وإياباً وأن محكمة الإسلام تكون مفتحة الأبواب للمتقاضين تحكم بشريعتها الإسلامية ولم يكلفوا أهل الإسـلام بإقامة دعوة عند الإنكليز بغير رضاهم. اهـ بتصرف.

واقعة رشيد:

أما الجنرال الإنكليزى، فمن بعد أن استراح بضعة أيام وجهز ما يلزم، أمـر بتوجيه بعض عساكره إلى رشيد ليكون له فى القطر موقع آخر وكان عدد مـن أرسل من الجند إلى ثغر رشيد ألفى جندى منهم مائتان من البحريـة، ولم تكـن حامية رشيد مؤلفة إلا من بضع مئين يرأسهم شخص ذو صداقة وشجاعة يسمى على بك، فلم يقلد أمين أغا حاكم الإسكندرية فى تسليمه المدينة بل صمم على المدافعة والمكافحة عن المدينة بكتيبة قليلة العدد والعدد على قدر الإستطاعة، ثم أمر عسكره وشدد عليهم بأن لا يطلقوا بنادقهم مطلقاً حتى يشير إلـيهم ولمـا شاهد عساكر الإنكليز ما شاهدوه من هذه الحالة ظنوا أهم لا يجدون مدافعة بل يدخلون ثغر رشيد كما دخلوا الإسكندرية وكانوا فى تعب من السير فـدخلوا البلد بدون احتراس وانتشروا فى أسواقها حيث وجدوها خالية خاوية، ثم بحثوا عن أمكنة يلتجأون إليها ويستريحون فيها وأغلبهم رموا أسـلحتهم ونـاموا فى الطرق، فلما رأى ذلك على بك وتحقق التمكن منهم، خرج عليهم بقليل مـن العسكر وأطلق النار على كل جهة كانوا موجودين فيها، فنالهم من ذلك دهشة عظيمة كأنما بعثوا من القبور وأخذ الفشل فيهم ومما زاد فى ارتبـاكهم إطـلاق العسكر بنادقهم عليهم من الأبواب والشبابيك وأسطحة البيوت فبعد قليل من الزمن فرت الجنود الإنكليزية هاربة بدون انتظام إلى جهة الإسكندرية بعـد أن هلك اللواء القائد لها وكثير أيضاً من الضباط ومائة جندى وأخذ منـهم مائـة وعشرون أسيراً ومدفعان، أما الهاربون فلم يزالوا يتحملون عناء الـسفر حـتى وصلوا إلى الإسكندرية.

وذكر الجبرتى أنه فى يوم الأحد السادس والعشرين من محرم سنة ١٢٢٢[١] أشيع بالقاهرة خبر وصول رؤس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس بالذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم وطلعوا بهم إلى البر ومعهم جماعة العسكر المتسفرين، فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا بهم من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم ضابطان وهما راكبان على حمارين والباقى مشاة فى وسط العسكر ورؤس القتلى معهم على نبابيت وقد تغيرت وأنتنت رائحتها وكانت عدة الرؤس أربعة عشر والأحياء خمسة وعشرين ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية، وضربوا عند وصولهم شنكاً وطلعوا بهم إلى القلعة وفى اليوم التالى وصل أيضاً إلى القاهرة عدة من الرؤس وثلاثة عشر أسيراً من الإنكليز وساروا بهم إلى القلعة بمثل ما حصل بهم فى اليوم الذى قبله.

ولما وصل إلى محمد على باشا خبر وصول الإنكليز إلى الإسكندرية وكان بالصعيد يحارب المماليك كتب إليهم بالصلح وأرسل إليهم المشايخ، يحثونهم على الإتفاق معه لمحاربة الإنكليز فلم يقبلوا الصلح بل قالوا: لو تحققنا الأمن والصدق من مرسلكم لما حصل منا خلاف ولا حاربناه ولا قاتلناه ولكنه كثيراً ما يعدنا بمثل هذه المواعيد عند الإحتياج إلينا ثم لا يفى بما وعد، وحيث أنه قد هدمت دورنا وتفرق شملنا ولم يبق لنا ما نأسف عليه ونتحمل المذلة من أجله وقد ماتت إخواننا ومماليكنا فنستمر على ما نحن عليه حتى نفنى عن آخرنا ويستريح باله من جهتنا، فلاطفهم المشايخ وأقنعوهم بالصلح وقالوا لهم أنه أولى من تداخل الأجانب بينكم فقبل الكل وساروا إلى القاهرة.

وفى اليوم الثانى من شهر صفر سنة ١٢٢٢[٢] عاد محمد على باشا وأخذ فى تحصين القاهرة بمساعدة قنصل فرانسا واستمر الأهالى فى قلق واضطراب والجند

(١) ٧ ابريل ١٨٠٧.
(٢) ١١ ابريل ١٨٠٧.

فى تأهب وسفر إلى يوم ١٤ منه، فوردت الأخبار بانتصار المصريين على الإنكليز فى ضواحى رشيد وقد عادوا إلى مهاجمتها بعد انهزامهم أول مرة. وفى يوم ١٥ منه وصل إلى القاهرة من أسر فى هذه الواقعة ورؤس بعض القتلى فأطلقت المدافع من الأزبكية والقلعة استبشاراً ثم أمر الباشا بإرسال الأطباء إلى القلعة لمعالجة الجرحى من أسراء الإنكليز والإعتناء بهم وتمييز الضباط عنهم فى المأكل والمشرب ورتبت لهم المرتبات وقضوا مدة أسرهم فى مصر بغاية الإكرام.

وإليك تفصيل هجوم الإنكليز على رشيد نقلاً عن جريدة أركان حرب الجيش المصرى وذلك أنه لما وصل الإنكليز إلى الإسكندرية وجرى ما أسلفناه اغتاظ الجنرال (فريزر) مما حصل لجنده فى رشيد فشكل سرية أخرى وأرسلها إليها وكانت مركبة من ثلاث آلاف نفر وستة مدافع وأربعة قطع من الهوّان تحت رياسة الجنرال (استيوارت) فلما وصلت تلك السرية إلى رشيد فى ١٨ إبريل سنة ١٨٠٧ وضع الجنرال المذكور بطريتين فى القطعة المرتفعة من ناحية أبى مندور وتمكن من قرية الحماد ووضع فيها خمس بلوكات لأجل محافظة ووقاية الخلف، ثم ابتدأ المحاصرون، أى الإنكليز، فى ضرب النار فكلما تذكر المحصورون الظفر الذى نالوه فى الوقعة الأولى صبروا وتجلدوا وكانوا يرهبون الحاصرين فى غالب الأحيان بخروجهم إلى خارج البلدة وهجومهم عليهم فمكث ضرب النار أسبوعين بلا ثمرة وفى آخر تلك المدّة أى فى ٢١ إبريل تعجب الفريقان من الإمدادية التى أتت على حين غفلة من طرف محمد على باشا فاستبشر المحصورون بذلك، وكان مقدار الإمدادية المذكورة ألفاً وخمسمائة سوارى وأربعة آلاف بيادة، وفى الحال انقسمت تلك العساكر إلى فرقتين إحداهما صغيرة واتخذت موقعها أمام الحماد والثانية كبيرة تحت رئاسة الكيخيا واتخذت موقعها فى برنبال[1] وكان عساكر الفرقتين يشاهد بعضهم بعضاً.

---

(١) هى قرية بمديرية الغربية بمركز دسوق على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد فى شمال قرية مطوبس بينها وبين رشيد نحو ساعتين ومنها إلى فوّة ٤ ساعات تقريبا وهى قرية مبنية بالآجر واللبن وبها جوامع ومنارات ولطياتها متصلة ببحيرة البرلس ويزرع فيها الأرز كثيرا وسائر الأصناف المعتادة وكان لمحمد على باشا بها قصر ينزله وفيه توفى ولده الأمير أحمد باشا الشهير بطوسون ليلة الأحد ٧ ذى القعدة سنة ١٢٣١ هجرية.

وعند فلق صباح اليوم التالى هجمت الفرقة الصغيرة على مدفع الإنكليز الذى كان بالحماد بعساكر البيادة والسوارى لكنها تقهقرت فتبعها أحد بلوكات الإنكليز إلى مسافة بعيدة حتى انفصل البلك المذكور عن بقية الجيش وحينئذ رجع سوارى المصريين بالهجوم على ذلك البلك ففرّقته وقتلت منه عشرين نفراً وأسرت خمسة عشر، وفى الليلة التالية اقتحم الكيخيا بعساكره نيران الإنكليز واجتمع مع قائد الفرقة الأخرى وفى هذه الليلة أخذ الجنرال (استيوارت) عساكر قوه قول الحماد بخمس بلوكات فصار جميع القول ٨٥٠ نفراً تحت قيادة الأميرالاى (مكليود) وكان الأميرالاى المذكور يظن حينئذ أنه لم يكن أمامه خلاف الفرقة الصغيرة لكنه لما رأى فى الصباح أن جميع الجيش اجتمع أمامه وأخذ فى السير لمهاجمته أمر بالتقهقر، إلا أنه غلط فى تقهقره بسبب تجزئة قوّته إلى سريات فجعل أولاها مركبة من ثلاث بلوكات تحت رئاسة البيكباشى (مور) وثانيتها من بلوكين تحت رئاسته والثالثة من خمس بلوكات ومدفعين تحت رئاسة البيكباشى (وجلستر) ثم لم يسيّر أيضاً تلك السريات مع بعضها بل جعلها منفصلة عن بعضها بمسافات بعيدة، فعند ذلك انتظرت السوارى المصرية سرية البيكباشى (مور) حتى انفصلت من السريتين الأخريين وأحاطت بها من كل جانب ومكان حتى لم ينج من القتل إلا من أسر وهو البيكباشى (مور) وقليل من الأنفار، ولما بعد الأميرالاى (مكليود) مسافة نصف ميل أراد الرجوع والإجتماع مع سرية البيكباشى (وجلستر) لكن كان ذلك صعب المنال لأنّ السوارى المصرية لم تمهله بل أحاطت به فالتزم بأن يشكل سريته بهيئة قلعة وتمكن بذلك من صدّ السوارى المصرية إلا أنّ عساكر البيادة أطلقت عليه ناراً مدراراً وقتلته وكثيراً من الجند، فأخذ اليوزباشى (ماكى) مكانه من الرئاسة وصمم على اقتحام وسط المصريين كى يلحق بإخوانه لكن لم تزل نيران بنادق المصريين تنهال عليه كالسيل، حتى لم يصل إلى البيكباشى (وجلستر) إلا بنفر قليل مقداره سبعة أشخاص، وأما البيكباشى (وجلستر)

فدافع بعد وصول الميرألاى (مكليود) بشجاعة وإقدام، لكنه التزم فى آخر أمره أن يسلم نفسه ومن معه.

هذا وأمّا الجنرال (استيوارت) فأسرع فى تسمير المدافع الكبيرة وحرق الذخيرة ثم قفل راجعاً إلى الإسكندرية مع ألفى نفر بقيت ممن كان معه من الجند وبعد الهزيمة الثانية التى حصلت للإنكليز أمام رشيد لم ير الجنرال (فريزر) من الحكمة أن يهاجم رشيد مرة أخرى حتى يحضر له إمداد من انكلترا، وخاف من هجوم عساكر الوالى عليه فأخذ فى تحصين المدينة. اهـ بتصرف.

ولما رجع الإنكليز إلى الإسكندرية بعد هزيمتهم ثانى مرة أمام مدينة رشيد قطعوا جسر أبى قير الحائل بين مياه البحر المالح وأرض البحيرة لقطع المواصلات بين الإسكندرية وداخل القطر فعم الماء أغلب جهات البحيرة وخرّب بلادها وأتلف أرضها ومزروعاتها وأعدم منها نحو مائة وأربعين بلداً بقى أغلبها إلى الآن وهى ما تراه بين إتكو وبحيرة المعدّية إلى المحمودية وما جاور بحيرة مريوط ممتداً بالقرب من دمنهور.

خروج الإنكليز من مصر:

وفى وسط جمادى الثانية سنة ١٢٢٢(١٨٠٧م) سافر الباشا بنفسه إلى دمنهور وتكررت بينه وبين الإنكليز المكاتبات فى شأن إخلاء الإسكندرية وتم بينهما الإتفاق على إخلائها وتعهد محمد على باشا بتسليم ما أخذ من عساكرهم أسرى فى أثناء الحرب. وفى ٥ رجب أتت أوامر الباشا إلى العاصمة بإرسال الأسرى فأرسلوا إلى الإسكندرية، وبمجرد وصولهم نزل الإنكليز مراكبهم ورجعوا إلى بلادهم وكان ذلك فى ١٠ رجب سنة ١٢٢٢ (٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) ولما وصل إلى القاهرة خبر زوال الخطر من احتلال الإنكليز الثغر الإسكندرى ودخول محمد على باشا بها، أطلقت المدافع من القلعة ثلاثة أيام متوالية فى الأوقات الخمس.

* * *

٣- حرب الحجاز

وفى آخر شهر ديسمبر من السنة المذكورة أتى فرمان لمحمد على باشا من الدولة العلية يؤيده على ولاية مصر ويأمره فيه بإرسال تجريدة من مصر إلى العرب الوهابيين الذين تملكوا بلاد العرب ومدينتى مكة والمدينة المنوّرة وصاروا يؤذون حجاج بيت الله الحرام واتسع حكمهم وتفاقم أمرهم حتى خشيت الدولة العلية بأسهم وجردت الجيوش لهم فعادوا بالخيبة والوبال.

ولقد أردت قبل تفصيل ما جرى بين المصريين وبينهم من الحروب أن أذكر نبذة من مذهبهم عثرت عليها بالمجلة الفرنساوية المسماة (جورنال آزياتيك) نشرت فى هذه المجلة باللغة العربية وها هى بحروفها:

إن الوهابيين قوم من العرب تمذهبوا بمذهب عبد الوهاب وهو رجل ولد بالدرعية، وهى مدينة بأرض العرب من بلاد الحجاز، وكان من وقت صغره تظهر عليه النجابة وعلوّ الهمة والكرم وشب على ذلك واشتهر بالمكارم عند كل من يلوذ به وبعد أن تعلم مذهب أبي حنيفة فى مدارس بلاده سافر إلى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ عنهم حتى اتسعت معلوماته فى فروع الشريعة وخصوصاً فى تفسير القرآن ثم عاد إلى بلاده فى سنة ١١٧١ هجرية (١٧٥٧م) فأخذ يقرّر مذهب أبي حنيفة مدّة ثم أدّته ألمعيته إلى الإجتهاد والإستقلال فأنشأ مذهباً مستقلاً وقرّره لتلامذته فاتبعوه وأكبوا عليه ودخل الناس فيه بكثرة وشاع فى نجد والإحساء والقطيف وكثيراً من بلاد العرب مثل عمان وبنى عتبة من أرض اليمن، ولم يزل أمرهم شائعاً ومذهبهم متزايداً إلى أن قيض الله لهم عزيز مصر محمد على باشا فأطفأ سراجهم فى سنة ١٢٣٢(١٨١٦م) وكسر شوكتهم وأخفى ذكرهم وهالك رسالة من كلامهم تدل على بعض مذهبهم ومعتقداهم:

اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام وهـي أن تعبـد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعـالى "ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فإذا عرفت أن الله سبحانه وتعالى خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كمـا أن الـصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك فى العبادة فسدت كالحـدث إذا دخل فى الطهارة كما قال تعالى "ما كان للمشركين أن يعمـروا مـساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه من جلب خير أودفع ضر فقد أشرك فى العبادة كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو مـن دون الله مـن لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين" وقال تعالى "والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكـم ويـوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئنك مثل خبير" فأخبر تبارك وتعالى أن دعـاء غير الله شرك فمن قال يا رسول الله أو يا ابن عباس أو يا عبد القادر زاعماً أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذى يهـدر دمـه وماله إلا أن يتوب من ذلك، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذى يتوكـل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجـئ إلى غير الله أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو أيضاً مـشرك، ومـا ذكرنا من أنواع الشرك هو الذى قال الله فيه "إن الله لا يغفر أن يـشرك بـه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" وهو الذى قاتل عليه رسول الله صلى الله عليـه وسلم المشركين وأمرهم بإخلاص العبادة كلها لله سبحانه وتعالى.

ويصح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله فى كتابه أوّلها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرّون أن الله هو الخـالق الـرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحىّ مـن الميـت

ويخرج الميت من الحيّ ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقـــون" وقولـــه تعالى "قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون" فإذا اعترفوا بذلك ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دونـــه وهو لا يملك كشف الضر عنهم ولا تحويله فلابدّ أن يشركوا.. القاعدة الثانيـــة أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى ونحن نريـــد من الله لا منهم ولكن بواسطتهم وشفاعتهم وهذا شرك أيضاً والدليل عليه قول الله تعالى "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا يـــنفعهم ويقولـــون هـــؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ســـبحانه وتعالى عما يشركون" وقال تعالى "الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبـــدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهـــدى من هو كاذب كفار"، فإذا عرفت هذه القاعدة أيضاً فاعرف القاعـــدة الثالثـــة وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعـــالى "أولئـــك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محظوراً" ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل حكم على الجميـــع بـــالكفر وقاتلهم حتى يكون الدين كلمة الله، وإذا عرفت هذه القاعدة فعليك بالقاعـــدة الرابعة وهى أنهم يخلصون لله فى الشدائد وينسون ما يشركون به والدليل علـــى ذلك قوله "فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى الـــبر إذا هم يشركون" وأهل زماننا يخلصون الدعاء فى الشدائد لغير الله سبحانه، فإذا عرفت هذه القاعدة فسلم القاعدة الخامسة وهى أن المشركين فى زمـــن الـــنبى أخف شركاً من عقلاء مشركى زماننا لأن أولئـــك يخلـــصون لله فى الـــشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم فى الشدّة والرخاء ولم يعلموا قوله عليه السلام تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدّة والله أعلم بالصواب.

هذا ولما أتى ذلك الفرمان إلى محمد على باشا بذل جهده فى تجريد العسكر وجمع لهم ما يلزم من مؤن وذخائر مع صعوبة هذا الأمر فى الوقت الذى كانت فيه المماليك متحزبة عليه، فضلاً عن أن خزينته خالية إذ ذاك من النقود ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر صعب يهلك فيه كثير من العساكر وبهائم النقل أيضاً، أصرّ على أن يتخذ طريقه البحر الأحمر حيث كان سهلاً لنقل جنوده إلى فرضة جدّة، ولم يغيره عن هذا العزم عدم وجود مراكب له لنقل الجند بل أصدر أوامره إلى سائر جهات القطر المصرى بجمع الأخشاب وما يلزم لإنشاء خمسة عشر سفينة[1] فوردت ووضعت فى الترسانة ببولاق مصر القاهرة وتجهزت للتركيب ثم نقلت على ظهور الجمال إلى ميناء السويس، فركبت هناك وبينما هو آخذ فى التجهيز إذ حضر رسول من قبل السلطان إلى القاهرة ومعه سيف برسم طوسون باشا ولد المرحوم محمد على باشا المعين لقيادة الحملة المزمع إرسالها إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين، وجواب من الباب العالى يحثه على الإسراع فى إرسال تلك الحملة، فسافر إلى السويس لإنجاز تلك التحضيرات وبينما هو مقيم بها إذ اكتشف مكيدة من المماليك لإختطافه أثناء عوده من السويس إلى مصر، ولما كان دائماً يدبر فى طريقة للتخلص من شرهم قبل سفر الجند إلى بلاد العرب خوفاً من قيامهم عليه والفتك به، انتهز هذه الفرصة لإتمام ما ينويه لهم منذ دخوله مصر ولأجل أن لا يقع فى أيديهم ركب هجيناً جيداً أوصله إلى القاهرة فى ليلة واحدة وليس معه إلا خادم واحد حتى نجا بنفسه من تلك المهلكة وشرع فى تنفيذ ما عزم عليه.

[1] قال الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٢٤ أن محمد على باشا لما عزم على حرب الوهابيين شرع فى شهر ذى الحجة فى إنشاء مراكب لبحر القلزم فطلب الأخشاب الصالحة لذلك وأرسل المعينين لقطع أشجار التوت والنبق فتجمعت من جهتى القطر القبلى والبحرى وجعل بساحل بولاق ترسخانة وورشات وجمعوا أرباب الصنائع كالنجارين والنشارين وغيرهم ليهيؤها وكانت تحمل الأخشاب على الجمال وتركبها الصناع بالسويس ويقلفطونها ويبيضونها ويلقونها فى البحر فعملوا أربع سفن كبار إحداها تسمى الإبريق وخلاف ذلك ودلوات لحمل المسافرين والبضائع.

واقعة القلعة:

تفصيل ذلك على ما جاء فى الجبرتى إن العزيز محمد على باشا لما قلد ابنــه طوسون سر عسكر الركب المتوجه إلى الحجاز وخرجت جيوشه إلى قبة العزب ونوّه بتوجيه العساكر إلى جهة الشام لتمليك يوسف باشا محله الذى كان عزل عنه، وجعل رئيسهم شاهين بك الألفى واختار يوم الجمعة للسفر (٥ صفر سنة ١٢٢٦ الموافق أوّل مارث سنة ١٨١١) فلما كان يوم الخمــيس طــاف ألاى جاويش بالأسواق على الهيئة القديمة فى المناداة للمواكب العظيمة وهو لابــس الضلمة والطبق[١] على رأسه، وراكب حماراً عالياً وأمامه مقدّم بعكاز وحولــه قبجية ينادون بقولهم (يارن ألاى) يريد بذلك إعلامهــم بحــصول الموكــب ويكرّرون ذلك فى جميع أنحاء المدينة وطافوا بأوراق التنبيهات على كبار العسكر والأمراء المصريين الألفية[٢] وغيرهم يطلبوهم للحضور فى باكر النهار إلى القلعة ليركب الجميع بتجملاهم وزينتهم أمام الموكب.

فلما أصبح يوم الجمعة ركب الجميع فى الساعة الخامسة وطلعوا إلى القلعــة وطلع المصريون بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم فدخل الأمراء عند الباشا وحيوه وجلسوا معه مدّة من الزمن وشربوا القهوة وتضاحك معهم، ثم سار الموكــب على الوضع الذى رتبوه فسارت طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون على ومن خلفهم الوالى (حاكم القاهرة) والمحتسب والأغا والوجاقليــة والألداشــات[٣] المصرية ومن تزيا بزيهم ومن خلفهــم طوائــف العــسكر الخيالــة والمــشاة والبكباشيات وأرباب المناصب وإبراهيم أغا (أغا الباب) وليمان بيك البــواب يذهب ويجئ ويرتب الموكب.

---

(١) الضلمة لباس قديم مفتوح من الأمام يشبه الجبة يصنع من الجوخ والطبق لباس للرأس (المحرر).
(٢) أتباع محمد بك الألفى (المحرر).
(٣) الوجاقلية تعنى رجال الوجاقات أى الفرق العسكرية والألداشات تعنى رفاق الطريق وتطلق على أعضاء الجماعة الواحدة (المحرر).

وكان العزيز قد أصرّ على قتل جميع الأمراء المماليك وأتباعهم ليتخلص من شرهم ويريح القطر من أذاهم وسلبهم ونهبهم وأسرّ ذلك إلى حسن باشا وصالح قوج والكتخدا فقط، وفى صبح ذلك اليوم أسرّ به إبراهيم أغا (أغا الباب)، فلما سار الموكب وانفصل الدلاة ومن خلفهم من الوجاقلية والألداشات المصرية عن باب العزب، أمر صالح قوج عند ذلك بغلق الباب وعرف طائفته بالمراد فالتفتوا ضاربين للمصريين (يقصد بذلك المماليك) وقد انحصروا بأجمعهم فى المضيق المنحدر، وهو الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب، فيما بين الباب الأسفل والباب الأعلى الذى يتوصل منه إلى سوق القلعة، وكانوا قد أوقفوا عدّة من العسكر على الحجر والحيطان فلما حصل الضرب من أسفل، أراد الأمراء القهقرى فلم يمكنهم ذلك لإنتظام الخيول فى مضيق النقر وأخذهم ضرب البنادق والقرابين من خلفهم أيضاً ولما علم الواقفون بالأعلى المراد ضربوا أيضاً، فلما رأى المصريون (المماليك) ما حل بهم ارتبكوا فى أنفسهم وتحيروا فى أمرهم، ووقع منهم أشخاص بكثرة فنزلوا عن الخيول واقتحم شاهين بيك وسليمان بيك البواب وآخرون وعدة من مماليكهم راجعين إلى فوق، والرصاص ينصب عليهم من كل فج ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ولم يزالوا سائرين شاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وقد سقط أكثرهم وأصيب شاهين بيك وسقط إلى الأرض فقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا البقاشيش، وكان الباشا عندما سار الموكب قد ركب من ديوان السراى إلى بيت الحريم وهو بيت إسماعيل أفندى الضربخانة، وأما سليمان بيك البواب فهرب من حلاوة الروح وصعد إلى حائط البرج الكبير فتبعه الجند بالضرب حتى سقط وقطعوا رأسه أيضاً، وهرب كثير إلى بيت طوسون باشا فقتلوهم وأسرف العسكر فى قتل المصريين (المماليك) وسلب ما عليهم من الثياب وقتلوا معهم من رافقهم من طوائف الناس وأهالى البلد وكل من تزيا بزيهم وقبضوا على من

أدرك حياً وقتلوهم فى حوش الديوان واستمر القتل من ضحوة النهار إلى مضىّ جزء من الليل على المشاعل.

هذا ما حصل بالقلعة وأما أسفل المدينة فإنه عندما أغلق باب القلعة وسمع من الرميلة صوت الرصاص وقعت الكبسة فى الناس واتصلت بأسواق المدينة وأغلق الباعة حوانيتهم وانتشرت العساكر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم كالجراد ونهبوها نهباً بليغاً حتى حلىّ النساء، وركب الباشا ضحوة ثانى يوم ونزل من القلعة بموكب حافل ومنع النهب ودخل بيت الشرقاوى وجلس عنده ساعة لطيفة، وكذا ابنه طوسون دخل البلد ومنع العسكر من الإفساد والنهب وأرسل الباشا إلى القرى والبلدان بضرب عنق من وجدوه بها من الكشاف التابعين للمصريين (المماليك) فضربت أعناقهم ومات فى هذه الواقعة نحو الألف ما بين أمير وكاشف وجندى وكانوا يحملونهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة وقد جرّدوهم من ثيابهم وألقوهم بحفرة من الأرض، قيل إنما بقره ميدان، ولم ينج من الألفيين إلا أحمد بيك زوج عديلة هانم فإنه كان غائباً بناحية بوش وأمين بيك تسلق من القلعة وهرب إلى ناحية الشام، وممن قتل من مشاهيرهم شاهين بيك كبير الألفية ونعمان بيك وحسين بيك الصغير ومصطفى بيك الصغير ومراد بيك الكلارجى ومرزوق بيك بن ابراهيم بيك (انتهى ملخصاً ببعض تغييرات) وكان موتهم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل براً وبحراً.

أما ما تواتر على الألسن من أن أمين بيك عندما حصلت المذبحة همّ بجواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو فقط فذلك أمر مبالغ فيه إن لم يكن محض اختلاق.

ولما خلص من شرهم بقتلهم أخذ فى تجهيز التجريدة بكل جدّ واجتهاد فجمع ستة آلاف من البيادة وألفين من السوارى ومثلهما من الطوبجية وجعل قيادة هؤلاء لنجله طوسون باشا كما مر وفى شهر شعبان سنة ١٢٢٦ نزلت

البيادة فى المراكب وسافرت قاصدة فرضة ينبع، وأما السوارى سافرت عن طريق البر تحت قيادة طوسون باشا، فلما وصلت الدونانمة المصرية إلى ينبع قابلها السكان بغاية الفرح وأما قائدهم الأعظم فقد وصل لهم بعد قليل مع من كان بصحبته من السوارى ولما كان طوسون باشا شاباً ذا جسارة وجرأة اعتمد على بأس عسكره وحسن أسلحتهم بالنسبة لأتباع الوهابى وأجناده ولم يستعمل مع قبائل العرب ما يجذب قلوبهم إليه، بل ابتدأ بالسير نحو المدينة المنوّرة فتجمع الوهابيون ووقفوا له بالقرب من مدينة بدر الشهيرة بانتصار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على كفار قريش فهجموا على المصريين بشدّة وعادوا بالغلبة إلا أنهم تقهقروا بغاية النظام واحتموا فى متاريس أقاموها هناك لكن لم يثن ذلك طوسون باشا عن عزمه بل أمر حالاً بالهجوم عليها فتقدمت البيادة بقوّة على تلك الخطوط حتى إنهم أخذوا الخط الأول من هذه المتاريس ثم تقدمت نحو الخط الثانى الذى كان آخذاً من المتانة مكاناً عظيماً ودافعت عنه الوهابيون بغاية القوّة والشجاعة حتى اضطر المصريون إلى القهقرى، ثم وقع الخوف فى صفوف المصريين وفروا من أمام العدوّ عائدين إلى فرضة ينبع بصفة غير منتظمة وهلك منهم خلق عظيم من شدّة الجوع والعطش وجهلهم بالطريق ولولا قلة عدد الوهابيين الذين لم يتمكنوا من اتباع أثر المصريين لما نجا منهم أحد.

ولما علم محمد على باشا بهذا الإنكسار الذى لم يخطر له على بال أرسل المدد إلى ولده طوسون باشا ومقداراً عظيماً من المؤن والذخائر لتعويض ما فقد منه فى واقعة بدر وأمر بعزل ونفى أغلب رؤساء العسكر الذين هربوا وقد تحصن طوسون باشا بعد ذلك فى مدينة ينبع وبادر بترتيب عساكره وفى هذه المرة لم يهمل فى إجراء الطرق اللازمة لجذب قلوب ومودّة القبائل التى كانت غير راضية بأحكام الوهابيين، وبعد أن تحقق من مصافاة وموالاة القبائل القاطنة بين ينبع والمدينة ومن انتظام جيشه خرج قاصداً المدينة المنورة فوصلها بدون أن يصادف أدنى معارضة فى الطريق وابتدأ الحصار لكنه لم يرغب فى استعمال المدافع لإجراء فتحة فى سور المدينة لدخول الجند خوفاً من أن تصيب بعض

مقذوفاتها حيطان الحرم النبوّى، فاستعمل اللغم حتى إذا جهزه أرسل لسكان المدينة بأن كل من لم يكن وهابياً فليتزىّ بزى مغاير لزىّ هذه الطائفة وبعد ذلك أطلق اللغم فهدم جزأ عظيماً من السور يمكن الجيش الدخول منه، فأمر طوسون باشا إذ ذاك بمهاجمة المدينة ودخولها عنوة فهاجمتها الجيوش المصرية ودخلتها لكن بعد عناء كثير واستخلصت المدينة المنورة من يد هذه الفئة العاتية الخارجة عن طاعة أمير المؤمنين.

ثم أخذ طوسون باشا بعسكره فى تحصين خط الرجعة إلى مدينة ينبع التى هى قاعدة أعماله وبعد ما تم هذا العمل سافر إلى فرضة جدّة حيث كان الشريف غالب مقيماً ففتحت له أبوابها بغاية السهولة والسرور والإنشراح ومن هناك سار السر عسكر بجيشه نحو مدينة مكة لإستخلاصها من أيدى الوهابيين فوصلها ودخلها بدون قتال لقيام الأهالى على الفرقة المحافظة وطردها إياها حينما علموا بقدوم الجيوش المصرية. فحينئذ كتب السر عسكر المصرى لوالده أن طريق حج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبى عليه السلام صار آمناً وسهلاً للقاصدين ووصل هذا الخبر أوّلاً إلى مصر ثم إلى اسلامبول فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٢٧[1]، ثم أراد طوسون باشا أن يحتل مدينة الطائف لأهميتها بالنظر لمكة المشرفة، ولهذا السبب كان قد حصنها سعود زعيم الوهابيين وأودع فيها السلاح وجعل فيها مخازن ممتلئة من الذخائر ووضع فيها ما ينيف على ألف شخص من أجود جنوده وأشدّهم بأساً وأكثرهم دربةً وعلماً بفنون الحرب.

لكن لما علم السردار أن ما معه من الجنود لا يكفى لفتح هذه البلدة عنوة، أرسل فريقاً من جيشه لمحاربتها ومنع وصول المدد إلى حاميتها حتى إذا أتته النجدة من مصر هاجمها بكل قواه، لكن لحسن حظه لم يلبث قائد الحامية الوهابية أن ترك مركزها هارباً بمجرد وصول الجند المصرى المرسل لمحاصرته، وتيسر بذلك للمصريين دخول هذه النقطة المهمة بدون قتال ولا جدال، فاغتاظ

[1] نوفمبر ١٨١٢.

لذلك سعود زعيم الوهابية وخشى من تقدم المصريين فجمع كل ما كان عنده من القوى وقسمهم إلى فرقتين عظيمتين كل منهما تزيد عن المصريين عدّا، ومؤلفة من أناس أقوياء وذوى بأس شديد وجعل نفسه رئيساً على إحدى هاتين الفرقتين وجعل الأخرى تحت قيادة ولده المدعو فضل الله وأرسلها إلى تُرَبَة ليجعلها قاعة لإعماله ومستقراً لمؤنته وذخائره، وكان هو ومن معه من جنود الفرقة الأولى متجمعين فى شمال تُرَبَة ومستعدّين لمساعدتها إذا اقتضى الحال ذلك، وفى أثناء هذه المدة كانت سوارى الوهابيين تناوش الجنود المصرية وتقتل كل من تأخر منهم فى المسير.

ولما علم طوسون باشا بهذه الحركات العدوانية جمع ما تفرق من جنوده وتأهب لصدّ الوهابيين على قدر الطاقة ريثما يأتيه المدد، لكن سبقه سعود وهاجم فجأة مدينة الحناكية واضطر قائد حاميتها المدعوّ عنان كاشف إلى التسليم بعد عدة هجمات عنيفة، لكن أطلق سعود سبيله وسبيل الحامية بشرط أن يسلموا أسلحتهم ويتوجهوا إلى بغداد ويقسموا بأن لا يحملوا السلاح أبداً فى مواجهة الوهابيين ثم أرسل طوسون باشا فرقة عظيمة تحت قيادة أحد قواده المشهورين إلى مدينة تُرَبَة لإستخلاصها من أيدى الوهابيين، لكن بمجرد قربه من تلك المدينة خرج عليه الوهابيون وهجموا عليه من كل حدب وناحية حتى اضطر إلى التقهقر والعود إلى الطائف واقتفى الوهابيون أثره حتى دخل المدينة، وكان ينعم بها طوسون باشا فأحدقوا بها وقطعوا المواصلات بين المدن التى شغلها بعساكره فكتب لوالده بإرسال المدد.

سفر محمد على باشا إلى الحجاز:

فعزم محمد على باشا عند ذلك على السفر بنفسه إلى بلاد الحجاز لقطع دابر الوهابيين وسافر من مصر بجيش عظيم على طريق السويس فوصل جدّة فى يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٨١٢ وسافر حالاً إلى مكة وقبل أن يشرع فى عمل ما أصرّ على القبض على الشريف غالب الذى مكن الوهابيين من الإستيلاء على

مدينتى مكة والمدينة بهروبه والتجائه إلى جدّة وكان مذبذباً بين الوهابيين والمصريين ليرى أيهما يفوز بالنصر ويتبعه.

القبض على الشريف غالب:

وكيفية القبض عليه على ما جاء فى الجبرتى أنه لما ذهب الباشا إلى مكة استمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة وبساط المصافاة، وجدّد معه العهود والمواثيق والإيمان فى جوف الكعبة بأن لا يخون أحد صاحبه وكان الباشا يذهب إليه فى قلة، والآخر يأتى إليه وإلى ابنه كذلك واستمروا على ذلك مدة، وفى خامس عشر ذى القعدة دعاه طوسون باشا فأتى إليه فى قلة كالعادة فوجد بالدار عساكر كثيرة عندما استقر المجلس ووصل عابدين بيك فى عدّة وافرة وطلع إلى المجلس فدنا منه وأخذ الجنبية من حزامه وقال: أنت مطلوب للدولة فقال: سمعاً وطاعة ولكن صبراً حتى أقضى أشغالى فى مدة ثلاثة أيام وأتوجه إليها، فقال عابدين بيك لا سبيل إلى ذلك والسفينة حاضرة فى انتظارك، فحصل فى جمعية الشريف وعبيده رجة، وصعدوا على أبراج السراية وأرادوا الحرب فأرسل إليهم الباشا يقول لهم إن وقع منكم حرب أحرقت البلد وقتلت أستاذكم، وأرسل أيضاً لهم الشريف يكفهم عن ذلك وكان بهذه السراية أولاده الثلاثة فحضر إليهم الشيخ أحمد تركى وهو من خواص الشريف وحزبه، وقال لهم لم يكن هناك بأس وإنما والدكم مطلوب فى مشاورة مع الدولة ويعود لكم بالسلامة وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم نيابة عن أبيه إلى رجوعه ولم يزل يكرر حتى انخدع كبيرهم لكلامه، وقاموا معه فذهب بهم إلى محل غير الذى به والدهم ووضعوا تحت الحفظ وفى الوقت نفسه أحضر الباشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده إمارة مكة ونودى فى البلدة باسمه وعزل الشريف غالب حسب الأوامر السلطانية واستمر الشريف غالب عند طوسون باشا حتى أركبوه وأصحبوا معه عدة من العسكر وذهبوا به وبأولاده إلى بندر جدة وأنزلوهم السفينة وساروا بها من ناحية القصير إلى صعيد مصر.

ثم ذكر الجبرتى فى حوادث شهر محرم سنة ١٢٢٩ خبر وصول الشريف غالب إلى القاهرة فقال وفى يوم الأحد سابع عشرة وصل السيد غالب شريف مكة إلى مصر القديمة وقد أتت به السفينة من القلزم إلى مرفأ ثغر القصير فتلقاه إبراهيم باشا وحضر معه إلى قنا وقوص ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلين معه وحضر إلى مصر القديمة فلما وصل الخبر إلى كتخدا بيك ضربوا عدة مدافع من القلعة إعلاماً بوصوله وإكراماً لمقامه، على حدّ قوله تعالى "ذق إنك أنت العزيز الكريم" هذا وبعد سفر الشريف غالب إلى مصر أمر محمد على باشا ولده طوسون باشا بالمسير إلى مدينة تربة لكنه التزم بالبقاء فى بلدة تدعى (الكلخة) بين الطائف وتربة عدة أيام لتأخر الشريف راجح فى إحضار الجمال التى كلفه الباشا بإحضارها للحملة.

ولما علم طوسون باشا أن المؤن كادت أن تنفد أمر بالسفر نحو مدينة تربة وهى لا تبعد عن الكلخة إلا مسافة أربعة أيام، ولكنه أبطأ بهم راجح فى الطريق حتى نفدت، فحينئذ اضطر للرجوع خوفاً من موت عساكره جوعاً فعند ذلك انضم الشريف راجح إلى عساكر الوهابيين لأنه كان متفقاً معهم على خيانة المصريين والإيقاع بهم، فلما تقهقر المصريون عاد مع الوهابيين للهجوم عليهم فقابلهم طوسون باشا وصدّهم وفى أثناء ذلك ورد له المدد والمؤن فعاد بالكرة إلى تربة ولم يتمكن من فتحها، بل رجع ثانياً إلى الكلخة ومنها إلى الطائف وكتب إلى والده بمكة يخبره بأنه تقهقر بسبب خيانة العرب ورئيسهم الشريف راجح وأنه التزم بإحراق الخيم التى كانت معهم وكثير من لوازم العسكر حتى لا تقع فى أيدى العدوّ.

ولقد أرسل محمد على باشا فرقة أخرى على طريق البحر لإحتلال مدينة (قنفذه) فرضة إقليم العسير تحت قيادة المدعو زعيم أوغلى فاحتلها بدون معارضة، ثم تركها عند مهاجمة العرب له. وتفصيل ذلك على ما جاء فى الجبرتى أن المصريين طلعوا عليها وملكوها بدون ممانع ولا مدافع وليس بها غير أهلها

وهم أناس ضعاف فقتلوهم وقطعوا آذانهم وأرسلوها إلى مصر ليرسلوها إلى إسلامبول فعندما علم العرب ويقال لهم عرب العسير بمجئ المصريين تركوها وتنازلوا عنها، ولهم رئيس يسمى طامى، فلما استقر المصريون ومضى عليهم نحو ثمانية أيام رجعوا عليهم وأحاطوا بهم ومنعوهم الماء فعند ذلك ركبوا عليهم وحاربوهم فانهزموا وقتل الكثير منهم ولم ينج إلا نحو سبعة أشخاص وزعيم أوغلى، فنزلوا فى سفينة وهربوا فغضب الباشا لأنه كان أرسل لهم نجدة من الخيالة فحاربتهم العرب ورجعوا منهزمين من ناحية البر. اهـ.

لكن لم تؤثر هذه الهزيمة على عزيمة محمد على باشا بل أمر عابدين بيك بالسفر مع فرقته لإحتلال إقليم زهران منعاً للتعدى الحاصل من أهاليه على القوافل ولعدم اجتماع قوّات اليمن مع جنود الوهابيين فاحتلها بعد محاربة عنيفة استمرت ثلاثة أيام متوالية وبعد قليل أتى إلى العدوّ المدد من الدرعية التى هى قاعدة الوهابيين ومن بلاد اليمن، ولمعرفة العرب بالطرق ومفاوز الجبال لم يتمكن عابدين بيك من محاربتهم محاربة أصولية بل صاروا يكمنون له فى المضايق ويمنعون جنوده من أخذ العلف لخيولهم من المراعى المجاورة لهم ولهذا هلك خلق كثير من جنود المصريين حتى اضطر آخر الأمر عابدين بيك للتقهقر إلى الكلخة ولم يلبث بها إلا قليلاً لأن الوهابيين ألزموه بالرجوع إلى الطائف حيث كان طوسون باشا مقيماً وحاصره الوهابيون فيها.

فلما أرسل لوالده بجدّة ليعلمه بما هو فيه من الضيق قام فى الحال مع قليل من الجند قاصداً، مدينة الطائف لفك الحصار عنها وطرد الوهابيين ولما وصل إلى جبل يقرب من الطائف أراد الإستراحة وإمضاء الليل وفى أثنائه قبض محافظوه على أعرابىّ آت من الطائف، فأيقظوه فاستفهم منه عن قوة المحاصرين ولما علم منه ما كان يريده أعطاه مكافأة جزيلة ولم يعلمه بحقيقة أمره بل قال له أنه قائد لمقدّمة عساكر المصريين، وأن محمد على باشا قادم خلفه بجيش عرمرم لمحاربة الوهابيين، ثم دفع إليه خطاباً وكلفه بتوصيله إلى طوسون باشا فشكره الأعرابىّ

وأوصل الخطاب للمرسل إليه وكان فيه إخبار طوسون باشا بوجود والده بالقرب من المدينة وأمره بالخروج منها بكل قواه لملاقاته.

ففى أصيل اليوم التالى أطلقت المدافع من المدينة استبشاراً بهذا المدد غير المنتظر وخرج طوسون باشا وعابدين بيك من المدينة فظنّ الوهابيون أنهم سيكونون بين جيشين لما بلغهم من الأعرابى من قدوم محمد على باشا وجيشه فولوا الأدبار ولجؤا إلى الفرار وبذلك نجح تدبير الباشا وخلص جيشه وابنه بدون قتال ولا حرب ولا نزال.

وبعد أن تم النصر لمحمد على باشا بدون إهراق دم عاد إلى جدّة ومكث فيها شهرين جهز فى أثنائهما ما يلزم لتتميم فتح بلاد العرب وتخليصها من الوهابيين وأحضر من مصر ما يلزم من العساكر والذخائر وأرسل ولده طوسون باشا إلى ثغر ينبع لجمع الجيش اللازم لاحتلال مضايق (الصفراء) وأمره أيضاً باستعمال الرفق واللين مع العرب وبذل الهمة فى كل ما يمكن استمالتهم به إليه.

فلما وصل طوسون باشا إلى ينبع ابتدأ بطلب مشايخ القبائل فلبّوا دعوته وحضروا بين يديه فأحسن وفادهم وأجزل إليهم العطايا حتى خرجوا من عنده مسرورين ثم أرسل إلى مشايخ قبيلة حرب، النازلة بين ينبع ومضايق الصفراء، وبعث لهم من عنده رهائن كى لا يخشوا المجئ إليه وطلب منهم مقابلته فى مدينة بدر وزحف إلى هذه النقطة بمدفعين وأربعة آلاف عسكرى من المشاة فلما وصلها وجدها خاوية على عروشها لا ترى بها صغيراً ولا كبيراً، لأن أهلها حينما علموا بقدوم المصريين هاجروا منها وتركوها كما علمت فكتب إليهم بالعودة وعمّهم بنواله حتى استعملهم فى نقل المؤن إليه من ينبع وكان يعطيهم على ذلك أجرة معينة وبعد قليل أتى إليه مشايخ حرب وتظلموا بين يديه من تعدّى حاكم المدينة عليهم وقتله شيخهم الأكبر بغير حق فاعتذر لهم بما وقع من هذا القائد وأعلمهم بأن ذلك لم يكن بعلم والده وأنه لابدّ أن يذيقه ما ذاق كل ظلوم جزاء على ما كان منه، ثم أعطاهم من الخلع ما ينيف على ألفين وثلاثين

كشميراً وصادف ذلك ورود الخبر بموت هذا الحاكم، فـأبهم علـيهم الأمـر طوسون باشا، وأخبرهم بأنه قتل بإذن والده جزاء على ما أتاه جنده من القتـل والنهب فانشرحت لذلك صدورهم واطمأنت خواطرهم ومما زاد فى تعلقهـم بالحكومة المصرية صدور أمر محمد على باشا بتعيين أحد مشايخهم المدعو غـانم بن مدين حاكماً على المدينة المنورة.

وبعد ذلك قام طوسون باشا وجيشه لاحتلال مضايق الـصفراء والجديّـدة فاحتلها بدون ممانع وأحدث قلاعاً فى أوّلها وآخرها وحصنها بالمـدافع وأودع فيها ما يلزم من أنواع الذخائر والمؤن ثم سافر قاصداً المدينة المنورة وكان ذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٩ فأقبل الحجاج من كل فج.

وبعد أن أدّى محمد على باشا ومن معه فريضة الحـج وعـاد الحجـاج إلى أوطانهم شاكرين همته على ما أتاه من إقامة شعائر الحج وإعادتها إلى ما كانـت عليه أرسل الباشا عدداً عظيماً من الجند إلى مدينة الطائف للإسـتعداد لمحاربـة الوهابيين لما رأى فيهم محمد على باشا من الضعف المبين بسبب موت زعـيمهم سعود فى ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ الموافق (١٧ إبريل سنة ١٨١٤).

وكان الوهابيون قد تجمعوا زهاء عشرين ألفاً بـالقرب مـن مدينـة تربـة فهاجمتهم الجيوش المصرية ولم يكن النصر لأحد من الفريقين وفى صبيحة ذلـك اليوم الموافق (١٠ يناير سنة ١٨١٥) وصل إلى المعسكر محمد على باشا بنفسه ومعه بقية الجيش ووجه كل قواه أوّلاً لمحاربة الجيش الآتى من جهـة الـيمن، فهزمه ثم قهر الجيش الوهابى الذى تحت قيادة فيصل بن سعود، ولما لم يبق أمامه من يعوقه فى السير تقدّم نحو مدينة تربة فاحتلها واحتل أيضاً مدينة بيشة ورينـة وكان لإنتصاره هذا وقع عظيم فى قلوب الوهابيين فانضم إليه كثير منهم ومـن قوّادهم وصار يقطعهم المدن والقرى ليزيد ارتباطهم به وإطاعتهم له.

ثم توجه الجيش إلى بلاد العسير الواقعة فى جنوبى مكة وحارب جنود الأمير طامى الذى حارب المصريين فى قنفذة على البحر الأحمر واضطر زعيم أوغلى إلى اختلائها، ثم صار القبض عليه بمساعدة حسن بن خالد قائد جيوش أمير تهامة وأرسل إلى مصر ومنها إلى إسلامبول حيث قتل.

وذكر الجبرتى فى أخبار سنة ١٢٣٠ وصول الأمير طامى إلى مصر فقال وفى يوم الجمعة ثامن عشر شهر جمادى الأولى وصل طامى إلى البركة والمحمل إذ ذاك بها، فخرجت جميع العساكر فى ليلة الإثنين الحادى والعشرين منه وساروا فى صبيحتها طوائف وخلفهم المحمل وبعد مرورهم دخلوا بطامى المذكور وهو راكب على هجين وفى رقبته الحديد والجنزير مربوط فى عنق الهجين وصورته رجل شهم عظيم اللحية وهو لابس عباءة عبدانية وكان يقرأ وهو راكب وعملوا أيضاً شنكاً وضربوا مدافع. اهـ.

وبعد أن استتب الأمن فى جهة العسير وما جاورها عاد الجيش إلى المدينة واستعدّ طوسون باشا إجابة لرغبة والده للزحف على بلاد نجد وقام من المدينة ووصل إلى قرب مدينة الرسّ فأتى إليه مشايخها وطلبوا منه ألا يحتل مدينتهم بشرط أن لا يصرحوا للوهابيين بالدخول إليها وأن يقدّموا لجيشه كل ما يلزمه من المؤن بالثمن الملائم فقبل ذلك منهم طوسون باشا رغبة فى عدم تعريض جيشه للحرب وحفظاً له من فنائه بدون ضرورة شديدة داعية إلى ذلك ولا احتياج كلى، ثم انتظر بالقرب من الرسّ ريثما تأتيه الجنود اللازمة ليزحف على الدرعيّة عاصمة الوهابيين.

وفى أثناء انتظاره الجنود دخل المدينة بقصد أداء فريضة الصلاة فدعاه أحد مشايخها لتناول القهوة عنده وكان (طوسون باشا) قد أمر أنه فى ذلك الوقت تدخل العساكر وتحتل المدينة أثناء اشتغال الأهالى بالصلاة فقاموا بما أمروا به واحتلوا المدينة بهذه الحيلة بدون حرب فلما احتلوها أمر بهدم أسوارها حتى لا تعود صالحة لإقامة الوهابيين. وبعد مناوشات خفيفة احتل طوسون باشا فى

خلالها عدداً عظيماً من مدن نجد أرسل إليه عبد الله بن سعود، الذى تولّى بعد والده سعود على طائفة الوهابيين، رسولاً يدعى الشيخ أحمد الحنبلى يطلب الصلح والطاعة ويكون تحت طاعة أمير المؤمنين ومذعناً لجميع أوامره فجاوبه طوسون باشا أنه لا يمكنه قبول ذلك منه إلا بعد استشارة والده محمد على باشا وأن يمنحه هدنة مدّة عشرين يوماً حتى يخبر والده بذلك فقبل منه عبد الله بن سعود وبطلت كافة الحركات العدوانية وبقى كل جيش فى مكانه ينتظر انتهاء الهدنة لإتمام الصلح أو استمرار القتال.

وفى أثناء هذه الهدنة وصل إلى طوسون باشا خطاب من والده يخبره بأنه سافر إلى مصر لأشياء ضرورية وأنه ترك عدداً عظيماً من الجند بين رجّالة وركبان تحت قيادة خزنداره ويوصيه فيه بالإسراع فى الزحف على الدرعيّة لإستئصال شأفة الوهابيين وإراحة العباد من مكايدهم، وكان السبب فى رجوع محمد على باشا إلى مصر على عجل هو علمه برجوع نابوليون من منفاه الأوّل إلى فرانسا وتحققه من طمع هذا الرجل فى احتلال مصر وجعلها مستعمرة فرنساوية على طريق الهند الإنكليزية لما بين الدولتين من العداوة الوراثية وكان وصول عزيز مصر إلى القاهرة على طريق القصير فقنا فمصر فى يوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ (اليوم الذى انهزم فيه نابوليون فى واقعة وترلو) وقد ذكر الجبرتى وصول العزيز إلى القاهرة فى أخبار شهر رجب سنة ١٢٣٠ فقال: وفى يوم الأربعاء سادسه وصلت هجانة من ناحية قبلى وأخبروا بوصول الباشا إلى القصير فخلع عليهم كتخدا بيك كساوى ولم يأمر بعمل شنك ولا ضرب مدافع حتى يتحقق صحة الخبر وفى يوم الجمعة ثامنه قبل العصر ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وذلك عندما ثبت وتحقق وصول الباشا إلى قنا وقوص وفى ليلة الجمعة خامس عشره وصل الباشا إلى الجيزة ليلاً فأقام بها إلى آخر الليل ثم حضر إلى داره فى الأزبكية. اهـ.

هذا ولما وصل إلى طوسون باشا جواب أبيه أرسل إلى الخزنـدار يـستقدمه وجيشه إلى مدينة الرسّ قبل انتهاء الهدنة فأتى إليها بسرعة وبعـد مـشاورات طويلة مع رؤساء الجيوش المصرية والقبائل المتحاربة، قبل طوسون باشا الـصلح بشروط أهمها أن الجيوش المصرية تحتل الدرعيّة وأن عبد الله بن سعود يؤدّ كل ما أخذ من الحجرة النبوية من المجوهرات وغيرها وخصوصاً الكوكب الـدرّى الذى زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطاً من الألماس وأن يكون تحت أمره حتى إذا طلب منه السفر إلى أىّ جهة كانت يكون مطيعاً لذلك وأن يـؤدّى لطوسـون باشا رهائن من أقاربه إلى صدور تصديق محمد على باشا على هذه المعاهدة.

فلاح من عبد الله بن سعود امتناع من إنفاذ هذه المعاهدة خصوصاً لما طلب منه أن يسافر إلى إسلامبول كى يبرئ نفسه مما نسب إليه من الخروج عن حـدّ الديانة المحمّدية فكتب إليه العزيز محمد على باشا بما مضمونه إنـه إذا لم يعمـل بمقتضى الشروط التى عقدها على نفسه يبعث إليه عسكراً جرّاراً يخرب بلاده، فلم يرد إليه من الوهابيين إلا محاولات تفيد عدم الإمتثال، فجهز الباشا علـيهم تجريدة جديدة تحت قيادة ابنه البكرى إبراهيم باشا.

ولنذكر ما حدث بالقاهرة من تمرّد لطيف باشا على ولىّ نعمته وموته شـر ميتة وعصيان الجند على محمد على باشا قبل أن نأتى على تفصيل ما حصل بين إبراهيم باشا والوهابيين من الحروب فنقول:

تمرد لطيف باشا:

إنه حصل بالقاهرة أثناء تغيب العزيز بالأقطار الحجازية أمـر مهـمّ لـو لم يتداركه الكيخيا بعزم وهمة لكان من ورائه تقويض سلطة محمـد علـى باشـا وزوال ملكه، نريد بذلك تمرد لطيف باشا وطلبه ولاية مصر واختلاسـها مـن عزيزها الذى لم يصل إليها إلا بركوب الأهوال والأخطار وإضـاعة الـدرهم والدينار، وبيان ذلك أنه لما أعاد طوسون باشـا الأمـن إلى طريـق الحجـاج واستخلص المدينة المنورة من أيدى الوهابيين أرسل محمد على باشا لطيف باشـا

المذكور إلى القسطنطينية لإبلاغ هذا الخبر إلى الدولة العلية فاستقبل هناك بغاية الترحيب والإجلال نظراً لمقام مرسله ولأهمّية مأموريته.

فلما عاد إلى مصر داخله الكبر وظن أنه لو اغتصب الولاية من محمد على باشا ربما يروق ذلك فى أعين ولاة الأمر فى إسلامبول فأخذ فى جمع الجند حول داره وإجزال العطايا للكشاف ورؤساء الجند من أرنؤد ودلاة، فلما رأى الكيخيا ذلك دخله الخوف وخاف سوء المنقلب وأراد أن يخلص بلاده من شره قبل تفاقم أمره فجمع ديواناً بالقلعة وأرسل إليه يستدعيه فأبى الحضور لعلمه بالمكيدة ثم أرسل إليه الكيخيا يطلب منه إما الإطاعة أو الخروج من القاهرة فقبل الخروج، لكن وجد الجند من الأرنؤد متربصين له فى الطرق الموصلة إلى داره فناوشهم واستمرّ إطلاق البنادق بين الطرفين إلى نصف الليل بل وبعده، ولما رأى لطيف باشا أن العسكر أحدقت بمنزله وهدّدته بالدخول فيه والقبض عليه اختفى فى مخبأه مع ست من الجوارى التركيات ومملوك مخلص له ولم يعلم بمحله إلا أحد خصيانه وبعد قليل دخل الجند داره وفتشوها ولما لم يقفوا له على أثر نهبوها وسبوا نساءه وسراريه وبحثوا عنه أيضاً فى الدور المجاورة لها ثم اكتفوا بحفظ الطرقات وفى مساء ذلك اليوم خرج لطيف باشا من المخبأة وتسلق الأسطحة حتى وصل إلى دار خزنداره واختفى هناك، ففى اليوم التالى أخبر الخصىّ بالمخبأة التى بالبيت ففتحوها ولم يجدوا بها إلا الجوارى والمملوك فأخذوا يقررونهم عنه وأين ذهب ولكن لم يجد ذلك شيئاً ثم خطر ببال لطيف باشا أن يذهب من بيت خزنداره إلى أحد البيوت المجاورة له من السطح ليهرب وينجو بنفسه إلا أنه لسوء حظه ودنوّ أجله رآه أحد الجند المعينين فوق الأسطحة لمنعه من الهرب، فلما رآه أسرع بالصياح على إخوانه وعند ذلك أطلق فيه لطيف باشا رصاصه قتلته فاجتمع الجند واحتاطوا به وقبضوا عليه وسجنوه فى بيت محمود بيك الدويدار، حتى إذا أصبح اليوم التالى عقدوا ديواناً للحكم عليه بالقلعة حضره أكابر الحكومة وأعيانها وحكموا عليه بالقتل ثم أرسلوا من يستحضره فجاء مع محمود بيك الدويدار إلى القلعة وهناك قبض عليه وضرب

عنقه وعلقت رأسه على باب زويلة طول نهاره وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٢١ من ذى الحجة سنة ١٢٨٨ (٨ نوفمبر سنة ١٨١٣) أما لطيف باشا المذكور فكان جرجي الأصل ومملوكاً لعارف بيك ابن خليل باشا الذى كان قاضياً بمصر، أهداه إلى العزيز فاختاره لما تفرس فيه النجابة وقرّبه إليه ورقاه إلى رتبة انختر أغاسى[1] أى صاحب المفتاح وصار له حرمة زائدة وكلمة عند الباشا.

عصيان الجند بالقاهرة:

وأما ما حصل بمصر غير تلك الحادثة من الأمور المهمة فهو عصيان الجند وتمردهم على العزيز بعد عودته من الأقطار الحجازية وذلك أنه لما عاد إلى مصر فى يونيو سنة ١٨١٥ شرع فى ترتيب عسكره على النظام الأوربى لتزداد بذلك قوتهم لكن لم يوافقه على ذلك قوّاد جنوده فقضى مدة فى إقناعهم بدون ثمرة ولما رأى منهم عدم موافقته على مشروعه عزم على تنفيذه رغم أنفهم، وابتدأ بالفعل فى تمرين الفرقة التى هى تحت قيادة ولده إسماعيل بيك فى يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨١٥، وأعلن بأن كل من لم يقبل هذا النظام الجديد سواء كان من الأنفار أو من البيكوات يجرد ويطرد من مصر فتحزب الجند واتفقوا مع قوّادهم على الغدر بالباشا.

واتفق فى هذا الوقت أن عابدين بيك أولم وليمة فى ليلة الجمعة ٢٨ شعبان سنة ١٢٣٠ احتفالاً بقدوم العزيز محمد على باشا من بلاد الحجاز سالماً فاجتمع بداره جماعة من أكابر الجند، فيهم حجو بيك وعبد الله أغا صارى جلّه وحسن أغا الأرزنجلى، فتكلموا فى هذا الشأن واتفقوا على الهجوم عليه فى داره بالأزبكية عند طلوع الفجر ولما استشعر عابدين بيك بما يقصدونه من الخيانة بالوالى خرج خفية من داره مسرعاً إلى الباشا ليخبره بما اتفق عليه أعداؤه ثم عاد إلى أصحابه بدون أن يعلم أحد بخروجه وهنالك ركب الباشا حالاً وتوجه

[1] أو انختار أغاسى وهو من العاملين فى خدمة السلطان داخل السراى ويشرف على جميع العاملين والمرؤسيين وكان لكل باشا من حكام مصر العثمانيين انختر أغاسى (المحرر).

إلى القلعة مستصحباً معه عساكر طاهر باشا وغيرهم ممن يثق بهم وترك عـدداً عظيماً من الجند يحرسون مترله بالأزبكية، ولما علم المتآمرون أن الباشا وقـف على حقيقة حالهم وجلية أمرهم، لم ينثنوا عن مقصدهم، بـل قـصدوا مترلـه بالأزبكية لنهبه فمنعهم من كان به من الجند وتراموا بالرصاص ولم يتمكنوا من شئ ثم ساروا إلى القلعة واجتمعوا بالرميلة ولما لم يجدوا للهجوم عليهـا سـبيلاً لتسلط أفواه المدافع عليهم انتشروا فى البلد للسلب والنهب لينضم إليهم مـن خالفهم فى الرأى، وتقوى شوكتهم بذلك فيعودوا إلى القلعة بقوة عظيمة فنهبوا الغورية والسكرية والحمزاوى إلا خان الخليلى فإنه لم يردّهم عن نهبه إلا قـوة بنادق من به من ترك وأرنؤد وكذلك دافع المغاربة عن الفحـامين والـشوّايين والكعكيين واستمر النهب ساعات وكان ذلك فى يوم جمعة ولم تصلٌ فيه لـشدّة ما كان.

وفى وقت المساء استدعى الباشا السيد محمد المحروقى وأمر بتحريـر قـوائم مشتملة على ما نهب من التجار ليدفعه لهم فحررت القوائم وظهر أن ما خـص الغورية مائة وثمانون كيساً والسكرية سبعون والحمزاوى ثلاثة آلاف فـصرفها الباشا لأربابها بعد تتريل شئ يسير وبعد أداء اليمين الشرعية على ما سلب منهم فبذلك أطمأنّ الناس واستبشروا بانتشار العدل وانقضاء أيام الظلـم، ثم أخـذ الباشا يستميل قلوب الجند ويوزع النقود والعلائف عليهم، وتـرك مـشروع تدريبهم على النظام الأوربى، حيث أدّى إلى ما حصل، منتظراً فرصـة أخـرى وبعد انقضاء عيد الفطر نزل الباشا من القلعة وهدّأ خاطر الأهالى وأراح بـالهم وشرح صدورهم، وزار يوسف باشا المعزول من ولاية دمشق واجتمـع مـع العلماء والأعيان ووعدهم بأن يريح العباد من عود الجند إلى مثل ذلك.

رجوع طوسون باشا إلى مصر:

ولما بلغ طوسون باشا خبر ثورة العسكر بالقاهرة ونهبهم لها سافر من المدينة إلى ينبع ومنها إلى جبل الطور فالسويس بحراً وكان وصوله إليها فى غاية شـهر

ذى القعدة سنة ١٢٣٠. وجاء فى الجبرتى أنه فى يوم الإثنين رابع شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٠ (٧ نوفمبر سنة ١٨١٥) نودى بزينة الشارع الأعظم لدخول طوسون باشا سروراً بقدومه، فلما أصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع وعملوا له موكباً حافلاً ودخل من باب النصر وعلى رأسه الطيلسان وشعار الوزارة وطلع إلى القلعة وضربوا فى ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكاً وحرائق وفى ليلة الجمعة الخامس عشر سافر طوسون باشا إلى الإسكندرية ليرى أباه ويسلم عليه وليرى أيضاً ولداً له ولد فى غيبته يدعى عباس بيك أخذه جدّه مع حاضنته إلى الإسكندرية وسنه دون سنتين وفى يوم السبت العشرين منه حضر طوسون باشا إلى مصر راجعاً من الإسكندرية.

حبس المعلم غالى:

ولخلوّ الخزينة من النقود وعدم وجود موسرين بالبلد يؤخذ منهم ما يحتاج إليه على سبيل القرضة أو غيرها وتأخير المعلم غالى باش "محاسبجى" فى ستة آلاف كيس، أصدر الباشا أمره إلى كيخيا بيك بطلب هذا المبلغ أو حبسه حتى يفيه فطلبه الكيخيا فاعتذر بأن هذا المبلغ متأخراً على الأهالى وأنه ساع فى تحصيله وطلب مهلة قليلة فلم يقبل منه الكيخيا وأمر بحبسه وحبس أخيه المسمى فرنسيس و"خزنداره" المدعو سمعان، ثم وشى به عند الكيخيا طائفة من الأقباط وعرّفوه بأنه إذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس، فاشترط عليهم الكيخيا أنه إن لم يظهر على المعلم غالى هذا المبلغ يكونوا ملزمين بالباقى، فقبلوا هذا الشرط وهم المعلم جرجس الطويل ومنقريوس البتنونى وحنا الطويل ولما أبطأ المعلم غالى فى دفع ما طلب منه أمر الكيخيا بضرب أخيه أمامه وبضربه هو أيضاً وضرب خزنداره، ثم أفرج عن أخيه وخزنداره ليسعيا فى تحصيل المطلوب. أما سمعان فمات على أثر الضرب لأنه ضرب ألف كرباج وأما فرنسيس أخو المعلم غالى فسعى فى أداء المطلوب ببيع ما يملكونه من منقول وعقار، ثم توسط له لدى الباشا المسيو (بوزارى) طبيبه الخاص فقبل منه الباشا ذلك وأمر بإخلاء سبيل المعلم غالى بشرط أن يدفع أربعة عشر ألف كيس وألزم معارضيه جرجس

الطويل ومنقريوس البتنونى بدفع أربعة آلاف كيس. ولقد رأى بعد ذلك محمد على باشا أن يخرج الجند من القاهرة منعاً لما يحصل منهم من الشغب والهياج فأمر ولده طوسون باشا الخروج إلى جهة فوّة[1] مع عساكر الدلاة وعابدين بيك إلى جهة المنصورة مع عساكر الأرنؤد ولم يبق بالقاهرة إلا حاشية الباشا وأتباع خواصه وعساكر الشرطة.

عزل الشيخ الدواخلى:

وفى أوائل شهر ربيع الأوّل سنة ١٢٣١ فى يوم مولد النبى عليه الصلاة والسلام طلب الباشا المشايخ فحضروا ولما استقر بهم المجلس أظهر الباشا رغبته فى عزل الشيخ الدواخلى نقيب الأشراف من منصبه واستشارهم فى تولية خلف له فأقر الجميع على تعيين الشيخ البكرى ورضوه، فألبسه الخلعة وانصرفوا وفى اليوم الثانى صدر أمر من الباشا بنفى الشيخ الدواخلى إلى دسوق فسافر فى الحال إلى منفاه، وطلب الباشا من المشايخ أن يحرروا محضراً يبينون فيه أسباب عزله ليرسله إلى نقيب الأشراف فى إسلامبول، الذى من خصائصه عزل وتولية نقباء الأشراف بولايات الدولة العلية فحرر المشايخ ذلك المحضر ونسبوا له فيه أشياء كثيرة، منها أنه تطاول على السيد منصور اليافى لفتوى أفتاها مستنداً على قول ضعيف، ومنها أنه يعارض القاضى فى أحكامه، وذكروا أسباباً أخر غير ذلك لم يكن فيها السبب الحقيقى فى عزل الباشا له وهو فى الحقيقة انتقاده على أحكام الباشا على مرأى ومسمع من المقرّبين إليه.

[1] فى الخطط الجديدة لسعادة على باشا مبارك أن فوّة بضم الفاء وتشديد الواو بالقرب من الإسكندرية واقعة على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد وفى شمال دسوق على بعد ساعتين واشتهرت فى أيام العزيز محمد على باشا بالمعمل الذى أقامه فيها لعمل الطربوش فكان طربوشها يشبه فى الجودة الطربوش المغربى أو يقاربه وكان يتحصل من ذلك كل شهر مائة وأربعة وعشرون ألف طربوش وكان الصوف يجلب إليها فى الغالب من بلاد الإفرنج وقد بطل ذلك الآن ويبلغ سكان هذه البلدة ثمانية آلاف وكسورا كلهم من المسلمين وأطيانها ثلاثة آلاف وستمائة وواحد وثلاثون فدانا يزرع بها الأرز والقطن وباقى المزروعات المعتادة وكان اسمها عند قدماء المصريين متيلين وكانت على البحر المالح ثم بعد عنها البحر بسبب رسوب الطمى حتى صار بينها وبينه تسعة فراسخ تقريباً.

سفر إبراهيم باشا إلى الحجاز:

لنرجع إلى الكلام على الحملة التى كان جارياً تجهيزها لمحاربة الوهابيين تحت إمرة إبراهيم باشا فنقول أن محمد على باشا لما عزم على معاقبة الوهابيين لعدم قيامهم بما تعهدوا به، أمر بجمع ما يلزم من المراكب بساحل بولاق لنقل المؤنة والذخائر إلى مدينة قنا لتنقل منها على ظهور الجمال إلى ثغر القصير ثم إلى ثغر ينبع من طريق البحر الأحمر فلما صار تجهيز كل ما لزم لسفر الحملة سافر إبراهيم باشا من بولاق فى يوم ١٢ شوال سنة ١٢٣١ (٣ سبتمبر سنة ١٨١٦) فوصل ينبع فى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٣١ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦) ثم سار قاصداً المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فوصلها بعد عشرة أيام وفى اليوم الرابع من عيد الأضحى قام إبراهيم باشا وعسكره من المدينة وأقام فى مدينة تدعى الصويدرة واقعة على مسافة متساوية بين فرضتى جدّة وينبع وجعلها مركزاً لأعماله لقربها من هاتين الفرضتين، ثم أخذ فى جمع ما يلزم من الجمال للزحف على بلاد نجد لكنه لم يجد مساعدة من العرب المجاورة لها الذين اتحدوا مع الوهابيين على محاربة المصريين، وشرعوا فى مناوشة القوافل بين الصويدرة والموانئ البحرية، فأرسل إبراهيم باشا لمحاربتهم ألفى جندى من مشاة وفرسان فقابلوهم على بعد يومين وهزموهم شر هزيمة.

فلما لم يروا من الوهابيين أقل مساعدة أتوا إلى معسكر المصريين وأذعنوا بالطاعة لرئيسهم وتعهدوا بإحضار كل ما يطلب منهم من جمال وغيرها ثم قام إبراهيم باشا من الصويدرة قاصداً مدينة تدعى الحناكية وسار منها إلى مدينة الرَسّ فحاصرها، وفى أثناء ذلك جمع عبد الله ابن سعود جميع ما عنده من القوّة والرجال فكانت زهاء أربعين ألفاً من فرسان العرب ومجرّبيها فى الحروب ومن سوء سياسة عبد الله بن سعود أن استجلب كراهة القبائل لمحاربته إياهم واضطهادهم خصوصاً عرب حرب النازلين بين المدينة المنوّرة والحناكية فزرع العداوة معهم وكان قريباً منهم الأمير "أوزون على الأورفه لى" الكردى قائد مقدمة جيوش إبراهيم باشا ومعه نحو مائة وخمسين من فرسان الأكراد المشهورين

بالهجوم، فلما تقدم عبد الله بن سعود نحو مقدمة المصريين هجم عليه أوزون بعسكره القليلة العدد الكثيرة القوّة وزحف بخيله فى وسط عسكر عبد الله بن سعود ولحقه عرب حرب مساعدين له لما ذاقوه من الوهابيين من النهب والسلب، ونزل رصاص الأكراد على عرب ابن سعود مثل المطر، ودهموهم مثل القضاء المبرم لحسن سلاحهم، فمسافة ما يفك الوهابى بندقيته من جرابها ويولع الفتيلة يكون قد أصابه خمس رصاصات على الأقل. فما مضت برهة من الزمن إلا وقد انكسرت مقدمة عساكر عبد الله بن سعود ورجع القهقرى ومن هذه الواقعة عرف إبراهيم باشا أن لا صبر ولا جلد للوهابيين أمام الرصاص والنار، بل هم رجال يحاربون بالرماح والسيوف على الطراز القديم ومعهم بنادق بالفتيل لا تفيدهم شيئاً أمام بنادق المصريين ومدافعهم.

وبعد هذه الوقعة تحصن عبد الله بن سعود داخل مدينة عنيزة — أما إبراهيم باشا فحاصر مدينة الرسّ، وكان قد احتلها الوهابيون بعد عودة طوسون باشا إلى مصر، وأقام حولها الإستحكامات القوية وعززها بالمدافع وابتدأ فى إطلاقها على سور المدينة بدون أن يسلم العدوّ، ولما عيل صبر إبراهيم باشا من الإنتظار بعد أن استمر إطلاق القنابل على المدينة ستة أيام متوالية، أمر بالهجوم عليها ليلاً، فهجمت المشاة ومنعت الخيالة الأهالى من الخروج لكن لم تنجح العساكر المصرية فى هذه الدفعة والتزمت بالرجوع بعد استمرار القتال أربع ساعات.

وبعد أن استمر الحصار ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً بدون فائدة تصالح مع أهل المدينة على أن يرفع الحصار عن مدينتهم بشروط أهمها: أن لا يدخل المدينة أحد من جنوده وأن لا يقدم لهم الأهالى شيئاً من المؤنة وأنه إن استولت الجيوش المصرية على مدينة عنيزة تسلم إليه مدينة الرس بدون قتال وإن لم ينجح أمامها تستأنف المحاربة ثانية.

ثم قام إبراهيم باشا بجيشه قاصداً مدينة عنيزة فصادف فى طريقه بلدة تدعى (الخَبْراءَ) فدخلها بعد أن دهمها بمدافعه عدة ساعات، وبعد أن أراح جيشه أحد

عشر يوماً سافر إلى (عنيزة) فوصلها وبعد أن حاصرها ستة أيـام سـلمها لـه حاكمها المدعو محمد بن حسن بشرط أن يجوّز لعساكر الوهابية الذهاب إلى أىّ جهة أرادوا ويتركوا فى البلد كافة ما لديهم من الأسلحة والذخائر، فقبل ذلك إبراهيم باشا ودخل المدينة وأرسل فرقة لإحتلال مدينة الرس كما تقدم لك.

ثم إنه ارتحل من عنيزة ونزل ببلدة تدعى (بُرِيْدَةَ) ودخلها بعد قتـال قليـل وكان صاحبها يقال له (حُجَيْلانُ) بضم الحاء وفتح الجيم فنفاه الباشا إلى المدينة حيث توفى بعد أيام قلائل ومنها ذهب إبراهيم باشـا لمحاصـرة بلـد تـدعى (الشقْرَاءَ) فوصلها فى يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٨ الموافق أوائل شهر ربيـع أوّل سنة ١٢٣٣ وابتدأ فى محاصرتها بدون إمهال وأقام حولهـا بطاريـات المـدافع واستمر فى إطلاقها حتى طلب الأهالى التسليم واشترط من بهـا مـن جنـود الوهابيين أنهم بعد أن يسلموا سلاحهم إلى إبراهيم باشا يباح لهم الذهاب إلى أىّ جهة ساروا، فقبل منهم ذلك وقيده بأن يتعهد هؤلاء الجنـد بـأن لا يحملـوا السلاح مرة أخرى فى وجه المصريين وأنهم لو خالفوا هـذا الـشرط عوقبـوا بالقتل.

وعقب هذا الإتفاق فتح الأهالى أبواب المدينة ودخلها بطل مصر إبـراهيم باشا فى ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ الموافق ١٤ ربيـع أوّل سـنة ١٢٣٣ ثم تـرك بالمدينة الحامية الكافية وذهب لفتح (الدرعيّة) عاصمة الوهابيين وكانوا يسمونها دار الهجرة وكان كلما مرّ على قرية ودخلها لا يتعرض لأهلها بسوء ويمنـع عساكره من التعرض لهم ويكتفى بطاعتهم له.

لكنه لم يتوجه تواً إلى مدينة الدرعيّة بل عرّج على مدينة يقال لها (درمة) لمـا بلغه من وجود كثير من المؤن بها وعدد عظيم من الخيول فوصلها وأحرق جزءاً كبيراً منها بالمدافع، حتى تحصن حاكمها وأتباعه فى قصره ولما لم يرغب إبراهيم باشا فى هدم قصره بالمدافع خوفاً من إتلاف ما به من الأشياء الثمينة والخيـول

العربية المطهمة، قبل أن يخرج الحاكم من البلد بشرط أن لا يأخذ شيئاً معه مما فى القصر فسر الحاكم بذلك ونجا بنفسه.

فتح الدرعية وتسليم عبد الله بن سعود:

ثم توجه إبراهيم باشا بجيشه إلى ناحية الدرعية فوصل أمامها فى تسع وعشرين خلت من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ الموافق ٦ إبريل سنة ١٨١٨ وكان جيشه مؤلفاً من خمسة آلاف جندى من المشاة والفرسان واثنى عشر مدفعاً، ولما لم يكن هذا العدد كافياً لحصار المدينة بأجمعها لإتساعها، أشار على الباشا أحد أركان حربه الفرنساويين المدعو مسيو (فسيير) بحصار القرى الأربع المحيطة بالمدينة الواحدة بعد الأخرى، حتى إذا احتلها حاصر المدينة الأصلية بكل سهولة، فاتبع إبراهيم باشا رأيه ومع ذلك استمر الحصار ستة أشهر، ولا حاجة لذكر تفاصيله، ولما رأى عبد الله بن سعود سقوط ثلاث قرى من ضواحى المدينة فى أيدى إبراهيم باشا وأنه لابدّ من التسليم عاجلاً أو آجلاً مال للتسليم وأرسل إلى إبراهيم باشا فى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ يطلب منه إيقاف القتال ريثما يتم بينهما الإتفاق فأوقفه، وأتى عبد الله بن سعود إلى معسكر إبراهيم باشا فأكرمه، وبعد محادثة طويلة تم الإتفاق على أن تسلم الدرعيّة إلى الباشا وتعهد بعدم إضرار الوهابيين وأقاربهم، وأن يسافر عبد الله بن سعود إلى القسطنطينية كما هى رغبة السلطان فلبى إجابته وتوجه إلى داره ليتأهب للسفر إلى مصر ومنها إلى القسطنطينية.

ولما بلغ محمد على باشا خبر انتصار نجله على الوهابيين وتبديده إياهم ودخوله عاصمتهم أطلقت المدافع من القلعة، وذكر الجبرتى فى أخبار سنة ١٢٣٣ أنه فى سابع شهر ذى الحجة الحرام وردت بشائر من الحجاز برسالة من عثمان أغا الوردانى أمير ينبع بأن إبراهيم باشا استولى على الدرعيّة، فسرّ الباشا بهذا الخبر سروراً عظيماً وانجلى عنه الضجر والقلق وأنعم على المبشر، وعند ذلك ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية وانتشر

المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش، وفى ثانى عشرة وردت مكاتبات بذلك من إبراهيم باشا نفسه فأكثر من ضرب المدافع من كل جهة واستمر الضرب من العصر إلى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع وصدرت الأوامر بتزيين المدينة ثلاثة أيام متوالية وفى كل يوم يطوف المنادى ويكرر المناداة بالشوارع على الناس بالسهر والوقود والزينة وعدم غلق الأبواب ليلاً ونهاراً. (اهـ ملخصاً).

وصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة:

ثم تم بالسرور وكل الحبور بوصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة وكان وصوله إليها فى يوم الإثنين سابع عشر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨فدخل من باب النصر ومعه عبد الله بكّاش قبطان السويس وهو راكب على هجين وأمامه طائفة من الدلاة فذهبوا به إلى بيت إسماعيل باشا ابن الباشا فأقام يومه وذهبوا به فى صبيحة اليوم الثانى إلى عزيز مصر بسراى شبرا فلما دخل عليه قام إجلالاً له وقابله بالبشاشة وأجلسه بحذائه، وحادثه فى أمر الحرب فقال له الوهابى إن الحرب سجال قال له: وكيف رأيت إبراهيم باشا قال: شجاعاً مقداماً بذل همته، وقد دافعنا عن ديارنا دفاع الأبطال حتى كان ما قدّره الله، فوعده الباشا بالسعى لدى الباب العالى ليعفو عنه فانصرف الوهابى وعاد لمنزل إسماعيل باشا ثم سافر إلى القسطنطينية فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٨١٨ وقتل عند وصوله للقسطنطينية.

أما الجوهرات التى أخذها الوهابيون من الحجرة النبوية حين دخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠ فردّها عبد الله بن سعود إلى إبراهيم باشا منها الحجر الألماس المسمى بالكوكب الدرّى فأعاده الباشا إلى محله وأما ما نقص منها فادعى الوهابى أنها بيعت وصرف ثمنها فى الحروب، ووزع جانب منها على رؤساء القبائل فبدّدوها.

موت طوسون باشا:

ومما حصل فى أثناء هذه الحروب من الأمور المهمة التى ينبغى ذكرها موت المرحوم طوسون باشا نجل الباشا فتوفى فى برنبال أمام مدينة رشيد فى ليلة الأحد سابع ذى القعدة سنة ١٢٣٢ الموافق ٦ يوليه سنة ١٨١٦ عقب مرض أتاه فجأة ولم يمهله إلا عشر ساعات فغسل وكفن ووضع فى صندوق خشب وسير به من طريق النيل إلى القاهرة، هذا ولم يتجاسر أحد بإخبار والده ولبس الكل سربال الحيرة وصاروا فى حيرة من تبليغ هذا الخبر المشئوم إلى والده فدخل عليه كتخدا بيك آخذاً فى البكاء والإنتحاب فعلم الباشا حقيقة الأمر وحزن لفقده حزناً شديداً، ثم أمر بإعادة الجنازة حسب العادة فجهزت وسير بها إلى الإمام الشافعى وواره التراب فى المقبرة التى أعدّها الباشا لنفسه وعائلته وسار والده خلف نعشه ينظر إليه ويبكى.

وتوفى طوسون باشا رحم الله الجميع، وهو فى مقتبل العمر ولم يبلغ عمره إلا عشرين سنة وكان أبيض ذا جسم، بطلاً شجاعاً جواداً له ميل للمصريين قائماً بأوامر الديانة الإسلامية تخشاه العسكر وتهابه مع المحبة الزائدة لأنه كان يكافئ ذا العمل الصالح بالبرّ والإحسان وذا العمل السئ بالذل والهوان، اقتداء بقوله عزوجل "إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها" وقلما يوجد مثل هذا الشهم المسدّد الرأى الذكىّ الفطرة، وعلى فراقه يحق للعيون أن تدمع وللقلوب أن تجزع وللأحشاء أن تتميز وللأكباد أن تحترق. ولما انتهى الحرب وانتشر لواء الأمن فى جميع الجهات الحجازية ونجد عاد الأمير إبراهيم باشا إلى مصر من طريق القصير فقنا فالنيل إلى القاهرة فوصلها فى يوم الخميس ٢١ صفر سنة ١٢٣٥ وهاك ما ذكره الجبرتى فى قدومه:

قال: وعند وصول إبراهيم باشا نودى بزينة المدينة سبعة أيام بلياليها فشرع الناس فى تزيين الحوانيت والدور والخانات بما أمكنهم وقدروا عليه من الملوّنات والمقصبات، وأما جهات النصارى وحاراتهم وخاناتهم فإنهم أبدعوا فى عمل

تصوير مجسمات وتماثيل وأشكال غريبة، ولما أصبح يوم الجمعة دخل إبـــراهيم باشا فى موكب حافل من باب النصر وشق المدينة وعلـــى رأســـه الطيلـــسان السليمى من شعار الوزارة، وقد أرخى لحيته بالحجاز وحضر والده إلى جـــامع الغورية بقصد التفرج على موكب ابنه وطلع بالموكب إلى القلعة ثم رجع سائراً بالهيئة الكاملة إلى جهة مصر القديمة ومر على جسر من مراكب أقيم على النيل بين مصر القديمة وجزيرة الروضة وذهب إلى قصره واستمرت الزينة والوقـــود والسهر ليلاً وعمل الحراقات وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة، ومغـــان وملاعب فى مجامع الناس سبعة أيام بلياليها فى مصر الجديدة والقديمة وبـــولاق وجميع الأخطاط.

وبعد ذلك أخذ محمد على باشا فى إصلاح أحوال المصريين زراعية وصناعية وعلمية وغيرها، واستدعى لهذه البغية كثيراً من الإفـــرنج وكـــذلك شـــرع فى ترتيب الجيش على النظام الجديد وبينما هو يفتكر فى المسائل المؤدّية إلى هـــذه البغية إذ قدم إلى مصر رجل فرنساوى يدعى (ســـيف) مـــن ضـــباط الجـــيش الفرنساوى، فاستخدمه لهذا الغرض ولما كان لهذا الرجل شأن عظيم فى كافـــة الحروب التى حصلت فى بلاد اليونان والشام أردنا أن نأتى بترجمته وكيفية مجيئة إلى مصر قبل الشروع فى تفصيل هذه الحروب وما نشأ عنها من تداخل الدول الأوربية.

٤- ترجمة سليمان باشا الفرنساوى*

ولد والد هذا القائد الشهير فى ٢٦ يوليه سنة ١٧٥٤ وكان أبوه مزارعاً مقيماً بضواحى مدينة (ليون)[1] من أعمال فرنسا واسمه (انسلم سيفوس) وشبّ بين أهله حتى بلغ سن المراهقة فلم يرض بصنعة أبيه فتركه وذهب إلى رجل كان يصنع البرانيط ليتعلم منه ومكث عنده حتى برع فى هذه الصناعة ثم سافر إلى مدينة (ليون) واتخذ له فيها حانوتاً يعمل به البرانيط واشتهر صيته بذلك خصوصاً فى الجهات المجاورة لها، وصار كل من لا يستعمل برانيطه لا يعدّ فى ذوى الذوق والكياسة فاتسعت ثروته اتساعاً عظيماً حتى طمح نظره إلى المعالى فاشتغل بصناعة الآلات وازدادت ثروته، وتزوج فى سنة ١٧٨٦ بابنة أحد الطحانين وكانت فقيرة لا تقدر على دفع مهرها كما هى عادة الإفرنج ولم يكن لها إلا شبابها وعفافها وجمالها، فساعدته مساعدة عظيمة فى أشغاله الكثيرة وصارت تفرح لفرحه وتحزن لحزنه شأن الزوجة الصالحة التى تشارك زوجها فى السراء والضراء وكانت ولوداً فلم تأت عليه سنة ١٧٩١ إلا وكان له منها خمسة أولاد ثانيهم المترجم واسمه (يوسف) نسبة لشبينة الذى حضره وقت العماد وكانت ولادته فى ١٧ مايو سنة ١٧٨٨.

وفى أثناء هذه المدة ابتدأت الثورة الفرنساوية الشهيرة فى الظهور وكان من دأب حكام ذلك الوقت قتل الأشراف وهدم قصورهم خصوصاً المشيدة البنيان القوية الأركان التى كانت تشبه القلاع لأنهم كانوا يصطنعونها ليحتموا فيها

---

* آثرنا أن نجعل هذا موضوعاً لفصل لأنه يشكل موضوعاً مستقلاً استطرد فيه المؤلف بشكل خاص، وإن كان له صلة بالموضوعات التالية (المحرر).

[1] ليون هى مدينة من أعمال فرنسا واقعة على ملتقى نهرى السون والرون أسست سنة ٤١ قبل المسيح تقريباً فى زمن الدولة الرومانية واتسعت عمارتها فى أيام الإمبراطور أوغسطوس وخلفائه ثم اتسعت تجارتها لأهمية موقعها لكن اضمحل حالها حين أغارت عليها الأمم المتبربرة التى قوّضت أركان الدولة الرومانية فى الجيل الرابع للمسيح لكن ما لبثت أن عاد إليها مجدها الأثيل ورونقها القديم ولم تزل فى تقدم وارتقاء إلى يومنا هذا وبلغ عدد سكانها نصف مليون تقريباً وهى أهم المدن بفرانسا بعد باريس وقد اشتهرت بصناعة الحرير والإتجار به إلا أن تلك الصناعة قد قلت من يوم سابقتها ألمانيا والسويسرة فى حلبة هذا المضمار وقد نبغ منها عدد عظيم من علماء فرنسا مثل (انبير) العالم الذى ساعد كثيراً على اكتشاف التلغراف الكهربائى والمسيو (جكا) مخترع آلة النسيج وغيرهما.

أحياناً عند شن الغارة عليهم، كما كانت عادتهم فى تلك الأعصر، وكان بجوار مدينة (ليون) شريف يدعى الماركيز (دى بارال) له قصر باذخ به قلعة فتظاهر بالدخول فى حرب الجمهورية خيفة من أن يضطهده الجمهوريون وشرع فى بيع قصره حتى لا يكون ثمة داع لإضطهاد الجمهوريين إياه، فلما علم والد المترجم بنوايا الماركيز اشترك مع ثلاثة من الفلاحين واشتروا القصر مع قلعته بثمن بخس على شرط هدمه فقبل هدمه، ثم شرع (انسلم سيفوس) هو وشركاؤه فى بيع ما كان فيه من الأمتعة الثمينة والأثاثات الفاخرة والأسلحة القديمة فربح من ذلك مبالغ جسيمة، ثم ابتدأ فى هدم القصر حسب شروطه فساعده الحظ بقتل الماركيز، الذى قتله الجمهوريون عند وقوفهم على حقيقة حاله وكنه خبره، فتخلص بذلك (انسلم سيفوس) من تنفيذ شرطه الذى ربما استغرق جلّ ما ربحه من بيع الأثاث.

هذا وكان (يوسف سيف) المترجم حادّ الطبع شكس الأخلاق لا يقبل نصائح والده ولا أوامره ولا يطيع إلا هوى نفسه، وكان فى ذلك ضرره فلما أراد والده أن يمرّنه على أشغاله لم يجد منه إلا أذناً صماء وكان يترك منزل والديه ويرتع فى الفلوات مع الصبيان، وحين كان يعود إلى والده وقد رأى منه عدم الهداية والإمتثال يذيقه أنواع الأذى كالضرب المؤلم والشتم الفظيع فحين يرى ذلك من أبيه يهرع ثانياً إلى ما كان عليه وهلم جرّا.. ولما يئس والده من إصلاح أخلاقه وتقويم ما اعوج من طباعه أدخله المدرسة البحرية فى أواخر سنة ١٧٩٩ الموافق (٢ فاندمير سنة ٧)[1] من التاريخ الجمهورى وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام.

(1) لما استولت الأحزاب المتطرفة على أزمة الحكومة الفرنساوية سنة ١٧٩٢ أرادت هدم أركان الهيئة القديمة برمتها ومما غيرته التاريخ المسيحى واستعاضته بتاريخ جديد ابتداؤه يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وغيرت أيضاً أسماء الأشهر بأسماء توافق حالة الفصل من حر أو برد أو هواء أو مطر أو ثلج إلى غير ذلك وجعلت الشهر ثلاثين يوماً ينقسم إلى ثلاثة أعشار (ديكاد) وجعلت خمسة أيام أو ستة نسيئاً فى آخر السنة.

فلم تهذب طباعه صعوبة أحكام القانون البحرى ولذلك لم يرتق فى الرتب بل بقى فى درجة صف ضابط مع أنه كان متصفاً بالشجاعة وسكون الجأش عند الخطر، فحضروا واقعة (ترافلجار)[1] سنة ١٨٠٥ ولم يبلغ من العمر وقتئذ إلا سبع عشرة سنة وهو فى رتبة صف ضابط فى الألاى الثانى من الطوبجية البحرية ولم ترعه مخاوف هذه الواقعة الهائلة التى انتصر فيها الأميرال (نلسون)[2] الإنكليزى على دونتمات فرنسا وإسبانيا معاً وجرح فى ذراعه الأيمن جرحاً غير ذى بال ولما شفى منه توجه مع الدونتمة الفرنساوية إلى جزائر (أسور) وجزائر (كناريا) وبقى مدّة سنتين فى السفن الطرّادة عن شواطئ إفريقيا الغربية وأوربا، ومع ذلك لم تؤثر هذه الصعوبات الشاقة فى طباعه بل استمر على ما كان عليه من عدم طاعة رؤسائه والإذعان لأوامرهم، حتى غضب عليه فى يوم من الأيام أحد الضباط ورفع عصاه ليضربه فأخذها منه وطفق يضرب ذلك الضابط بها حتى كسرها، فوضعت لذلك فيه الأغلال، وسجن إلى أن يحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص كما هو حكم القانون العسكرى ولكن لم ينفذ هذا الحكم عليه لأن أحد رؤساء الجيوش وكان قد خلّصه المترجم من الموت فى إحدى الوقائع سعى فى حصول العفو عنه من الإمبراطور نابوليون الأول فلم ينجح سعيه فى العفو عنه، فتحيَّل له فى خروجه من السجن وأرسله إلى أحد أصدقائه وكان أميرالاى من الفرنساويين الموجودين إذ ذاك فى إيطاليا فقبله فى ألايه بصفة نفر عسكرى وذلك فى ٢ مايو سنة ١٨٠٧ وغير اسمه من ذلك العهد (بانسلم سيف) على اسم والده لئلا يعرف ولم يزل هذا القائد مساعداً له حتى حصل

---

[1] الطرف الأغر (المحرر).

[2] ولد هذا الأميرال الشهير سنة ١٧٥٨ ودخل البحرية ولم يبلغ من العمر إلا اثنتى عشرة سنة وامتاز بين أقرانه وتقدم بسرعة حتى عين وكيل أميرال سنة ١٧٩٧ وفى ١٧٩٨ حاول الإستيلاء على جزيرة (تنريف) إحدى مجمع جزائر (كناريا) التابعة لإسبانيا فلم ينجح ولما سافر بونابرت وجيشه من تولون فى مايو سنة ١٧٩٨ بقصد فتح مصر تبعه (نلسون) بعمارته فلم يلحق مراكبه إلا بعد أن نزلت الجنود إلى البر فأحرقها فى فرضة أبى قير فى ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ وبعد عدة مواقع غير مهمة تقابل مع عمارتى فرنسا وإسبانيا بالقرب من رأس (ترافلجار) قريباً من بوغاز جبل طارق وانتصر عليهما وأغرق عدداً عظيماً من مراكبهما وقتل نلسون فى هذه الواقعة (٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥) ثم نقلت جثته إلى مدينة لندن حيث احتفل بتشييع جنازته احتفالاً عظيماً ودفن فى كنيسة وستمنستر المخصصة لدفن ملوك انكلترا ومشاهير رجالها.

على رتبة أونباشى بعد أن دخل الجيش بثلاثين يوماً فى ٢ يونيه سنة ١٨٠٧ ولم يتعرض أحد لهذه الترقية لأنه كان محبوباً عند هذا الجيش للطفه وحسن أخلاقه فى نظرهم وشجاعته لا سيما فى استعمال كافة أنواع الأسلحة، وقوّته كانت تغرس مهابته فى قلوب أقرانه.

ولم يزل فى رتبته التى أعطيها لم يتعدّها إلا بعد مدّة وذلك أنه فى إبريل سنة ١٨٠٩ كان الألاى الفرنساوى السادس الذى فيه المترجم معسكراً فى شمال مدينة (مينينح)[1] وفى ١٥ إبريل من هذه السنة أرسل قائد هذا الألاى أربعة من الجند منهم (انسلم سيف) للإستكشاف تحت إمرة أحد الضباط فتوغلوا فى البر حتى وقعوا فى كمين من الأعداء كان يتربص فى هذه الجهة فرصة فأحاط به الأعداء إحاطة الهالة بالقمر فسقط فى أسرهم وقد أصيب بثلاث جراح وطلق نارى بعد أن قتل حصانه تحته فحرم لذلك من حضور الوقائع المهمة التى انتصر فيها نابوليون على النمساوية نصراً مبيناً وسيق مع الأسرى إلى بلاد (هنكاريا)[2] حيث ضمدت جراحه ولم يمض عليه زمن طويل حتى نقه ولما بلغ تمام الشفاء دخل فى خدمة أحد أمراء المجر فكان يعامله كصاحب مخلص لا كعدوّ أوقعه الحرب فى ربقة الأسر ولذلك لم يتمكن من الرجوع إلى فرنسا إلا بعد أن أقام سنتين أسيراً.

ولما عاد إليها لحق بألايه وكان معسكراً فى مدينة (فيزول) من أعمال فرنسا وترقى إلى رتبة جاويش مكافأة له على ما قاساه من عناء الحرب وشدّة الأسر وكان ذلك فى ١٦ يوليو سنة ١٨١١ ثم سافر ألايه إلى بلاد (هانوفر) بألمانيا فى نوفمبر سنة ١٨١١ وانتظم فى سلك الجيش المعدّ للهجوم على روسيا وكان مؤلفاً من ستمائة ألف مقاتل ما بين فرنساويين وألمانيين وإيطاليين وغيرهم من

---

[1] مينينح وتسمى بالألمانية (منكن) أو ميونخ أجمل بلاد ألمانيا وهى تحت مملكة (بافاريا) الداخلة ضمن إمبراطورية ألمانيا أسست سنة ٩٦٢ ميلادية وتشتهر بعمل البيرا وبها مبان عمومية فى غاية الإنتظام وكثير من المدارس ومما يستحق الذكر دار كتبها التى تحتوى على نيف وأربعمائة ألف نسخة من الكتب المطبوعة وعشرة آلاف نسخة من كتب خط اليد ويبلغ عدد سكانها ٢٧٠ ألف نسمة.

[2] المجر (المحرر).

كافة ممالك أوربا الخاضعة لفرنسا فعبر نهر (نيمين) فى ٢٤ يونيه سنة ١٨١٢ ونهر (دنيبر) فى شهر أغسطس التالى، وكانت الجيوش الروسية تنسحب متقهقرة أمام الجيوش الفرنساوية بدون قتال، كأنهم لا يريدون المدافعة عن وطنهم وما كانت هذه القهقرى إلا حيلة أرادوا بها أن يطمعوا الفرنساويين فى الدخول إلى داخل السهول الروسية ثم يقطعون عنهم خط الرجعة بلا تعب ولا نصب، ولقد نجحت هذه الحيلة وتوغل نابوليون فى البلاد الروسية حتى وصل مدينة (موسكو) ودخلها عنوة بعد واقعة (موسكووا) التى كانت سبباً لتخليد اسم (الماريشال نى)[1] فى التواريخ فى ٧ سبتمبر سنة ١٨١٢، لكن آلى الروس على أنفسهم أن لا يسلموا المدينة للفرنساويين إلا بعد أن يحرقوها ولم يتيسر للفرنساويين حينئذ المكث مدّة الشتاء داخل هذه المدينة ولما لم يكن فى البلاد المجاورة لها ما يكفى مؤنة هذا الجيش الجرار لا سيما وأن الروس أحرقوا كافة مزروعاتهم وكانت المسافة بين موسكو والبلاد التابعة لفرنسا شاسعة ولم يتيسر لهم الإتيان بالمؤن والذخيرة منها عزم نابوليون على الرحيل من الروسيا والرجوع إلى فرانسا، فهلك السواد الأعظم من جيشه إما من شدّة البرد أو من هجمات عساكر القوزاق عليهم ولم يعد إلى فرانسا إلا أقل من النصف.

وكانت هذه الوقعة أول أفول نجم نابوليون وفاتحة انكساره حتى لم يقم له بعدها قائمة وقد رقى المترجم أيضاً إلى رتبة باشجاويش بعد عودته من الروسيا إلى رتبة ملازم ثانى فى ٥ يونيه سنة ١٨١٣ بعد أن اشتهر فى وقعة (بوزن) فى ١٢ فبراير سنة ١٨١٣ واستحق الثناء من رؤسائه وطعن فى هذه الوقعة برمح

---

(١) ولد هذا الماريشال سنة ١٧٦٩ بقرية صغيرة ضمت إلى أملاك بروسيا سنة ١٨١٥ وكان أبوه صانع براميل وتطوع فى جيش فرنسا سنة ١٧٨٧ على حين لم يبلغ سنه ١٨ سنة وشهد أشهر الوقائع الحربية التى حصلت بين فرنسا ودول أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر وترقى إلى رتبة لواء (جنرال دى بريجاد) سنة ١٧٩٦ وإلى رتبة فريق فى سنة ١٧٩٩ وذلك حين لم يبلغ من العمر إلا ثلاثين سنة وانتصر على الألمانيين فى واقعة الشنجن سنة ١٨٠٧ وعلى الروس فى واقعة موسكووا سنة ١٨١٢ ولذلك لقبه الإمبراطور نابوليون بلقب دوك دى الشنجن وبرنس دى لا موسكووا ولما استقال نابوليون أول مرة وتولى لويز الثامن عشر منحه لقب (بير دى فرانس) إلا أنه انضم إلى نابليون عند عودته من جزيرة ألب ولذلك حوكم فى مجلس عسكرى بعد انخذال الإمبراطور فى واقعة وترلو (١٨ يونيه سنة ١٨١٥) وحكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص ونفذ عليه الحكم فى ٨ ديسمبر سنة ١٨١٥.

طعنة كادت تكون القاضية ولقد اشتهر (سيف) بين أقرانه بالشجاعة والنخوة وثبات الجأش فكان لا يرهبه رئيس ولا أمير ولا الإمبراطور نفسه، لأنه كان سالكاً فى طريق الواجب المطلوب منه لا يخشى لومة لائم ويحكى عنه حادثة غريبة تدل على قوّة بأسه وزيادة طيشه وذلك أنه بعد وقعة (بوتزن) فى ٢١ مايو سنة ١٨١٣ كتب اسمه فى قائمة من استحقوا نيشان الشرف[1] (ليجيون دونور) فناداه الإمبراطور أمام الصفوف ليقلده النيشان بيده تشريفاً له على أقرانه فلما حضر أمامه ناوله النيشان موبخاله على طيشه وعدم انقياده لأوامر رؤسائه فاحمرّ وجهه وقفل راجعاً إلى مركزه بدون أن يستلم النيشان فغضب الإمبراطور لذلك وقال لولا ما اشتهر به (سيف) من الشجاعة لبطشت به ولكنى عفوت عنه وكفاه بعدم إعطائه هذا النيشان جزاء.

ثم امتاز أيضاً عن أقرانه حين دخل جيش الدول المتحدة إلى أراضى فرانسا فى أوائل سنة ١٨١٤ بعدّة أمور تدل على شجاعته وقوّة جنانه وأنه لا يتأخر عن اقتحام الخطوب للدفاع عن وطنه شأن كل رجل حرّكته المحبة لمسقط رأسه واستفزته النخوة الوطنية وذلك أن قائد ألايه لما بلغه أن بعض عساكر وضباط القوزاق الروسيين محتلون قرية لا تبعد عن الموقع المعسكر هو فيه إلا ثلاثة فراسخ، أراد أن يستطلع حقيقة هذا الخبر وطلب أن أحد الضباط يعرّض نفسه لهذا الإستكشاف فلم يجب طلبه إلا (سيف) فاستصحب معه بعض الفرسان وهجم على نقطة العدوّ وقتل بعضهم وأسر الباقى فاستحق بذلك رضا رؤسائه ومحبتهم ومدحهم له على ما شوهد منه وامتاز به بينهم حتى أن قائد هذه الفرقة هنأه على شجاعته أمام بقية الجيش ورقى (سيف) بذلك إلى رتبة ملازم أول فى ١٣ مارث سنة ١٨١٤ ونقل إلى الألاى الرابع عشر وكلف بحمل بيرقه ولكن لم يلبث أن تبدل فرحه ترحاً وسروره حزناً بانتصار جيوش أوربا على العساكر

---

(1) هو نيشان أسسه بونابرت فى ١٩ مايو سنة ١٨٠٢ حين كان قنصلا أولا قبل أن يصير إمبراطور ويلقب بنابوليون الأول ولقد طرأت على هذا النيشان عدة تغيرات تبعا لتغير الحكومات لكن لم يبطل بالكلية لتعلق الأهالى به لأنه يذكرهم بانتصاراتهم العديدة على أوربا.

الفرنساوية ودخولهم مدينة باريس وإجبارهم نابوليون على الإستقالة ونفيهم إياه لأول مرة فى جزيرة (إلبه) وسافر نابوليون فى ٢٠ إبريل سنة ١٨١٤ مودعاً عساكره فى حوش قصر (فونتنبلو) وأعقب سفره دخول لويز الثامن عشر مدينة باريس التى لم يتمكن من الدخول إليها إلا بمساعدة الأجانب له.

فانتهى الحرب بذلك وأفاقت الأهالى من هم الحروب وما يتبعها من الكروب مع إن الفرنساويين كانوا يؤثرون استمرار القتال، ولو كان فيه فناؤهم عن آخرهم، أولى من وطأة الأجنبى أرضهم ولكن للدهر حالات وللوقت ضرورات توجب الوطنى لتحمل وجود الأجنبى فى بلاده بصفة حاكم أو مالك معللاً نفسه بالحصول على الإستقلال السياسى قريباً كان ذلك أو بعيداً.

هذا ولم يرض (سيف) أن يبقى فى خدمة حكومة تعضدها العساكر الأجنبية، لغاية فى النفس لا لخير تعود ثمرته على بلاده، كما كان يظن أحزاب[1] لويز الثامن عشر، فرجع إلى بلده (ليون) حيث كان أبوه وأقاربه مقيمين فكانوا يجتمعون به ويسلون أنفسهم عن هذه المصيبة بتذكر مجد فرنسا وما نالته من الفتوحات فى زمن هذا الرجل الذى تحدث بذكره الركبان وخشى بأسه القاصى والدان حتى وافاهم خبر رجوع نابوليون من منفاه ونزوله إلى البر فى خليج (جوان) بالقرب من مدينة (كان) فى أول مارث سنة ١٨١٥ أى بعد تنازله عن أريكة الإمبراطورية بعشرة أشهر.

ولما شاع خبر عودته تجمع ضباط جيوشه المظفرة وطفقوا يهيجون الأهالى على حكومة لويز الثامن عشر ويذكرونهم بمجد نابوليون وانتصاره على جيوش أوروبا بأسرها غير مرة ويقولون لهم أنه لم ينهزم فعلاً بل خانه بعض قوّاده الذين قابلوا نعمته بالكفران وخانوا وطنهم العزيز وساعدوا الأجانب على إذلال مواطنيهم طمعاً فى الدنيا وحباً فى المال الذى سعوا فى اكتسابه بدون مراعاة شرف ولا ذمة ولا حرمة وطن.

[1] هكذا فى الأصل (المحرر).

وكان (سيف) المترجم من أعظم نصراء نابوليون فى مدينة (ليــون) فكــان يدخل القهاوى والتياترات وكافة المجتمعات العمومية لتهييج الأهالى وإثــارهم على الحكومة المعضدة من أعداء الوطن والأمة ولم يكن ذلك منه طلباً لإقتنــاء الثروة والترقى إلى الرتب العالية بل حباً منه فى استخلاص وطنه وتطهيره مــن احتلال الأجنبى فيه.

ولم يكن مع نابوليون عند نزوله على شواطئ فرانسا إلا تسعمائة رجل، ومع كون جنوب فرانسا من حزب البوربون، لم يخش نابليون من التوغل فى الـبلاد مع قلة حرسه لفرط شجاعته وقوة بأسه حتى قرب من مدينة (جرينوبل) إحدى مدن فرانسا الحصينة فأرسل حاكمها عساكر الحامية لقتال نـابليون وحاميتـه والإتيان به أسيراً إلا أن الجنود لما رأته تذكرت مجدها الأثيل فلم تجـسر علـى مطاردته بل انضمت إليه وصافحته وصاحبته إلى مدينـة (جرينوبـل) وكـان دخوله فيها فى التاسع عشر من مارث.

فلما رأت حكومة البوربون الإسراع فى تقدمه نحو مدينة (ليون) وظهر لهـا أن أغلب الضباط والقوّاد كارهون لها ومائلون إلى نابليون أرسلت إلى (ليــون) الكونت (درتوا) أخا الملك ليقود حاميتها المؤلفة من خمسة عشر ألف عسكرى فاستعرضهم فى ١٠ منه ولما رأى على وجوههم علامات الميل لنابليون ويـئس من مساعدهم سافر من (ليون) فى صبيحة ١١ من الشهر وبعد سـفره أعلـن الجند الإنحياز لحزب الإمبراطور فدخلها فى مساء اليوم نفسه ثم سافر منـها فى اليوم الثالث عشر منه قاصداً باريس الزهراء، ودخلها جهـاراً بـين صـفوف الأهالى والجند فى ٢٠ مارث بدون أن يصادف ما يعوقه فى مرور من جنـوب فرنسا إلى شمالها.

ولما عين الجنرال (جروشى) قائداً عاماً للفرقة العسكرية فى مدينة (ليــون) وضواحيها وسمع بما أتاه (سيف) من المساعدة لنابليون، كافأه على ذلك بتعيينه

ضمن أركان حربه ورقاه إلى رتبة يوزباشي ولكنه لم يحظ بها، لأن الإمبراطـــور لم يلبث إلا قليلاً وهزمته جيوش انكلترا وبروسيا المتحدة فى وقعـــة (وترلـــو) فى يوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وبعد هذه الواقعة التى خلدت اسم (ولنجتـــون)[1] الإنكليزى دخلت الجيوش باريس ولم يسع نابليون إلا التسليم ليأسه من الظهور على أعدائه حيث لم يبق فى فرنسا جيوش مدرّبة فركب فى ١١ يوليو الـــسفينة المسماة (بلوروفون) وقصد بلاد الإنكليز ووضع نفسه تحت حمايتهم، لكن خانه الدهر فسيق إلى النفى فى جزيرة (ســـانت هيلينـــه) الواقعـــة فى الأوقيـــانوس الأطلانطيقى فى المنطقة الحارة ومكث بها ست سنوات إلى أن قضى نحبـــه فى ٥ مايو سنة ١٨٢١.

هذا وبعد دخول البوربون فى فرنسا عقب هذه الواقعة أمر (لويس) الثـــامن عشر بتشكيل مجلس حربى لمحاكمة القواد والضباط الذين انضموا إلى نـــابوليون حين أرسلوا لمحاربته والقبض عليه فأقيمت الدعوى الحربية على تـــسعة عـــشر جنرالاً ومارشالاً وكان من ضمن هؤلاء وفى مقدّمتهم المارشـــال (ني) الملقـــب ببرنس مسكووا نسبة إلى البلدة التى انتصر فيها نابليون على الجيوش الروســـية وكان هذا النصر بسبب ما أظهره المارشال من الـــشجاعة والمعرفـــة فى فنـــون الحرب.

وسبب محاكمته أنه لما كان نابليون عائداً من منفاه الأول أرســـلته حكومـــة البوربون لمحاربته وأخذه أسيراً فسافر معترفاً لها بذلك لكنه لما تقابل معه تـــذكر

---

[1] ولد الدوك دى ولنجتون سنة ١٧٦٨ فى إحدى مدائن أرلاندا من عائلة حديثة الشرف وتعلم الفنون الحربية فى مدرسة (انجير) من أعمال فرنسا ثم دخل الجيش الإنكليزى برتبة ملازم ثانى سنة ١٧٨٧ ثم أرسل إلى الهند مع شقيقه اللورد لسلى الذى عين حكمدارا عاما لها سنة ١٧٩٦ واشتهر فى عدة وقائع حربية ثم عاد إلى انكلترا سنة ١٨٠٥ وانتخب عضواً فى مجلس العموم وتعين سكرتيرا أولا لحكومة أرلاندا وفى سنة ١٨٠٨ عين قائداً للجيش الإنكليزى الذى أرسل فى بلاد البرتغال لحمايتها فتمكن من اجلاء الفرنساويين عنها ثم اقتفى أثرهم فى إسبانيا حتى أكرههم على إجلائها بعد عدة وقعات أهمها وقعة (فتوريا) فى ٢١ يونيو سنة ١٨١٣ ولأجلها رقى إلى رتبة مارشال الرفيعة وأعطى لقب دوك ثم اجتاز جبال (برينيه) وحاصر مدينة (تولوز) بفرنسا ولم يدخلها لمنعتها ثم توجه إلى باريس حين دخلتها جيوش الدول أول مرة وعين نائبا عن انكلترا فى مؤتمر فيينا الذى عقد لتسوية حالة أوربا بعد سقوط نابوليون ولما عاد نابوليون من منفاه فى شهر مارث سنة ١٨١٥ اعتزل الأعمال العسكرية وعاش معززا ودخل فى وزارات روبرت بيل غير مرة وتوفى سنة ١٨٥١.

نعمته ومصاحبته له فى سائر الحروب ومشاركته إياه فى غالب انتصاراته بل أشهرها، وأمالته إليه عوامل المحبة التى كانت تجره نحوه من جهة، وميل العساكر التى تود الإنضمام إلى نابليون من جهة أخرى فانضم إليه بعسكره.

ولما بلغه الخبر بإصدار الأمر بالقبض عليه لم يصدقه حيث أن معاهدة ٣ يوليه سنة ١٨١٥ أقرت بالأمان لكافة الضباط الذين انحازوا إلى نابليون ولم يجزم بأن حكومة متمدنة تقر على شئ ولم تنفذه، فلذلك لم يبرح بلده مع أن إخوانه وخلانه عرضوا عليه البراح وبذلوا له جميع ما يلزمه من المال والرجال للخروج من أرض فرنسا والإلتجاء إلى حكومة أخرى فلم يجبهم لذلك وبقى حتى قبض عليه فى يوم ٥ أغسطس سنة ١٨١٥ وفى أثناء سفره مخفوراً بأنفار الشرطة إلى مدينة باريز لإيقاع الحكم عليه عرض عليه أيضاً بعض أصحابه أن يأخذوه عنوة من الخفر ويهربوه من فرانسا فمنعته نفسه الأبية أن يأتى هذا الأمر الذى ربما ينسب به إلى الجبن والنذالة فلما وصل إلى باريس وسجن بها ألّف بعض الضباط عصبة قوية وكان المحرض عليها (سيف) وتشعبت فروعها فى أكناف باريس قصد تخليص المارشال (نى) من القتل فلم يقبل ذلك وآثر الموت على الحياة مع الهرب فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونفذ عليه الحكم فى يوم ٧ ديسمبر سنة ١٨١٥ فمات على شهامته وفرط شجاعته مأسوفاً عليه من كل وطنى إلا من على بصرهم غشاوة.

ومما يحسن ذكره هنا أنه أثناء المرافعة والمدافعة قام أحد المحامين المكلفين بالمدافعة عنه وطلب عدم اختصاص المجالس الفرانساوية عموماً بمحاكمته لأنه ليس فرانساوياً لكون البلدة التى ولد فيها سلخت عن فرانسا وألحقت بألمانيا فقام عند ذلك المارشال (نى) وقال إنى لم أزل فرانساوياً وإنى أودّ الموت كذلك وأوثره على أن أعيش أجنبياً عن وطنى الذى تربيت فيه واستظللت تحت سمائه ونلت الرتب العالية فى الدفاع عنه.

وبعد موت المارشال (نى) ضاق بسيف الحال ولم يكن عنده ما يسدّ به رمقه لأنه أراد الدخول فى عداد الجيش الذى ألف بعد حل الجيش الذى ساعد نابليون، فلم يجد لذلك سبيلاً ولم يقبل فى مصالح الحكومة أيضاً لتشيعه للإمبراطور، فاشتغل آخر الأمر بالتجارة فى الخيول والعربات فنجح فيها قليلاً ولكن لم يكفه ربحه من ذلك لما كان متعوداً عليه من كثرة النفقة والميل للملاذ، فتركها ودخل فى إحدى العزب مديراً وكان ذلك فى ١٠ إبريل سنة ١٨١٦ لكنه لم يرض بهذه الوظيفة لحقارتها بالنسبة لما كان فيه أولاً من علو الرتبة والدرجة فعاد إلى تجارة الخيول ثانياً ولم يزل فى هذه المهنة حتى نفد ما كان عنده من المال وبلغ من حاله أنه لم يقدر على دفع أجرة منزله الذى كان يسكنه.

ولما يئس من بلوغ الثروة التى كان يسعى دائماً وراءها فى باريس باع ما بقى عنده من العربات والخيول ورحل إلى مدينة (ليون) وأقام عند عمه مدّة مختفياً خشية من مطالبة غرمائه له ومضايقتهم إياه فلما علموا بمكانه ذهبوا إليه وصاروا يطالبونه ويعنفونه ويهدّدونه بالمرافعة أمام المحاكم حتى ضايقوه مضايقة شديدة حملته على المهاجرة إلى بلاد إيطاليا وكان ذلك فى أوائل سنة ١٨١٩ وأقام فى مدينة ميلان عميلاً لأحد تجار مدينة ليون بشئ تافه هذا وفى أثناء هذه المدّة بلغه أن شاه العجم يريد أن يستخدم بعض الضبط الأورباويين لتنظيم جيوشه على الطراز الأوربى الجديد فرغب فى ذلك ولكن رأى أنه لا يمكنه السفر إلى مثل هذه البلاد بدون توصية عظيمة فتحير فى أمره ثم أرسل خطاباً إلى الكونت (دى سيجور) يطلب منه المساعدة فى هذه المسألة.

فلم يمض إلا أيام قلائل حتى ورد إليه من الكونت خطاب يخبره فيه أن الأولى له العدول عن السفر إلى العجم والتوجه إلى مصر لوجود كثير من الفرانساويين بها تسهل عليهم مساعدته وأرسل يوصى به الفرانساويين المقيمين فى القطر المصرى ليقدّموه إلى محمد على باشا الذى كان آخذاً وقتئذ فى عمل كل ما يعود على مصر التى اختارها وطناً له من الخير العميم والنفع الجزيل، وكان يقبل كل من

يساعده على إنفاذ مشروعاته من حيز الفكر إلى حيز العمل من أى جنس كان غير مراع فى ذلك شيئاً سوى مصلحة البلاد المصرية فإنه كان يستعمل الأجانب للوصول إلى هذه الغايات ويستعين بهم كالآلات لتقدم بلاده فى مدارج الكمال وتأسيس المدارس والمعامل والإسبتاليات وفتح الورش وحفر الترع لتسهيل الرى وغير ذلك. وكان من حسن إدارته أنه متى نشأ من المصريين رجال أكفاء يقومون بما تقدم حق القيام استغنى بهم عن الأجنبيين وولى مكانهم من نبغ من المصريين.

* * *

وصول سليمان باشا إلى مصر:

وبمجرد وصول جوابات الكونت دى سيجور إليه (وكان من ضمنها كتاب مخصوص لمحمد على باشا) قام من ساعته قاصداً ثغر الإسكندرية ومنه إلى القاهرة ولما وصل إليها تقرب إلى محمد على باشا بواسطة الفرنساويين المقيمين إذ ذاك بمصر وقدم إليه كتاب الكونت دى سيجور فقابله مقابلة خصوصية استفسر منه فى خلالها عن حقيقة أمره حتى وقف منه على سبب مجيئه إلى مصر وبعد محاورة طويلة تفرس منه فى خلالها الشجاعة والشهامة والصداقة والولاء عرض عليه أن يستخدمه فقبل منشرح الصدر مستبشراً ببلوغ المأمول حيث نال ما لم ينله فى فرانسا وإيطاليا بعد السعى المديد والعناء الشديد فكانت عاقبة أمره خيراً وعند حسن الصبر كثيراً ما ينال الصابرون.

وصادف مجيئه إلى مصر انتصار الجيوش المصرية على الوهابيين – كما تقدم فى موضعه – ولا يخفى أن محمد على باشا وطد ملكه فى القطر المصرى بفتحه بلاد العرب بناء على طلب الباب العالى صاحب السيادة فى هذه البلاد وكانت الصناعة والتجارة سالكتين سبيل التقدم والفلاح لا سيما بعد إنشائه فوريقات فى سائر أكناف البلاد فضلاً عن المعامل التى لم تزل آثارها باقية مشاهدة إلى الآن مهملة فى زوايا النسيان وكانت القوة البحرية فى غاية الإستعداد ولم ينقص

مصر فى ذلك الوقت شيئاً إلا جيشاً مرتباً ومنظماً على الطراز الأوربىّ الجديد، وكان قد شرع فى ذلك مراراً قبل مجئ سليمان باشا ولكن لم يتم مشروعه لمعارضة عساكر الترك والأرنؤد له، كما سبق ذكر ذلك فى موضعه، ولكون السواد الأعظم من جيشه كان مركباً منهم بعد أن قتل جميع رؤسائهم فى القلعة أوّل مارث سنة ١٨١١ لم يقو على إذلالهم وتنفيذ أغراضه بالرغم عنهم.

ولما تم له النصر على الوهابيين ولم يكن ثمة احتياج إلى مراعاة خاطرهم، عزم على تنفيذ مشروعه وهم لم يمانعوه ولم يعارضوه فى التنفيذ حيث قتل الكثير منهم فى بلاد العرب فاستخدم (سيف) ليكون هو المنفذ لهذا المشروع لما تفرسه فيه من الشجاعة والمثابرة على الأعمال التى لا يردّها أعظم الموانع ولا أهول الوقائع مادّية كانت أو أدبية، ولكى لا يشعر أحد بمقصوده أرسل (سيف) أوّلاً إلى جهات الحدود القبلية ليبحث عما يوجد هناك من معادن الفحم الحجرى بناء على اعلام بعض سكان تلك الجهات، فعجب (سيف) من هذا التعيين لكونه لم يكن له أدنى إلمام بمثل هذه المسائل العلمية، لكن لم يتأخر عن الإمتثال لأوامر من أوقف نفسه لخدمته ظاناً أن وراء هذا التعيين أمور خفية لابد أن تكشفها الحوادث والأيام.

فعاد من ساعته إلى القاهرة ليتهيأ للسفر إلى الحدود منشرح الصدر قرير العين لتحسن المستقبل أمامه ولكى يسهل عليه محمد على باشا الأمر والإجراءات الإدارية اللازمة لصرف ما يلزمه من المال والميرة أرسل الأوامر الشديدة إلى سائر الجهات بإعطائه كل ما يلزمه بدون احتياج إلى الحصول على إذن خصوصى وبتنجيز كل طلباته بغاية السرعة حتى لا يكون ثمة مانع من سفره. ولما تمّ له جميع ما يلزمه فى هذه الرحلة سافر من القاهرة فى بحر شهر يوليو سنة ١٨١٩ فى إحدى مراكب الحكومة الشراعية فوصل إلى مدينة أسيوط بعد ثمانية أيام لمساعدة ريح الشمال له وعدم حدوث أنواء عاقته عن السير وكان معه فى هذه الرحلة أحد مأمورى الحكومة المصرية ليكون معيناً له

فى تنفيذ أوامره ومزيحاً عنه ما يعتريه فى سبيل العقبات الشاقة، هذا هو ظاهر مأموريته، وفى باطن الأمر أنه يكون مراقباً عليه خشية من أن يكون مرسلاً من قبل إحدى الدول الأجنبية بمأمورية سرية لإكتشاف أمر، وليرى أيضاً كفاءته ومقدرته على العمل وهل يمكن أن تحال عليه مهمة عظيمة كتشكيل الجيش المصرى وتدريبه على النمط الأفرنكى ولم يعارض (سيف) فى استصحابه، بل سرّ من ذلك عازماً على الإستعانة به على معرفة طباع البلاد وإطلاعه على أخلاق أهلها حتى لا يحصل منه أدنى أمر مغاير لعوائدهم وأحوالهم الوطنية والدينية.

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى أسوان، حدود الحكومة المصرية وقتئذ بعد أن شاهد فى طريقه العجائب من آثار المصريين القدماء الموجودة على ضفتى النيل وبقايا مدينة طيبة التى كانت فى ذلك الوقت مطمح أنظار السائحين لقرب عهد أوربا بمعرفتها فى أثر أعمال واكتشافات اللجنة الفرنساوية العلمية التى أتت مصر مع بونابرت قائد الجيوش الفرنساوية التى أغارت على هذه البلاد فى أوائل هذا القرن إذ كانت العلماء تؤم مصر من سائر أنحاء أوربا لحل رموز الكتابة الهيروجليفية (لسان قدماء مصر) التى بقيت معماة حتى قيض الله العالم الفرنساوى (شامبوليون)[1] فحل رموزها وفك عقودها وأزاح ظلماتها مع أن المصريين كانوا أحرى بذلك وأولى بما هنالك.

فلما دخل أسوان واستراح من تعب أسفاره شرع فى البحث عن الفحم الحجرى الذى أرسل لأجله ولم يتأخر بسبب اعتقاده الجازم أنه لا يوجد فى مثل هذه الجبال الصوّانية، بل كان جل بغيته أن يؤدّى مأموريته بالصداقة والأمانة

[1] ولد العالم الشهير المسيو شامبليون سنة ١٧٩٠وتعين مدرسا للتاريخ فى مدينة جرينوبل سنة ١٨٠٩ ومن وقتها خطر بباله حل رموز الكتابة المصرية القديمة فاشتغل بها وقدم نتيجة أبحاثه إلى المجمع العلمى (أكاديمى) وفى سنة ١٨٢٨ و٢٩ ساح ببلاد مصر لتتميم مشروعه وبعد عودته جعل عضوا فى الأكاديمى الفرنساوى وتوفى سنة ١٨٣١ وله كتاب يتعلق بمصر يتكلم فيه على الفراعنة وقدماء المصريين وتاريخهم وديانتهم ولسانهم وكتاباتهم وألف أجرومية وقاموسا فى لسانهم القديم وقد جعل له اهل بلده تمثالاً لبقاء ذكره وبعد موته تمم أخوه تآليفه وطبعها.

ولم يأل جهداً فى المرور على الحدود المصرية وما يكتنف أسوان من الجبال شرقاً وغرباً للبحث عن هذا المعدن الذى لابد منه فى تقدّم الصناعة فى مصر، ولو كان البحث بدون فائدة ولا جدوى ثم سافر من أسوان إلى مينا القصير الواقعة على البحر الأحمر مفتشاً فى طريقه عما جاء للبحث عنه وقد أنهكت قواه هذه الرحلة الأخيرة لعدم تعوّده على الإقامة فى البلاد الواقعة فى المنطقة الحارة حتى اعتراه المرض بسبب شدة الحرارة وثقل عليه، حتى كادت روحه أن تزهق وتكون هذه الرحلة خاتمة أسفاره، ولكن لقوّة بنيته الأصلية أمكنه أن يقاوم المرض فاستراح أياماً حتى رجعت إليه قواه وقفل راجعاً إلى أسوان.

* * *

وفى أثناء هذه المدة أخذ الجيش المصرى فى العودة إلى مصر وذلك أن بطل مصر إبراهيم باشا بعد أن استأصل شأفة الوهابيين وأعاد الأمن إلى طريق الحجاج أراد أن يريح عساكره من الأتعاب والأوصاب التى كابدوها أثناء هذه الحروب الهائلة التى استمرت عدّة سنوات فترك مدافعه فى جدّة وأرسل أوامره إلى جزء من جيشه بالعودة إلى مصر براً على طريق ساحل البحر الأحمر ثم سافر معه من بقى من جيشه من جدّة بحراً إلى القصير ومنها على طريق الصحراء إلى قنا ثم ركب النيل من قنا قاصداً العاصمة وكان أمراء الصعيد ومأمورو الحكومة يتلقونه أينما حل بالتبجيل والتعظيم، مفتخرين بعوده منصوراً على الفئة التى أعيت العساكر الشاهانية، وما الفضل فى ذلك إلا له ولعساكره المصرية التى كانت هذه النصرة مقدّمة انتصاراتهم وفتوحاتهم كما سيأتى إن شاء الله.

ثم وصل إلى الجيزة فى ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وقابل والده فى سراى شبرا فى يوم ١١ فتلقاه فرحاً به مسروراً ومفتخراً بما آتاه الله من الفوز والنصر على أعدائه بواسطة ابنه، وبعد هذه المقابلة العائلية أمر محمد على باشا، كما تقدم آنفاً، أن تزين العاصمة عدّة أيام متوالية فلم يتأخر أحد من سكان البلد عن القيام بأداء الزينة الواجبة عليها احتفالاً بهذا الشجاع الذى أعاد لمصر فخرها

الأثيل وملأ الأصقاع بصيته وشهرته وشهرة الجيوش المصرية التى برهنت تحت إمرته على أنهم قادرون على أن يدافعوا عن وطنهم مدافعة الأسود عن غاباها لا بل ويفتحون ما جاورهم من البلاد إذا راعى رؤساؤهم الذمة والشرف وحب الوطن العزيز ولم يؤثروا المنفعة الخاصة على المنفعة العامة.

ثم دخل شجاع مصر وفخرها إلى العاصمة من باب النصر بموكب حافل اجتمع فيه كل من بالقاهرة من الأعيان والقوّاد يتقدّمهم إبراهيم باشا تخفق فوق رأسه الأعلام التى اغتنمها من الوهابيين حتى وصل إلى القلعة بين صفوف الأهالى وأصوات النساء التى كانت تملأ الآفاق برنينها استبشاراً بقدوم موكبه الميمون وتعلو عليها أصوات المدافع التى كانت تطلق من القلعة أثناء مرور الموكب من شمال البلد إلى جنوبها، ولم يظهر محمد على باشا فى هذا الموكب ليكون فى الإستقبال لولده فقط، بل توجه إلى جامع السلطان الغورى يشاهد موكب ولده العزيز ويتمتع برؤيته محفوفاً بأعيان البلدة وتجارها، فيا لها من حفلة يعجز عن وصفها الواصفون وتقصر عن تسطيرها الأقلام ثم اشتهر بعد ذلك إبراهيم باشا وتحدّث بذكر أعماله الركبان. وإنما أعدنا ذكر الإحتفال برجوعه لأن فى الإعادة ثمرة وإفادة.

ولنرجع إلى المترجم (سيف) فنقول أنه عاد إلى أسوان[1] وأخذ فى التفتيش عن الفحم الحجرى فعثر على بئر غاز أرشده إليها العرب القاطنون بين القصير وأسوان وكتب عنها تقريراً مبيناً فيه فوائد استعمال الغاز فى الإستصباح بدل الشمع والزيت وأنه أيسر من غيره ثمناً ولو التزمت الحكومة استخراجه لعاد إليها منه ربح عظيم، فلما وصل إلى أسوان لم يجد البيك الذى كان معيناً لمصاحبته فإنه رجع إلى مصر لمقابلة إبراهيم باشا غير مفكر فيما عين لأجله وكذلك لم يجد فى البلدة أحد من الأعيان فلما رأى أن الكل هرعوا إلى العاصمة

[1] أسوان قال ياقوت فى معجمه بالضم ثم السكون ووجدت بخط أبى سعيد السكرى سوان بغير همزة.

رجع هو أيضاً ليقابل من اشتهر صيته فى الآفاق مؤملاً أنه ربما يجد عنده وظيفة أو مأمورية يظهر فيها معارفه العسكرية والحربية.

* * *

رجوع سيف إلى القاهرة والإبتداء فى تنظيم الجيش:

لما عاد المترجم إلى العاصمة قابله محمد على باشا بالبشاشة والترحاب ولم يسأله عن مأموريته ولا عن نتيجتها بل قدّمه إلى ولده إبراهيم باشا وقال له أنه ضابط من جيش فرنسا ويمكنه أن يثق به فى سائر أعماله ويستعين بمعارفه فى جميع مشروعاته، فأنزله إبراهيم باشا من الإكرام والإعتبار منزلاً رحيباً، وأسرّه بما كان فى عزمه وعزم والده من تشكيل جيش جديد مدرّب على الحركات العسكرية والأمور القانونية على وفق الطراز الأوربى، ليمكنه باستخدامه من إتمام ما يقصده من الغزوات والفتوحات وأن ذلك هو غاية مرغوبه ولولا معارضة العساكر الباشبوزق له والأرنؤد لما كان فيهم من القوّة لحصل ذلك المشروع، ولكن الآن وقد ضعفت شوكتهم وقل عددهم فيمكنه تتميم هذا المشروع الجليل الفائدة الكثير العائدة لعجزهم اليوم عن المعارضة فى ذلك، لا سيما مع وجود الجيش المنصور فى العاصمة بعد ما اشتهر به من الأعمال فى بلاد العرب، ثم شرعا فى تدبير وسنّ ما يلزم لذلك من القوانين والتنظيمات وبعد أن أتم كل ما يلزم ابتدأ فى تنفيذ هذا المشروع وعينّ سيف بوظيفة ضابط (أغا) معلم للجيش.

وبمجرد أن شاع خبر تعيينه تذمر ضباط الباشبوزق وتآمروا على معاكسة هذا الأجنبىّ الذى أتى لتنظيم وتغيير ما تعوّدوا عليه من عدم النظام والإخلال بشئون وظائفهم وسعوا فى الفتك به للتخلص من أعماله التى يرون أنها تعود عليهم بالضرر على زعمهم، غير ناظرين إلا إلى المصلحة الخصوصية التى يهدرون فى سبيلها كل منفعة عمومية، ولولا عزم محمد على باشا ونجله وثباتهما

على تنفيذ مشروعهما المفيد فائدة حسنة رغم أنف كل مقاوم ومعاند، لنجحوا فى مشروعهم السئ.

ولم يلبث المترجم أن أخذ فى تعليم العساكر حتى أتم تعليم فرقة واستعرضها فى ميدان الرميلة أمام القلعة بحضرة محمد على باشا وجميع أعيان البلد وكثير من المعارضين لهذا المشروع المعتقدين عدم نجاحه، وإنما أتوا بأنفسهم ليتحققوا نجاحه من عدمه، فلما رأوا أن المشروع قد أخذ فى النجاح صاروا من جهة ينفرون الأهالى منه ويفهمونهم أنه لو نجح هذا المشروع لكان سبباً فى أخذ أولادهم وتغريبهم عن أوطانهم وتصير الخدمة العسكرية جبرية على كل شاب مصرى سواء كان مزارعاً أو من أهل العاصمة، ومن جهة أخرى يحرّضون العلماء ويلقون فى أذهانهم كلا ما يفهم منه الحث على عدم تنفيذ هذا المشروع ويلبسون عليهم الأمر ويرونهم أن هذا المشروع ربما يكون سبباً لتداخل الأجانب فى مصر خصوصاً فى الإدارة العسكرية وأن ذلك مخالف للقرآن الشريف والشرع الحنيف.

فصار العلماء يلقون هذه الأوهام فى أذهان تلامذتهم وهم ينشرونها بين العامة فازداد بذلك الكلام فى هذه المسألة ولكن لم يزعزع هياج العلماء والقواد وتذمرهم شيئاً من أركان ثبات محمد على باشا، لكنه توقياً مما عساه يقع مما لا تحمد عقباه صار يحضر التمرينات بنفسه كل يوم وولده إبراهيم باشا وبقية أعضاء عائلته وحاشيته. ويحكى أن الأمير إبراهيم باشا كى يكون قدوة للعسكر ويعوّدهم على تحمل مشاق النظام العسكرى والطاعة لرؤسائهم طاعة عمياء فى كل ما يؤمرون به انتظم فى سلك العساكر الذين يتعلمون فأخذ بندقية ووقف أمام الصف فلما رآه (سيف) أمام الصف وبخه على ذلك وقال له إن كنت تريد التعلم فاتبع أحكامه وقف فى آخر الصف مع أترابك فامتثل وهو كاره ليظهر بذلك التحمل للحاضرين معه من الجند ويعلمهم أن التحمل هو الطاعة وهى

أوّل الواجبات المفروضة على الجندى وبدونها لا يستقيم نظام الجيش واستمر التعليم عدة أيام على هذا المنوال.

وأما التذمر فكان آخذاً فى الإزدياد يوماً عن يوم حتى خيف أن هذه الفتنة تسرى إلى العسكر فإنها لو وصلت إليهم لكانت الحاسمة والقاصمة لهذا المشروع، فجمع محمد على باشا مجلساً خاصاً للتروّى والمشاورة فى اتخاذ الطرق المؤدية إلى إتمامه بدون تشويش ولا حصول فتنة تؤدى إلى سفك الدماء فقرّ رأيهم على أن يرسل سيف وفرقته إلى أسوان فى الصعيد ليتم تعليمهم هناك، وبعد ذلك ينظر فيما يكون إجراؤه وكانت تلك الفرقة مؤلفة من ثلاثمائة أو أربعمائة شاب من المماليك الخاصة بمحمد على باشا، وكان جلهم من الجراكسة وما جاورهم ممن لم يعرفوا من النظامات العسكرية شيئاً بل هم متعوّدون على الحروب بدون انظام فى جبالهم الشامخة التى يكسو بعضها الثلوج الدائمة وكانوا حسان الصور أقوياء أصحاء سريعى الحركات أخفاءها مطيعين لأوامر سيدهم فى كل ما أمرهم به بدون أدنى معارضة وقد اختارهم محمد على باشا ليكونوا أوّل فرقة نظامية لما يعهده فيهم من الإستعداد والنباهة حتى إذا أتموا تعليمهم صاروا رؤساء ومعلمين لغيرهم ممن يراد انتظامه من أولاد المصريين.

فسافر بهم سيف إلى أسوان ليكون بعيداً عن العاصمة وعن دسائس المعارضين للنظام الجديد وعن غواية الغاوين وفساد المفسدين، واشتغل بتعليمهم هناك الحركات العسكرية على النمط الأوربى وما يلزمها ويتبعها من ركوب الخيل والضرب بالسيف إلى غير ذلك وكان دائماً يلقى فى نفوسهم حب هذه المهنة الشريفة ويذكر لهم ما حدث لنابليون وكيف ارتقى إلى أن صار امبراطوراً على فرنسا واستولى على أغلب عواصم أوربا وكيف أن سائر القوّاد الذين ساعدوه على ذلك كانوا من أولاد الفقراء وتقدّموا بجدّهم واجتهادهم وحصلوا على هذه الرتب العالية، لينشطهم ويبث فى قلوبهم الحمية العسكرية والنخوة الحربية ليكونوا مثالاً للعساكر الذين سيكونون تحت إمرهم فى المستقبل.

ولقد أثر كلامه هذا فى بعضهم ولم يؤثر فى البعض الآخــر الــذين كــانوا يفضلون المعيشة ضمن الخدم على الأتعاب والتمرينات العسكرية غير ناظرين لما ينالون فى المستقبل فأبغضوه وتآمروا عليه وهموا بقتله تخلصاً منه ظانين أهم لــو قتلوه ربما يرجع محمد على باشا عن عزمه ويردهم إلى خدمته الخاصة فيقــضون عمرهم بين أسافل الخدم وأدنياهم لكن لحسن حظ المترجم أخبره أحــد محبيــه منهم بذلك فأسرّها فى نفسه إلى صباح الغد حتى إذا كــان معهــم فى ميــدان التمرين خاطبهم بما نمى إليه وقال لهم إن القتل غدراً وخيانة هو من أكبر الكبائر وأشنع الرذائل وأفظع القبائح الذى لا يقدم عليه أحد فى جيوش أوربا بــل إذا أهان أحد آخر استدعاه للمبارزة (الدويلو) جهاراً ويعرّض حياته فى الدفاع عن شرفه ثم ختم كلامه بأن قال إن كنت أهنت أحدكم أو أسأت إليه عــن غــير قصد فليبارزنى إما قتلته أو قتلنى فبهتوا جميعاً ولم يجسر أحد منهم على مبارزتــه من هيبته وشدة فراسته وتعجبوا من قوّة جنانه وثبات جأشه.

ولكن لم[1] يزدهم كلامه هذا إلا كراهة له وبغضاً فحنقوا عليه وعزموا على قتله متى سنحت الفرصة وبعد مضى عدة أيام بينما هو يمــرّهم علــى إطــلاق البنادق وضبط النيشان أراد أن يتحقق من نظامهم فركض جواده حتى وصــل أمام العسكر وبعد إجراء جميع الحركات اللازمة لتعمير البنادق أمر بإطلاقهــا على هدف كان قد أقامه ونصبه لهم وكان هذا الهدف مرتفعاً عنه ببعض أقــدام فبدلا عن إطلاق البنادق على الهدف صوّبوها نحوه وأطلق الجميــع بنــادقهم قاصدين قتله، لكن لطول أجله لم يصب بواحدة منها فغــضب لــذلك غــضباً شديداً وهجم عليهم بجواده ولم يهبهم بل طفق يضربهم بكرباج كان بيده علــى رؤسهم ووجوههم موبخاً لهم على عدم إتقان النيشان وبعد أن فرقهم فى كل جهة دون أن يجسر أحد على معارضته أمرهم بالإنتظام ووقف أمامهم راكباً جــواده وبعد أن انتظم عقد اجتماعهم نادى عليهم بإطلاق النار عليه فبهت الجند وبعد أن ترددوا رموا بنادقهم على الأرض وأسرعوا نحوه يقبلون رجليه فى الركــاب

[1] أضفنا كلمة (لم) ليستقيم المعنى (المحرر).

طالبين أن يعفو عنهم ويغفر ما كان منهم وأقسموا بأن لا يعودوا لمثل ذلك بل يطيعونه إطاعة محضة فتبسم وصفح عن ذنوبهم بشرط أن يمتثلوا له فى كل ما يأمرهم به مما لا يخالف الذمة والشرف وقال لهم أن المستقبل هو لكم وأنكم ستكونون رؤساء الجيش المصرى عن قريب فأثرت فيهم هذه الأفعال والأقوال تأثيراً حسناً ولم يقع بعد منهم ما يخل بالنظام العسكرى حتى صاروا فى غاية الطاعة لرئيسهم.

دخول سيف فى الديانة الإسلامية:

وبسبب هذه الحادثة اشتهر المترجم وذاع صيته، حتى صار لا يجهله أحد فى القطر المصرى عموماً وفى حاشية محمد على خصوصاً، وانتقل خبر ذلك إلى أوربا فنشرته الجرائد هناك وصارت بحيث لا يتكلم إلا بها فى الأندية والمجتمعات العمومية وكانت هى باكورة أعماله، ومن وقتئذ طلع نجم سعده فى أفق البلاد المصرية فى ظل حامى حماها ومعلى كلمتها المغفور له محمد على باشا لكن بقيت عقدة مانعة من وجود الإخلاص القلبى والولاء الصحيح بينه وبين عساكره، وهى اختلاف الدين، وهذا أمر لم يفتكر فيه المترجم لعدم تدينه بدين دون آخر فكان فى الحقيقة لا دين له إلا ما يسمونه بالدين الطبيعى وهو الإعتقاد بالخالق والإيمان به وبقدرته ونعيمه وعذابه ورفض أقوال الأنبياء جميعاً واتباع الذمة والشرف فى كل الأمور، وأهل هذا الرأى قوم يدّعون أن الأديان لم توجد أو أوجدها العقلاء إلا لتكون رادعة للإنسان عن وقوعه فى المحظورات وارتكابه المنكرات والإضرار بالناس وما دام للإنسان رادع ووازع من نفسه وذمة، فلا حاجة له باتباع أوامر هذا الدين أو اجتناب منهيات ذاك.

لكن المترجم منعاً لما عسى أن يكون باقياً فى قلب عسكره من الضغائن المسببة عن اختلاف الدين وموافقة لهم على أفكارهم وعوائدهم اعتنق الدين الإسلامى ودان له بواسطة أحد البيكوات المحبين له وتزيا بزى الترك الذى كان شائعاً وموجوداً وقتئذ فى البلاد المصرية، ومن يومئذ سمى بسليمان أغا،

وسنذكره من الآن بهذا الإسم تاركين الإسم الأفرنكى، وكان دخوله فى الدين الإسلامى ظاهرياً فقط بدليل حضوره الصلاة التى أقيمت على روح والدته حين سفره إلى ليون كما سيجىء، فلما أسلم ازدادت محبة عسكره له وإطاعتهم إيـــاه وأقبلوا حينئذ على تعليمه بإخلاص النية وصفاء الطوية وأكبوا علـــى تمريناتـــه العسكرية حتى حاكوا بعد قليل من الزمن أحسن الجيوش الأورباويـــة نظامـــاً وشجاعة وإقداماً.

٥- فتح السودان

وكان العزيز محمد على باشا فى أثناء هذه المدة يدبر حيلة لشنّ الغارة على بلاد النوبة وفتحها لإتصال أسباب التجارة بينها وبين مصر، ولجمع جيش من سكانها المشهورين بالشجاعة والإقدام، وكان له قصداً آخر فى إثارة هذه الحروب وهو استئصال شأفة من بقى من عساكره الأرنؤد وغيرهم من الأخلاط والتخلص من شرهم والتملص من كيدهم، فإنه كان لا يعوّل إلا على المصريين الذين ألقيت محبته فى قلوبهم لما رفعه عنهم ودفعه من جور المماليك وتعديهم عليهم وظلمهم المتراكم لهم ونشره لواء الأمن بين ظهرانيهم وسعيه آناء الليل وأطراف النهار فيما يعود عليهم بالنجاح والفلاح، ولقد كان لديه فرصة مناسبة لدخوله السودان بخيله ورجله وهي التجاء بعض المماليك بعد قتل أغلبهم فى القلعة إلى مديرية دنقلة خارجاً عن الحدود المصرية حتى اتخذوها حصناً حصيناً لهم، ولأجل أن يثير خاطرهم أرسل لهم أحد أعوانه ليدعوهم للرجوع إلى مصر والإقامة فيها بشروط أهمها أن لا يدخلوا الحدود المصرية إلا بعد الإذن لهم بذلك وإرسال أحد الضباط ليأتى بهم إلى العاصمة وأن لا يأخذوا شيئاً من المصريين أثناء مرورهم فى أرض مصر، كما كانت عليه عادتهم، بل يكون الضابط الذى يرافقهم هو الذى يقوم بجميع ما يلزم لهم من الميرة وغيرها، وأنهم إذا أتوا القاهرة يقيمون فى جهة مخصوصة، ومنها أيضاً أن يتنازلوا عما كان لهم من الإمتيازات والحقوق وأن لا يطلبوا ما أخذ منهم بحق أو بدونه بعد مذبحة القلعة من عقار أو أثاث وغير ذلك، فأبى المماليك تلك الشروط الصارمة كما كان يتوقعه محمد على باشا ولم يكتفوا بابائهم بل هددوه بالدخول إلى الحدود المصرية وإيقاد نار الوغى وإدارة رحاها.

فبمجرد وصول جوابهم إلى الوالى عزم على فتح النوبة لإذلالهم وقطع دابرهم وأمر بحشد الجيوش فى جهات مصر القديمة للزحف على السودان وجعل هذا الجيش تحت إمرة إسماعيل باشا ثالث أولاده، وكان إسماعيل باشا

المذكور متصفاً بالشجاعة بارعاً فى ضروب القتال لكن أنى له أن يماثل أو يشابه أخاه إبراهيم باشا الذى قهر العرب الوهابيين ودوّخهم، حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة مع كون العرب مشهورين بالبسالة وشدة البأس وهم الذين فتحوا معظم البلاد فى صدر الإسلام ولولا ما وقع بينهم من انفصام عرى الإتحاد وتفرق الكلمة لملكوا سائر الأقطار وتغلبوا على جميع ما فيها. أما السودانيون فهم قوم متوحشون لا علم لهم بفنون القتال عزل لا سلاح لهم إلا الرماح ولا علم لهم بقوّة نيران البنادق والمدافع إذ لم يسمعوا بها قبل ذلك الوقت ولا واقى لهم من مقذوفاتها إلا جلودهم أو الدرقة المصنوعة من جلد حصان البحر، فشتان بين هذه الأمم المتبربرة والعرب الذين كأنهم لم يخلقوا إلا للقتال ومع ذلك فقد تمكن إبراهيم باشا من قهرهم وكبح جماحهم.

وكان هذا الجيش الذى كان تحت قيادة إسماعيل باشا مؤلفاً من ثلاثة آلاف وأربعمائة راجل وألف وخمسمائة فارس واثنى عشر مدفعاً وخمسمائة من عرب العبابدة تحت رياسة شيخهم عابدين كاشف الذى وعده المرحوم محمد على باشا بأن يوليه على دنقلة بعد فتحها.

فلما اجتمع الجيش فى جهة مصر القديمة أرسلت العساكر المشاة وباقى الميرة والذخيرة إلى أسوان على طريق النيل وأما الخيالة والمدفعيون فسافروا إليها عن طريق البر وكانت المقدمة تحت قيادة محمد بيك الدفتردار صهر الوالى.

وأما إسماعيل باشا ومعيته فسافروا من القاهرة فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠، وبمجرد وصوله إلى أسوان اجتاز هو ومن معه الحدود المصرية ودخلوا أرض دنقلة وكان قد احتلها الدفتردار وجيوشه المؤلفة من خمسمائة فارس ولم يعارضهم أحد من المماليك فى حال سيرهم بل أخلوا البلاد ورحلوا إلى مدينة (شندى) فلم يقبلهم ملكها، ولما وجدوا أن بلاد السودان قد أغلقت فى وجوههم وأنهم لا يمكنهم الرجوع إليها لإقتفاء الدفتردار أثرهم أيسوا من الحياة وتفرقوا بين القبائل المتبربرة فمات أغلبهم جوعاً وصار السودانيون يسلبون

أسلحتهم وملابسهم حتى انقطعوا عن آخرهم غير مأسوف عليهم لما تركوه فى مصر من قبح السيرة وسوء السريرة ولما ارتكبوه فيها من السلب والنهب مما سبق ذكره.

وقد ظن النوبيون أن المصريين يرجعون إلى بلادهم بعد تشتت شمل المماليك، ولذلك لم يستعدوّا للقائهم ولا محاربتهم بل استمروا على اختلافاتهم الداخلية فانتهز المصريون هذه الفرصة لإحتلال بلاد دنقلة حتى دخلوا هذه المدينة وحينئذ شكل فيها إسماعيل باشا حكومة منتظمة باسم أمير المؤمنين، لا بإسم محمد على، لأنه لم يكن والياً إلا على مصر من قبل دار الخلافة العظمى.

ثم خرج بجيشه إلى مدينة (شندى) فاعترضه فى الطريق النوبيون الذين كانوا قد جمعوا شتات قواهم واتحدوا للدفاع عن وطنهم، ومع ذلك لم يجد دفاعهم شيئاً أمام القوّة المصرية لأنها منتظمة مسلحة بالأسلحة النارية والمدافع القهرية بل اضطرّوا إلى القهقرى بعد ما دافعوا عن وطنهم دفاع الأبطال ومات أغلبهم شهداء وطنهم العزيز، فاقتفى إسماعيل باشا أثر الباقين حتى فرقهم أيدى سبأ ولم يجد بعد هذه المقاومة العظمى معارضاً فى طريقه فتقدّم بخيله ورجاله، ومدافعه تتقدمه وألقى فى قلوب السودانيين ما ألقاه من الرعب حتى وصل إلى مدينة بربرة[1] فألقى فيها بعض قنابل ليتحقق من عدم وجود من يدافع عنها فدخلها وكان دخوله بموكب حافل فى ٨ خلت من شهر مارث سنة ١٨٢١. وفى ٨ مايو من هذه السنة دخل مدينة (شندى) وهى واقعة فى منتصف الطريق بين بربر والخرطوم على البر الشرقى للنيل وفيها استسلم إلى إسماعيل باشا من يدعى (شاويش) أحد أمراء بربر ودخل مع قومه فى عداد العساكر المصرية ليأمن بذلك على روحه وماله ولينتقم من باقى الأمراء الذين كانوا معادين له.

---

[1] مدينة واقعة على شرق النيل وتبعد مسيرة يوم عن مصب نهر (عتبرا) ومنها تسافر قوافل التجار إلى سواكن الواقعة على البحر الأحمر وإلى وادى حلفا الواقعة على حدود مصر.

وبعد ذلك تقدم فى داخلية السودان حتى وصل إلى ملتقى النـهرين الأزرق والأبيض وأسس هناك مدينة الخرطوم لما لهذا الموقع من الأهمية التجارية والحربية لسهولة الوصول منه بواسطة النيل إلى مصر ولإمكان إرسال الجيوش منه لفتح السودان الشرقى حتى الحبشة حيث يخرج نهر (عتبرا) والنهر الأزرق أو لفـتح السودان الجنوبى حتى خط الإستواء بركوب النهر الأبيض، وبعد أن حصّن هذه المدينة وجمع فيها المؤن والذخائر الكافية ترك فيها بعض عسكره لحمايتها وسافر ببقية جيشه لفتح بلاد (سنّار) الواقعة بين النهر الأزرق ونهر (عتـبرا) ففتحهـا وخلع أميرها واحتل تخته عنوة ثم أراد أن يستريح ويريح جيشه مما كابده مـن الأتعاب والأوصاب وتحمل المشاق فى هذه البلاد الحارّة لا سيما وكان قد فشا فى عسكره المرض وأهلك كثيراً منهم.

هذا ولم يجد إسماعيل باشا ما حمل والده على فتح السودان وهو تبر الـذهب وإنما وجد بعض رمال يمكن أن يستخرج منها ذهب لكن الذى يحصل منـها لا يفى بما ينفق لإستخراجه، ولما لم يجد مرغوبه استعاضـه بأسـر كـل الـشبان السودانيين القادرين على حمل السلاح وإرسالهم مصفدين بالسلاسل والأغلال إلى أسوان ليندرجوا فى سلك العساكر المنتظمة الذين كان يمرّنهم سليمان أغـا المتقدم ذكره، فزاد عدد الوارد منهم بعد من يمـوت منـهم فى الطريـق إمـا بالأمراض الناشئة عن تغير حالتهم وطبيعتهم من المآكـل والمـشرب أو لعـدم موافقة طقس البلاد لهم ازدياداً عظيماً حتى اضطرّ سـليمان أغـا إلى طلـب مساعدين له على القيام بواجبات وظيفته وكتب بذلك إلى محمد علـى باشـا فأجابه وعين معه ضابطين فرنساويين آخرين ومن يومئذ أخذ جـيش أسـوان المنتظم فى التقدّم يوماً عن يوم فى سبل الفلاح والنجاح.

ولم يقدر إسماعيل باشا مع علو همته وشدّة سطوته على منع الأمراض عنهم، بل هاجمته بقوّة عظيمة حتى أبادت أغلب عساكره، وكان هذا حاملاً له علـى العدول عن فتح بلاد كردفان وكان قد عزم على فتحها بعد أن أتم فتح (سنّار)

والتزم بالإقامة فيها حتى يأتيه من مصر ما طلبه من المدد والمؤن وكان جنده حينئذ فى غاية الضعف مادياً لقلتهم، وأدبياً لفتور عزيمتهم بإقامتهم بين قبائل معادين لهم ولا يمكنهم المدافعة عن أنفسهم لو ثاروا عليهم وهاجموهم قبل مجيء المدد إليهم.

سفر إبراهيم باشا إلى السودان:

وبقى إسماعيل باشا مشغول البال زائد البلبال لإزدياد الوفيات فى جيشه ولكون أغلب الباقين مرضى بالمستشفيات ولا يثمر فيهم علاج لتسلط اليأس عليهم. واستمر على هذه الحال حتى أتاه المدد وما طلبه من المؤن فسرّ بذلك ومما زاده سروراً قدوم أخيه إبراهيم باشا إلى سنّار لمساعدته على إتمام فتح السودان وتوطيد الأمن به مع أنه كان يودّ الإنفراد فى مثل هذه المهمة بدون مشاركة أحد له فيما يكتسبه من أنواع الفخر وعلو القدر. ولما انتشر فى الجيش خبر قدوم إبراهيم باشا وعسكره انبثت فيهم روح جديدة وشفى كل مريض بلا علاج لما استولى عليهم من الفرح والإنشراح وذهب عنهم اليأس والخمول وسرت فى عروقهم الرغبة فى القتال وما يتبعه من كسب الغنائم.

اغتنم إبراهيم باشا وأخوه هذه الحركة لتنفيذ مشروعهما وقسما الجيش إلى فرقتين بعد أن تركا حامية قوية فى مدينة (سنّار) إحداهما تحت قيادة إسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على البحر الأزرق إلى حدود الحبشة والأخرى تحت قيادة إبراهيم باشا لفتح بلاد كردفان ودارفور وبعد أن أتما ما يلزم لهما من الإستعدادات جمعا الذخيرة والمؤن وتوجه كل منهما لوجهته فقام كل منهما بما عهد إليه أحسن قيام ونشر علم التمدن فى هذه الأصقاع واستبق كل منهما لخيرات ما سيق إليه وقام بأداء ما يجب عليه، وانبثت الراحة فى هذه البلاد المتبربرة التى أرخى التوحش عليها سدوله وضرب الجهل بين أهلها أطنابه. فلما اعتراهما التعب من المشاق الشديدة أرسلا إلى والدهما يطلبان منه العودة إلى الأهل والوطن وكان ذلك فى شهر يوليو سنة ١٨٢٢ فلم يقع طلبهما هذا عند

والدهما موقع الإستحسان وأمرهم بالإقامة فى السودان حتى ينظما فيه حكومة ثابتة لا يخشى عليها من طوارق الزمان وبواعث الحدثان، وآثر المنفعة العمومية على المحبة الوالدية فبمثل هؤلاء الرجال تسهل المسالك وبضدّهم تزول الممالك، فلبثا بعد ذلك شهرين فى أقاصى هذه البلدان ثم سافر إبراهيم باشا إلى مصر توّاً مستصحباً معه بعض الجند.

وأما إسماعيل باشا فمكث بعد أخيه عدة أسابيع لترتيب أمور هذه المملكة الواسعة المفتتحة حديثاً وبعد ما دبر أمورها أرسل بعض الجند ومعهم أسرى الزنج إلى مصر على طريق البر واستعد للسفر من طريق البحر فبلغه فى أثناء ذلك أن أهالى دنقلة وبربر وما جاورهما أخذوا يتآمرون على معاكسة الحكومة المصرية لما انتشر بينهم من الأخبار الكاذبة والأراجيف الملفقة التى كان يبثها بينهم ذووا الأغراض الفاسدة مما يتعلق بانكسار المصريين فى (سنّار) وبلاد البحر الأبيض فشدّوا أزرهم وتكاثروا وتجمعوا حوالى بربر وشندى وهجموا على قوافل الأسرى التى أرسلها إسماعيل[1] باشا إلى معسكر أسوان قبل مبارحته السودان وهددوا من كان معهم من العساكر حتى تخلصت الأسرى من أيديهم ورجعوا إلى شندى فرحين مسرورين بما أوتوا من النصر والظفر على جيوش المصريين.

موت إسماعيل باشا:

لما وصل هذا الخبر المشئوم إلى إسماعيل باشا قام من ساعته ومعه باقى الجيش قاصداً مدينة شندى وكان ملكها رئيساً لهذه الثورة فوصلها فجأة ودخلها بدون أن يقاومه أحد أو يعارضه معارض حتى احتلها مع عسكره ثم أمر بإحضار ملك شندى أمامه، فلما مثل بين يديه أخذ يرميه بأنواع الشتم والسب حتى اشتد غيظه، وزاد بصفعه على وجهه فلم يقدر أن يفوه ببنت شفة، بل أسرّها له فى نفسه وعزم على الإنتقام منه، وأما إسماعيل باشا فعفا عنه بشرط أن يدفع غرامة

---

[1] الصواب إبراهيم باشا (المحرر).

قدرها خمسة آلاف بينتو يدفعها فى مدة خمسة أيام وألفان من الرقيق فامتثل لذلك ملك شندى وقبل هذه الغرامة ظاهراً مصمماً على الأخذ بالثأر.

ثم أولم لإسماعيل باشا ومن معه من كبار القوم وليمة فى قصره ودعاهم إليها فأجابوا دعوته وتوجهوا إلى منزله غير عالمين بما تكنّ لهم صدور أعدائهم من المكايد، فبينما هم على الطعام إذ أمر الملك أعوانه بأن يجمعوا حطباً كثيراً وقشاً وتبناً وغير ذلك من الموادّ الجافّة السريعة الإلتهاب، وأمرهم أن يضعوه حول البيت فلما فرغ الأضياف من تناول الطعام وتأهبوا للخروج والذهاب إلى معسكرهم، أضرم الأعداء النار فيما جمعوه حول المنزل من المواد الإلتهابية فلم يمض إلا هنيهة حتى اتقد المنزل وما فيه من الأثاث وصار كشعلة من نار ولم يتيسر لإسماعيل باشا ورفقائه الخروج لشدّة النار ولإحاطة جنود الملك بهم من كل جهة فسدّت فى وجوههم المسالك حتى ماتوا حرقى ولم يتيسر لعساكرهم أن يبسطوا لهم يد المساعدة ويخلصوهم من هذه الميتة الشنعاء لإنقضاض باقى جنود السودانيين عليهم وذبحهم إياهم، فلم ينج منهم إلا من تمكن من الهرب تحت جنح الظلام وأستار الليل.

فلما بلغ محمد على باشا نعىّ ولده تأثر جداً وحزن على فقده زمناً طويلاً لا سيما وكان قد توفى قبله ولده طوسون باشا ومع ذلك لم يلهه حزنه عن النظر فى أمور حكومته والسعى فى إتمام مشروعاته خصوصاً ما يتعلق بتنظيم الجيش مع ما صادفه فى طريقه من العقبات التى كادت أن تحول بينه وبين نجاح مشروعه لولا ثباته ومثابرته على العمل وعدم تأخره عند حدوث مانع أوطروء صعوبة بل كان يلقى الصعوبات بقلب ثابت لا تزعزعه العواصف ولا ترهبه القلاقل ولما جئ بجثة إسماعيل باشا محرقة إلى مصر احتفل بدفنها احتفالاً عظيماً ظهر به ميل المصريين للعائلة الحاكمة ومشاركتها لها فى فرحها وحزنها وسرائها وضرائها.

ولم يكن يشوب تلك المحبة الخالصة والألفة الصادقة إلا مسألة إدخال الشبان المصريين فى العسكرية وهو الأمر الذى نسيه المصريون من عهد سقوط دولة الفراعنة وإغارة الأجانب على مصر وحكمهم إياها حتى جهل المصريون فى هذه الأحقاب العديدة والقرون المديدة أن لهم وطناً يلزمهم الدفاع عنه والسعى فى كل ما يعود عليه بالسعادة والرفاهية لعلمهم أنهم ليسوا آمنين على أرواحهم وأولادهم وأموالهم وأعراضهم من ظلم من أتى إليهم وطرأ عليهم من الأجانب بين عجم ويونان ورومان ومسلمين على اختلاف عائلاتهم بين عباسيين وفاطميين وأيوبيين وترك وجركس ومماليك مختلفى المشارب والمذاهب متحدين على امتصاص دم المصرى واستنزاف ثروته واستخدامه واستعباده إلى غير ذلك مما يضيق عنه هذا الكتاب.

هذا وقد اتخذ العساكر الألبانيون (الأرنؤد) اشتغال محمد على باشا بموت ولده والإحتفال بشأنه، فرصة ووسيلة لتحريض الأهالى لا سيما المزارعين الذين هم أكثر المصريين عدداً إن لم يكونوا كلهم على مخالفة محمد على باشا حتى إن بعض البلاد امتنعت عن إدخال أولادهم فى العسكرية وأهانوا المأمورين المكلفين بجمعهم ولولا حكمة محمد على باشا لتفاقم الأمر وعظم الخطب ونال الألبانيون بغيتهم من تقويض أركان حكومته ودك دعائمها.

هذا ولما كان الجيش الجارى تنظيمه بأسوان بمعرفة سليمان أغا ورفقائه قد بلغ درجة عظيمة فى حسن النظام وصار بحيث يمكن الإعتماد عليه والإستناد إليه، أراد محمد على باشا أن يجعله ركناً لدولته فأرسل إلى سليمان أغا أن يحضر مع جيشه إلى الخانقاه (الخنكا) فحضر وكان جيشه مؤلفاً من خمس وعشرين ألفاً ما بين مصرى وسودانى وهو منقسم إلى ستة آلايات ضباطهم وصف ضباطهم من الأورباويين ومن مماليك محمد على باشا الذين كانوا أول من تدرب على التعليمات العسكرية.

ولما حضر الوالى مناوراقم فى ميدان الخانقاه وشاهدها ازداد بها سروراً وأنعم على سليمان أغا برتبة أميرالاى مع لقب بيك وجعله (أميرالاياً) للألاى السادس وأقطعه أرضاً واسعة وأموالاً كثيرة مكافأة له على إتمام هذا المشروع وإخراجه من حيز الفكر إلى حيز الفعل، ثم أمر بإلغاء الجيش غير المنتظم (باشبوزق) ورسم بأن من يريد الدخول فى الجيش الجديد من الألبانيين يقبل وإلا يطرد من الحكومة المصرية ويرجع إلى وطنه.

أما سليمان بيك فأخذ من يومئذ فى إصلاح أطيانه وأمواله وبنى له قصراً جليلاً على النيل فى مصر العتيقة وفرشه بالأثاث العربى وأحاطه بالبساتين والمروج حتى صار من أحسن أماكن مصر وأبهجها وأعلاها، وصار يؤمه كل من دخل مصر من الفرنساويين فيلاقون من ربّ البيت ما تقرّ به أعينهم ويسر به خاطرهم وينشرح به صدرهم من إكرام الوفادة ولطف اللقاء.

هذا ولما وصل خبر غدر ملك شندى بإسماعيل باشا إلى محمد بيك الدفتردار الذى كان إذ ذاك ببلاد دارفور قفل راجعاً إلى بلاد النوبة ليأخذ بثأره فأحرق القرى بعد قتل سكانها بين رجال ونساء وأطفال ولم يترك النوبة وشندى إلا بلقعاً لا يسكنه إلا بنات آوى والوحوش الضارية والطيور الكاسرة لأكل جثث القتلى التى أفسدت الهواء بما تصاعد منها من الروائح الكريهة ومع هذا كله لم يتمكن الدفتردار من قتل الملك ولا القبض عليه ولم يقف له على أثر بعد أن بذل جهده فى التفتيش والبحث عليه فى جميع أنحاء السودان.

* * *

٦ – حرب اليونان

ثم إن محمد على باشا لم يبق له شاغل بعد ترتيب الجيش المنتظم واستتباب الأمن فى ديار السودان بهمة صهره محمد بيك الدفتردار ونشر لواء العدل والمساواة فى داخلية الحكومة، إلا نشر التمدن وأسبابه بين الأهالى فأخذ فى فتح المدارس التى هى أساس التمدن والعمران فى كل الحكومات والممالك لتعليمها الشباب ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات نحو أنفسهم والعائلة والوطن وبث روح التعاضد والتساعد بين أفراد الأمة وحب الإتحاد والإرتباط اللازمين لنجاح أى مشروع كان، ثم وجه التفاته إلى إصلاح مجرى النيل وإقامة الجسور لمنع الغرق وشق الترع والجداول لمنع الشرق، وتأسيس الورش والمعامل لإيجاد الصناعة فى القطر والإستغناء بها عن المصنوعات الأجنبية وحصر ثروة البلاد فى أيدى أهلها الذين هم أولى بها من غيرهم من الأجانب الذين جل بغيتهم جمع الأموال وحوزها، والإثراء بأى طريق كان غير ناظرين إلا لمنفعتهم الخاصة ومنفعة بلادهم تاركين منفعة البلاد التى يظلهم سماؤها ويروى غليلهم ماؤها، لكن لا لوم عليهم فى ذلك ولا تثريب لكونهم أجنبيين عن البلاد.

وبينما هو مشتغل بهذه الإصلاحات آمن على داخلية حكومته لعدم وجود منغص من جيش الألبانيين، وخارجيتها لوجود الجيش المنتظم الذى يمكنه به أن يصدّ به كل مهاجم مع مساعدته بسفنه الحربية العديدة المسلحة بالمدافع على الطراز الذى كان مستعملاً فى ذلك الوقت، إذ ورد إليه خبر تعيينه والياً على ولايتى كريد وموره بشرط إرسال قوّة كافية لإخماد ثورة اليونان الثائرين للحصول على الإستقلال السياسى المستدعى لطرح سلطة الدولة العلية.

نستطرد هنا إلى الكلام على الثورة اليونانية بشرح وجيز قبل التكلم على حرب موره فنقول:

من عهد فتح العثمانين بلاد اليونان لم يحصل من اليونانيين ما يخل بالراحة بل أذعنوا لحكم الأتراك بعد مقاومة يسيرة وامتثلوا الأحكام بالقوة واستمر هذا السكون إلى سنة ١٨٢٠ حتى انتشرت فى أوربا مبادئ الثورة الفرنساوية المبنية على ثالوث الحرية والمساواة والإخاء على أثر حرب نابليون التى اشتد فيها بأسه ولم يمنعه تغلب الجيوش الأورباوية عليه وإرجاعهم فرنسا إلى حدودها التى كانت عليها قبل الثورة، من غرس مبادئ الثورة فى كل بلد دخلها أو مرَّ بها، فنبتت ونمت وامتدت فروعها إلى سائر أنحاء أوربا حتى وصلت إلى اليونان فنبهتهم للمطالبة بحقوقهم وعرّفتهم أن لهم حقاً فى المجتمع السياسى وبث فيهم الشوق إلى أن يكونوا إسوة بسويسرا مثلاً.

لكن لما علم أغنياء الأمة اليونانية أن السواد الأعظم من أبناء جنسهم قد طمس على أعينهم الجهل وأن أساس الحرية هو الإستنارة بنبراس العلم، إذ به يعلم الإنسان أن له حقوقاً يطالب بها كما أن عليه واجبات يطالبه بها الغير، أخذوا أولاً فى إرسال أولادهم إلى الممالك الأورباوية ليتحلوا بالعلوم والمعارف وليكونوا رؤساء الأمة ودعاة حريتها فى المستقبل ثم ألفوا عدة جمعيات لنشر العلم بها بين سائر طبقات الأمة من وجه، ولبث روح الوطنية بينهم من وجه آخر، وألفوا جمعيات أخرى سياسية وجعلوا مراكزها فى الروسيا أو فى النمسا وأهمّ هذه الجمعيات الجمعية السرية المسماة جمعية (هينيرى)[1] فإنها تألفت فى مدينة ويانا سنة ١٨١٥ وقد قيل إن الإسكندر الأول قيصر الروسيا كان هو المحرّض عليها تنفيذ الوصية بطرس الأكبر من الإستيلاء على القسطنطينية لكن حال دون نفاذها محافظة انكلترا خصوصاً وأوربا عموماً على التوازن السياسى بين قوى الدول.

[1] كلمة يونانية معناها جمعية أخوية اطلقت على جمعية أسسها اليونان فى مدينة ويانا تحت النيما قصدا لنشر المعارف بين اليونان ظاهرا وللسعى فى استخلاص الأمة اليونانية من حكومة العثمانيين باطنا وبقيت سرية حتى سنة ١٨٢١ وهى السبب فى حصول اليونان وتحصيلهم على الإستقلال وأشهر رؤسائها الموسيو (كابوديستريا) و(ابسلانتى) وسيأتى الكلام عليهما.

وكان كل من يدخل هذه الجمعية يقسم على أن يبذل روحه وماله فى سبيل الحصول على الإستقلال السياسى والمحافظة على السر فى كل ما يتعلق بهذا المشروع أو يضمن نجاحه، فكانت هذه الجمعية أشبه شئ بجمعية الكاربونارى التى انتشرت أثناء ذلك فى كافة الممالك اللاتينية، فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال، ثم تشعبت فروع هذه الجمعية فى أنحاء الدولة العلية التى بها يونانيون حتى بلغ أعضاؤها فى أوائل سنة ١٨٢١ نيفا وعشرين ألفا أقوياء على حمل السلاح ومستعدين للقيام عند أول إشارة تصدر من رؤسائهم. وكان من أسباب المساعدة على انتشارها اشتغال الدولة بمحاربة على باشا والى "يانينا" الذى ثار عليها طلباً فى الإستقلال والإستيلاء على الجزء الغربى من تركية أوربا، ولكنه لم ينجح فى مشروعه لمضايقة خورشيد باشا له وحصره إياه فى قصره الكائن بجزيرة فى وسط بحيرة بالقرب من يانينا ومع ذلك لم يستسلم من أوّل وهلة بل دافع مع من بقى من رجاله حتى أصيب بعدة جراحات وخر قتيلاً فأمر خورشيد باشا بحز رأسه وإرسالها إلى دار الخلافة وكان ذلك فى ٥ فبراير سنة ١٨٢٢.

ولقد انتهز اليونانيون اشتغال عساكر الدولة بمحاربة على باشا المذكور وأيقنوا أن هذه فرصة لهم فرفعوا راية العصيان وانتشر القتال بينهم وبين عساكر الدولة العلية فلم تشرع الدولة فى قمع عصيانهم إلا بعد قتل على باشا ثم أرسلت إليهم قوّة عظيمة تحت قيادة خورشيد باشا قاهر والى يانينا فكانت له عليهم الغلبة أوّلاً ثم انقلبت عليه الدائرة فانهزم فى واقعة (ترموبيل) فى شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ فلما تبدد جيشه آثر الموت على أن يعود إلى دار الخلافة مهزوماً بعد ما نال من الشهرة فانتحر مسموماً.

ومما زاد هذا الإنكسار أهمية حرق الدونانمة التركية فى جزيرة صاقس وذلك أنه بعد انتصار العسكر العثمانيين بحراً على مراكب اليونان الحربية واستيلائهم على جزائر صاقس وساموس، صادف ذلك حلول عيد الفطر فبينما العثمانيون

فى فرح وحبور غير ملتفتين إلى سفنهم انتهز اليونانيون هذه الفرصة وأحرقوا الدونانمة التركية عن آخرها ومات فيها ثلاثة آلاف بحرى وقبودان الدونانمة وكان ذلك فى ١٨ يونيه سنة ١٨٢٢ وبقى الحرب بعد ذلك بينهم سجالاً إلى سنة ١٨٢٤.

فلما رأى السلطان محمود الثانى ما حصل من الأهوال فى هذه الحروب التى قتل فيها أعظم قوّاده البرية والبحرية ونفدت فى سبيلها الخزينة السلطانية وخشى من أن اشتغال محمد على باشا بما كان يجريه من الإصلاحات الداخلية ربما يكون سبباً لحصوله على الإستقلال وتمكنه من مثل ما وقع من على باشا والى يانينا، أصدر فرماناً بتاريخ ٦ مارث سنة ١٨٢٤ مشعراً بتعيين محمد على باشا والى مصر والياً على كريد وموره وكلفه بإخضاع اليونان وإدخالهم تحت الراية العثمانية بعد مجازاتهم على ما ارتكبوه من كفران نعمة الدولة العلية التى لم تعارضهم منذ استيلائها على بلادهم فى شئ من ديانتهم ولا عوائدهم بل عاملتهم بالإحسان إليهم وأن ما حصل لهم من الأمور المغايرة لخواطرهم إنما هى من بعض الموظفين فكان الأجدر بهم أن يرفعوا شكايتهم إلى الباب الهمايونى بدلاً من رفعهم راية العصيان ونبذهم طاعة أولى الأمر وراء ظهرهم، اتباعاً لذوى المفاسد الذين يسعون دائماً فى إحداث القلاقل والأراجيف المزعجة فى داخلية المملكة العثمانية لغرض يقصدونه أو لسبب ينالونه لا لمنفعة تعود على من يغرونهم على المخالفة والعصيان.

فلما وصل لمحمد على باشا خبر تعيينه والياً على هاتين الولايتين حار فى أمره وصار يضرب أخماساً لأسداس ولم يدر ما يصنع ولا أىّ الأمرين يختار أيقبل ما عين إليه ويتكفل بعهدة هذه الحروب التى أعيت الدولة العلية مع جلالة قدرها وعظم شأنها وأدواتها الغريبة وقوّتها العجيبة أو يأبى التعيين فيغتنم أخصامه بذلك فرصة إقناع السلطان بأنه ينوى الإستقلال كوالى (يانينا).

فجمع أعضاء عائلته وكبار حكومته وتروّى معهم فى أحب الأمرين فقرّ رأيهم على قبول المأمورية والإستعداد إلى السفر قبل أن يتفاقم الأمر ويعظم الخطب فى بلاد اليونان ويتسع الخرق على الراقع، لكن حدثت فى هذا الوقت حادثة أوجبت تأخير سفر الإرسالية وهى أن أحد الحجاج المغربيين عند عودته من مكة نزل بالقصير وأخذ يحرّض الناس على عصيان محمد على باشا، لما أتاه من محاربة الوهابيين الذين لم يقوموا على زعمه إلا لنصرة الدين وأقنع سذّج العقول ممن اجتمع عليه بأن محمد على باشا خرج بذلك عن النصوص الشرعية وصار من الواجب على كل مسلم محاربته مجازاة له على محاربته الوهابيين وقهره إياهم، فتبعوه على ذلك ووافقوه وسار بهم قاصداً مدينة قنا وازداد عدد تابعيه ممن لقيه من العرب الذين انضموا إليه قصداً للنهب والسلب فوصل (قنا) بجيش عظيم أوقع الرهبة فى قلوب سكان تلك المدينة فتبعه أغلبهم وسار بهم إلى مدينة (اسنا) وصادف وصولهم إلى المدينة وجود بعض من العساكر المصريين مسافرين إلى السودان، فأراد حاكم البلدة أن يفرّق بهم جموع العصاة فقاتلوهم قليلاً ثم انضموا إليهم تخلصاً من السفر إلى السودان حيث كانوا مكرهين عليه.

فلما بلغ محمد على باشا هذه الأخبار المشوّشة للأفكار وكان إذ ذاك مشتغلاً بتجهيز جيشه للسفر إلى بلاد اليونان اضطرّ أن يرسل إلى جهة الصعيد الألاى السادس تحت قيادة سليمان بيك فتوجه إليهم وحاربهم هو ومن معه من العساكر الأبطال وهجموا عليهم حتى شتتوهم فى أنحاء الجهات ثم اقتفوا أثرهم حتى أوصلوهم إلى الصحراء فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولقد برهن سليمان بيك فى هذه الواقعة على كفاءته واستعداده وأن العسكرىّ المنتظم يمكنه أن يقاوم عدداً عظيماً من غير المنتظمين وهذا هو الأمر الذى زاد محمد على باشا تمسكاً بالنظام الجديد.

وبعد استتباب الأمن فى جهات الصعيد اهتمّ بالتجهيزات العسكرية وجمع سبعة عشر ألفاً من العساكر المشاة وهم الألاى الثالث والرابع والخامس

والسادس وأربع بلوكات من البلطجية وسبعمائة فارس تحت إمرة من يدعى حسن بيك وعدّة من مدافع القلاع والمدافع الخفيفة، وكان هذا الجيش تحت قيادة إبراهيم باشا فأقلع من مينا الإسكندرية هو وعسكره فى ١٠ يوليو سنة ١٨٢٤ ومعه ستون سفينة حربية غير السفن الحاملة للعساكر وخيلها ومهماتها قاصداً جزيرة (رودس) ليجتمع هناك مع دونانمة الدولة العلية فوصلت الدونانمة المصرية إلى جزيرة (رودس) قبل وصول الدونانمة العثمانية والسبب فى هذا التأخير أنه حال سير الدونانمة العثمانية قابلها الأميرال اليونانى ومعه خمسون سفينة حربية صغيرة وبعض حرّاقات أحرق بها سفينتان عثمانيتان أحداهما بها ٣٢ مدفعاً والآخرى ٥٤ مدفعاً وأخذ عشرون زورقاً من زوارق الحمل بما فيها من المؤن والذخائر، ولما لم يتيسر للأميرال العثمانى مقاومته أقلع بمراكبه من وجه العدوّ والتجأ إلى أحدى مدن آسيا الصغرى ثم أرسل أوامره إلى الدونانمة المصرية بالحضور إلى هذه الجهة لمساعدته على اليونانيين فلم يسع إبراهيم باشا إلا تلبية طلبه وكان اجتماع الدونانمتين فى يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٨٢٤ وبعد قدوم المدرعات المصرية اطمأن جأش الجيوش العثمانية وهدأ روعهم وقد بهرهم العجب والاندهاش مما وجدوا عليه الدونانمة المصرية من الإستعداد والنظام الذى لم يروا مثله عندهم وشهدوا لمنشئها بعلوّ الهمة وحسن التدبير ومزيد السياسة وطول الباع وسعة الإطلاع.

هذا وبإجتماع الدونانمتين المصرية والعثمانية تألفت منهما قوّة عظيمة بحرية لم يسبق وجودها فى بحر اليونان أثناء هذه الحروب لكن لم توقع هذه القوى المجتمعة الرعب فى قلوب البحرية اليونانيين لتدربهم على الحروب البحرية ومعرفتهم بمسالك البحار ومفاوزها، بل جمع أميرال العدّو سفنه الصغيرة السريعة السير وأتى بها فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٢٤ لمهاجمة الدونانمات المتحدة، وكانت تتقدمه الحرّاقات فلما قربت سخر منها المصريون لصغرها ولم يدر بخلدهم أنها تحمل النار فى جوانبها وتحرق كل ما تلمسه من السفن، كبيرة كانت أو صغيرة، أما العثمانيون فلمكابدتهم غير مرة نيران هذه الحرّاقات وما تجلبه من

الضرر لجأوا إلى الفرار وولوا الأدبار فتبعهم العدو بحراقاته حتى لحقهم وتمكن من اضرام النار فى السفينة الحاملة قبطان باشا وفى خمسة مراكب أخرى فعجز العثمانيون عن إطفاء النار وقصروا فى إطفائها وإخماد سعيرها فتركوا سفنهم تستعر ناراً ونزلوا فى الزوارق قاصدين فرض الأناضول ليتخلصوا من كيد هذا العدوّ الذى لم يقدروا على مقاومته لشجاعة اليونانيين وتعريضهم أنفسهم للتهلكة لإحراق سفنهم ولو أفضى ذلك لإحراق السفينة ومن فيها ولا يخفى ما فى ذلك من الخطر لأن قابوذان الحرّاقة ملتزم بأن يكون بحذاء سفينة العدوّ ويربط فيها سفينته بخطاطيف من الحديد بعد وضع النار فى البارود الموجود بها والمعلق على جوانبها ثم يترل هو ومن معه إلى زورق صغير ويلجأ إلى الفرار حين يكون عسكر العدوّ مشتغلين بإطفاء النار والهرب فراراً من الموت حرقاً.

هذا ما كان من أمر الدونانمة العثمانية وأما إبراهيم باشا فإنه ولو فقد مساعدة العثمانيين له فلم يخطر بباله الهرب من أمام العدوّ قط، بل قابل سفنه بنيران المدافع المحكمة الطلقات حتى أمكنه أن يتخلص من شرهم ثم أقلع قاصداً بلاد (موره)، ولكن لسوء حظه لم يتيسر له إنزال عساكره إلى البر لمعاكسة العدوّ له لاسيما وقد أحرق العدوّ بالقرب من جزيرة (كريد) أحدى سفنه وأخذ منه خمس سفن جسيمة فيها ألفا عسكرى برى ولما لم يتمكن من إنزال عساكره رجع إلى جزيرة (رودس) وبعد أن استراح وأراح عساكره أقلع منها قاصداً جزيرة (كريد) وترك سليمان بيك مع فرقته لحماية (رودس).

وفى هذه الأثناء وقع الخلاف بين رؤساء دونانمة العدوّ وهياج عساكره البحرية لعدم صرف مرتباهم وأبوا استمرار القتال ورجعوا إلى اليونان لإجراء ما فيه الحصول على متأخر ماهياهم، فبمجرّد وصول الخبر إلى إبراهيم باشا بذلك أرسل توّا إلى سليمان بيك يستقدمه إليه من رودس فوصل إليه ثم أقلع من (خانيا) مينا جزيرة (كريد) وجدّ فى السير واجتهد حتى وصل إلى مينا (مودون) وأنزل عساكره إلى البر قبل أن يشعر بقدومه أحد وكان ذلك فى ٢٦

فبراير سنة ١٨٢٥. ولما وصل إبراهيم باشا إلى بلاد (موره) رأى العثمانيين فى أسوا حال من الضنك والضيق لتغلب اليونانيين عليهم فى كل المواقع البرية والبحرية ولم يكن ذلك بقوّة اليونان فلو لم يوجد أمام العثمانيين إلا هم لأهلكوهم عن آخرهم وألزموا من بقى منهم بعد الحرب بالدخول تحت جناحهم وسلطتهم، كما كانوا قبل ذلك وما ساعدهم على مقاومة العثمانيين والإستظهار عليهم فى عدة مواقع مهمة إلا اسعاف الأوروباويين لهم بالمال والرجال وإن كان هذا عن غير رضا دولهم ظاهراً، فتألف فى جميع إرجاء أوربا جمعيات كثيرة دعيت بجمعيات محبى اليونان وأرسلت إليهم كثيراً من المؤن والذخائر بل وتطوّع كثير من مشاهير أوربا وقوّادها مثل (وشنطون) نجل محرر أمريكا الشهير واللورد بيرون[1] الشاعر الإنكليزى وغيرهما من فحول الرجال للدفاع عنها، ووهبوا أنفسهم لخدمة الحرية فى أى مكان سعى أهله فى الحصول عليها ومما زاد فى استمالة الشبان الأوروباويين إلى الدخول فى سلك العسكرية اليونانية ما أذاعه وأشاعه فى ربوعها من المكاتبات والقصائد الحماسية المحببة فى ذلك كل من (فكتورهوجو) و(كازيمير ديلافين).

وبعد ظهور اليونانيين على العثمانيين وقع الخلاف والشقاق بين رؤس الثورة لحب كل منهم الإستقلال برأيه، ولكن منعهم نزول إبراهيم باشا وجيشه ببلادهم لأنه لما نزل اتحدوا على مقاومته والدفاع عن وطنهم.

هذا ولما وصل الباشا المذكور إلى بلاد اليونان لم يكن مع العثمانيين إلا ميناء (مودون) التى نزل بها وميناء (كورون).

[1] ولد (بيرون) سنة ١٧٨٨ وتعلم فى كلية (كامبردج) ونبغ فى الشعر من صغره لكنه اشتهر بقبح السيرة وتزوج سنة ١٨١٥ وفارق زوجته بعد سنة فثار عليه الرأى العام فنزح من انكلترا وساح فى بلاد البلجيك وسويسرا وإيطاليا واشترك فى جمعيات إيطاليا السرية التى تشكلت لجمع الوحدة الإيطالية ولما لم ينجح فى مسعاه سافر إلى بلاد اليونان ووقف حياته على استخلاصها من حكومة الأتراك وشهد أشهر مواقعها وتوفى سنة ١٨٢٢ فى وقعة ميسولنجى.

حصار ناوارين:

لم يلبث إبراهيم باشا بعد نزوله (مودون) أن رتب عساكره وأصدر الأوامر اللازمة وخرج مع نخبة جيشه وألاى سليمان بيك فى اليوم الثانى من مارث سنة ١٨٢٥ وقصد مينا (كورون) برّاً ليخلصها من محاصرة اليونانيين لها فتمكن بإنتظام عسكره من الإنتصار على العدوّ وإدخال المدد والمؤن والرجال إلى البلد المحصورة ثم أرسل فى ٢٣ مارث الألاى الثالث والرابع لمحاصرة مدينة (ناوارين) فحاصرها المصريون وضايقوها بالحصار رغم أنف اليونانيين الذين قاوموهم مقاومة عظيمة الأهوال، وعند ذلك قام إبراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) قاصداً (ناوارين) لتعزيز الجيش المحاصر فهاجمه فى طريقة فرقة من اليونان يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل كانت آتية لمساعدة (ناوارين)، فهزمها الباشا وأسر قائدها وشتت جمعها أدراج الرياح وبالجملة فقد قاومت حامية المدينة وهجمت غير مرة على الجيش المحاصر ولولا انتظام المصريين لنال اليونانيون مرامهم بالغلبة، لكن إبراهيم باشا بما عهد فيه من ثباته الذى لا تزعزعه هجمات الأعداء ولا تروعه شجاعتهم وقوّة جأشهم ذلل هذه الصعوبات وشدد الحصار على المدينة براً وبحراً وكادت حاميتها تستسلم لولا مساعدة حظها لها بقدوم تسعة آلاف من شبان اليونان قصد تخليصها من محاصرة المصريين وقهرهم وإرجاعهم من حيث أتوا.

وقبل وصول هذا الجيش بعشرة أميال سمعهم إبراهيم باشا يتغنون بنشيدهم الوطنى فلم يعبأ بهم بل ترك جزأ من جيشه لإستمرار الحصار وتركيب المدافع القوية حول المدينة وقابلهم بعسكره على مقربة من البلد فهجموا عليه بقوّة وشجاعة لكن بدون انتظام وأما هو فأمر عساكره بالثبات مكانهم بدون إطلاق النيران حتى إذا قرب العدوّ منهم أطلقوا بنادقهم دفعة واحدة ليلقوا فى قلوبهم الرعب وهجموا عليه بالسلاح الأبيض على هيئة صفوف منتظمة فلما صار العدوّ على بعد نحو مائة متر قابله المصريون بالنيران الصائبة كالشهب المنقضة وهجموا عليهم هجوم الأبطال فلم يمض إلا قليل زمن حتى قتل أغلب عساكر

العدوّ وفر الباقون منتشرين فى أنحاء اليونان، ومن وقتئذ أفل نجم سعدهم وغربت شمس استقلالهم بعد إشراقها وأيقنوا أنه لو لم تمدّ لهم أوربا يد المساعدة وتنصرهم بعساكرها هلكوا عن آخرهم إن لم يقبلوا العودة إلى ما كانوا عليه قبل ذلك ولقد ربح المصريون من هذه الواقعة غنائم كثيرة وأخذوا عدة من الأسرى، وكان فيهم كثير من الضباط والقوّاد الذين كان عليهم المعوّل فى الشدائد المهمات بل وسائر الملمات.

ولقد شهد الأعداء للمصريين بالإنتظام والثبات لما شاهدوه أمام نيرانهم ومما يزيد المصريين فخراً أنهم لم يرتكبوا الفظائع فى هذه الحروب وكانوا يحسنون المعاملة للأسرى ولا يقتلون من سلم نفسه إليهم وألقى سلاحه بين أيديهم، وكانت أطباء الجيش المصرى تضمد جراح الأسرى وتعولهم كما تعول جرحاهم إتباعاً لأوامر إبراهيم باشا التى أصدرها إلى جيوشه واستمال بصنعه هذا قلوب اليونانيين إليه ولولا ما حصل بين العثمانيين واليونانيين من جهة وتحريض ذوى الغايات من جهة أخرى لفاز إبراهيم باشا بمأموله ونشر لواء الأمن فى أنحاء اليونان، ولكن آلى محبو الفساد على أنفسهم إلا استمرار القتال بين الفريقين لنيل مآربهم غير ناظرين إلى ما يترتب عليه من سفك دماء البرآء وترميل النساء وتيتيم الأطفال.

وكانت هذه الوقعة فاتحة انتصار المصريين وبها أمكنهم تتميم الحصار برّاً على مدينة (ناوارين) لكن لما كانت تلك المدينة واقعة على البحر وكان يأتيها المدد والمؤن كلما نضبت علم إبراهيم باشا أنه لا يتيسر له إذلالها إلا إذا احتل جزيرة صغيرة واقعة فى مدخل الميناء ليتمكن بواسطة ما يضعه فيها من المدافع من قفل مدخل المينا ومنع المدد عن الوصول إليها أما هذه الجزيرة فكانت ذات أهمية عظيمة عند اليونان وكانت تحميها نيران قلاع البلد فلذلك كان دخولها من أصعب الأمور الشاقة، إن لم يكن مستحيلاً ومع ذلك فقد صمم إبراهيم باشا على احتلالها بعد أن أجمع هو وأركان حربه وفى مقدمتهم سليمان بيك على أن

الإستيلاء على مدينة (ناوارين) مستحيل ما دامت هذه الجزيرة فى يد الأعداء فندب إبراهيم باشا سليمان بيك لهذه الخطة المهمة المحفوفة بالأخطار وكلفه بأخذ الإستعدادات اللازمة للإستيلاء على هذه الجزيرة وأطلق له الحرية الكاملة فى العمل وكان ذلك فى أوائل شهر مايو سنة ١٨٢٥.

فانتخب من العساكر كل من اشتهر بالشجاعة والإقدام وفاز على أقرانه بمزايا التعليم التام وحسن الانتظام ثم سافر من (مودون) بحراً قاصداً (ناوارين) فلما رأى العدوّ هذه القوة قادمة عليه حصل له من الرعب ما حصل واستعد للدفاع وحصّن الجزيرة وعزّز حاميتها بنخبة الشبّان وكان من ضمن المدافعين عن هذه الجزيرة الكونت (سانتاروزا) أحد بلغاء الطليانيين الذى وقف نفسه وحياته لمساعدة اليونان على الإستقلال ابتغاء مرضاة الحرية والأميرال اليونانى (تسومادوس) الذى نزل إلى البر مع مائتين من عسكره لتعزيز حامية الجزيرة وتقويتها.

وبمجرد وصول السفن المصرية على مقربة من قلاع العدوّ، ابتدر بإطلاق المدافع عليها من سائر القلاع لكن لم تزعزع هذه النار القوية قلوب المصريين ولم تثنهم عن عزمهم بل جاوبت مدافعهم مدافع العدوّ ونزلت العساكر البرية فى الزوارق تحت نيرانه.

فلما كان ظهر ذلك اليوم تمكن سليمان بيك ومن معه من النزول إلى البر وبعد تبادل إطلاق البنادق قليلاً من الطرفين، هجم المصريون وفى مقدمتهم سليمان بيك على استحكامات العدوّ هجوم الأسود ودخلوها عنوة واستمر القتال إذ ذاك بالسلاح الأبيض ودافع اليونانيون دفاع الأبطال لكن لم تفدهم شجاعتهم شيئاً، بل تغلب المصريون عليهم بحسن انتظامهم وبديع صنعهم وبعد قليل كانت لهم الغلبة ورفعوا العلم المصرى على هذه الإستحكامات التى كان يظن العارفون أن أخذها بعيد جداً لحصانة الموقع من أصله ولزيادة حفظه

بالقلاع المسلحة بالمدافع الضخمة من جهة، ولقرب نيران قلاع البلد إليه من جهة أخرى، فكان المهاجم له تحت نيران قلاع الجزيرة وقلاع البر المتبادلة.

وبعد هذه الواقعة اشتهر صيت المصريين فى جميع أنحاء اليونان وانتقل بسرعة عظيمة إلى بلاد أوربا فاضطربت لذلك جمعيات محبى اليونان وأيقنوا أن كل ما بذلوه من مال ورجال قد ذهب سدى أمام صفوف العساكر المصرية، وأنهم إن لم يستميلوا لهم الرأى العام الأوربى وتجتمع الدول الأورباوية على مساعدة اليونان مساعدة مادية لا أدبية فقط أفل نجم اليونان ووقعوا تحت سلطة المسلمين كما كانوا مدّعين أنه لا يليق بل لا يجوز أن تكون أمة مسيحية تحت وطأة المسلمين. ولعمرى أن ذلك لمناف لمبادئ التمدن والحرية التى من دعائمها عدم النظر إلى دين زيد أو اعتقاد عمرو بل النظر إلى أعمال كل منهما بقطع النظر عن المعتقد فكم شاهدنا فى التواريخ القديمة والحديثة أن المسلمين أحسنوا معاملة رعاياهم من المسيحيين وغيرهم وقد رأينا أن الحروب قد استمرت أجيالاً بين الكاثوليك والبروتستانت ولم تزل قائمة فى الروسيا بين الأرثوذكس ومن عداهم من الطوائف المسيحية وغيرها. ومع كل فليس الغرض من هذا الكتاب الخوض فى هذا الموضوع الذى لو أردنا فتح بابه لملأنا مجلدات ضخمة فالتاريخ مشحون بما ارتكبه مسيحيو أسبانيا (الأندلس) ضدّ المسلمين فى عصر الملكة (ازابلا).

هذا ولقد قتل فى هذه الواقعة كثير من الفريقين وكان من قتلى اليونان الأميرال (تسومادوس) الذى آثر الموت على النجاة هرباً كى لا يرى وقوع بلاده فى يد المصريين والكونت (سانتاروزا) الايطالى وغيرهما من أبطال اليونان والتجأ إثنان منهم وهما (استارفوس) و(ساهنيس) مع كثير من العساكر إلى كنيسة هناك وجمعا فيها كمية عظيمة من البارود ثم أحرقاه فسقط البناء عليهم وهلكوا عن آخرهم وجرح من الجيش المصرى أمير الاى المشاة السادس وهو سليمان بيك ولزم الفراش مكرها ولم يمكنه بذلك استمرار القتال.

وكانت نتيجة هذه الواقعة الشهيرة حصر مدينة (ناوارين) براً وبحراً وأما سفن العدوّ التى كانت فى المينا فإنها تمكنت من الهرب إلا اثنتين وقعتا فى يد المصريين مع من فيهما من جرحى العدوّ وأما اليونانيون فلم يزالوا على قوتهم فى القتال براً وبحراً وتمكن (ميوليس) القائد البحرى فى يوم ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ مع حراقاته (سفن صغيرة) من الدنو من ميناء (مودون) وأشعل النار فى السفن الراسية خارج المينا وفرّ هارباً فامتدت النار إلى باقى الدونانمة ولشدّة الهواء استحكمت حتى تعسر اطفاؤها ولم ينج من كان فيها إلا بجهد عظيم وعناء شديد ومما زاد فى الطين بلة أن الهواء حمل الشرر إلى داخل المدينة حتى أحرق جزءاً منها والتهبت مخازن البارود (الجبخانة) فأدى ذلك إلى هدم كل ما جاورها من المساكن وهلك من فيها.

ومع كل فإن هذه الحادثة الهائلة لم تؤثر شيئاً فى عزيمة إبراهيم باشا شجاع مصر وفخرها بل كان مشدّداً للحصار على مدينة (ناوارين) وصدّ هجمات العدوّ، وهزم كل من جاء لمساعدتهم سواء كان على طريق البر أو البحر وفى أحدى المناوشات العديدة أسر مطران (مودون) الذى كان يحض الأهالى على مقاومته ومحاربته وأسر غيره من دعاة الثورة، لكنه أحسن معاملتهم وأكرم وفادهم، ولما أيقنت حامية البلد أن لا مناص لها من الموت أو التسليم لعسر مجئ المدد لهم من الخارج بل لعدم إمكانه بالكلية لتشديد الحصار وتيقظ المصريين دائماً، طلبت من إبراهيم باشا أن تسلم إليه المدينة مع قلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة بشرط أن يضمن لهم حياقم فأذعن لمطالبهم وانقاد لمرغوبهم ودخل المدينة فى السادس عشر من شهر مايو سنة ١٨٢٥ وقد كان لهذه الوقعة تأثير مهم فى قلوب اليونان، إذ أيقنوا بالفشل والخيبة لكنهم آلوا على أنفسهم أن يدافعوا فى سبيل الحصول على الحرية والإستقلال السياسى ولو يموتون عن آخرهم فداء الوطن وشهداء الحرية.

فتح مدينة كلاماتا:

وبعد سقوط (ناوارين) جمع (بيتروبك) خمسة آلاف مقاتل من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة والبأس وتحصن فى مدينة تدعى (كلاماتا) وسوّرها بأسوار منيعة وحصنها بالتحصينات المحكمة فذهب إبراهيم باشا لمحاربته واحتل فى مسيره مدينة (أركاديا) المشهورة بخصب أرضها واعتدال هوائها وسائر البلاد الواقعة على البحر واحتل أيضاً كل الطرق المارة بين الجبال لتوصيل الأودية بعضها ببعض وقبل أن يصل إلى (كلاماتا) لحقه سليمان بيك وكان قد تماثلت جروحه ولم ينتظر تمام شفائه بل خرج من الإسبتالية وقصد الجيش ليشهد وقعة (كلاماتا) فوصل الجيش إلى هذه البلدة ودخلها بعد قتال شديد دافع فيه اليونانيون دفاع الأبطال، لكنهم لم يقووا على الثبات أمام هجمات المصريين بل ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار بعد أن خضبوا الأرض بدمائهم وأفعموا الأدوية بجثثهم التى ذهبت فريسة للوحوش والطيور.

وبعد ذلك دخل إبراهيم باشا جميع القلاع الصغيرة والبلدان والقرى المحصّنة وهدم أغلبها وقتل أو أسر حامياتها فلم يقم لليونانيين بعد هذه الوقائع قائمة ولم يجسروا على مواجهة المصريين فى الحروب المنتظمة بل التجؤا إلى جبالهم وعمدوا إلى حرب التمادى معتمدين على شموخ جبالهم وعدم تمكن الجيوش المنتظمة من صعودها والوصول إليهم.

فتح تريبولتسا:

ولما لم يجد إبراهيم باشا ما يعوقه عن السير إلى الأمام شرع فى اجتياز جبل (تايجيت) الفاصل بينه وبينه وادى (لكونيا) الذى به مدينة (تريبولتسا) مقرّ الحكومة الثوروية لعلمه أنه لو دخلت هذه المدينة فى قبضته كان ذلك من أكبر دواعى تقويض أركان الثورة اليونانية ولم يبق بعد ذلك ملجأ للثائرين إلا الجبال.

ولأجل تتميم هذا المشروع المهم واجتياز مضايق هذه الجبال الوعرة السلوك الصعبة الصعود قسم إبراهيم باشا الجيش إلى طابورين جعل أحدهما تحت قيادة نفسه ووجّه أوّلهما على طريق (أركاديا) والثانى على طريق (ليوناردى) فصادف طابور إبراهيم باشا فى مسيره عند مضيق (كورشيكورا) الثائرين الشهيرين (كولوكتروني) و (بتراكو) ومعهما عدد عظيم من سكان هذه الجهات قصد اعتراضه فى طريقة وإرجاعه القهقرى فقهرهم وقتل منهم نيفا وخمسمائة مقاتل ورئيسهم (بتراكو) ثم دخل مع جيشه مدينة (تريبولتسا) فى ٢٣ يونيو سنة ١٨٢٥ فوجدها خالية من السكان إذ أخلاها ساكنوها وحاميتها وأضرموا النار فيها قبل خروجهم وآووا إلى الجبال لعلها تعصمهم من نيران المصريين، حيث لا عاصم اليوم لهم منها إلا الطاعة والإذعان والرجوع عن مخالفة الدولة العلية التى لولا سعاية أولى الأغراض والفساد لما أمكنهم الخروج عن طاعتها.

وبعد أن حصن البلد داخلاً وخارجاً ووضع فيها حامية كافية لصدّ هجمات الأعداء ليكون آمناً عليها من غوائل الزمان وطوارق الحدثان خرج منها ببعض جيشه فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٢٥ قاصداً وادى (ارجوس) فهزم طليعة من الأعداء يبلغ عددها ثلاثمائة مقاتل تحت أمرة (ابسيلانتى) وبعد ذلك أمر بحصد الغلال المزدرعة فى هذا الوادى الخصيب ونقل سائر المحصولات إلى (تريبولتسا) ثم فى يوم ٧ يوليو سنة ١٨٢٥ وصل إلى وادى (لاكونيا) وكان معه سليمان بيك وألايه ونفر قليل من السوارى فاعترضه فى طريقه فرقة من الأعداء يبلغ عددها ثمانية آلاف متحصنين فى بعض المعاقل فرتب إبراهيم باشا عسكره على هيئة قول (طابور) وهجم على حصون الأعداء بالسلاح الأبيض فهزمهم وأخرجهم من استحكاماهم وكانت نتيجة هذه الواقعة أن صار كل إقليم (موره) فى قبضة إبراهيم باشا إلا مدينة (نوبلى) وبينما هو يستعدّ لحصارها إذ ورد إليه خطاب من رشيد باشا قائد الجيوش العثمانية الذى كان إذ ذاك محاصراً مدينة (ميسولونجى) منذ عدّة أسابيع بلا فائدة ولا عائدة لوقوع هذه البلدة على خليج (لبيانته) ودوام ورود المدد لها بحراً وعدم تمكن الدوننمة العثمانية من

حصرها لوجود (ميوليس) القائد اليونانى البحرى وحراقاته التى كثيراً ما سببت خسائر فادحة لسفن الدولة يطلب منه المساعدة على فتح هذه البلدة التى أعياه أمرها فأرسل لوالده بمصر يخبره بهذا الأمر ويطلب منه إرسال المدد فأرسل له الألاى السابع والثامن من الجيش المنتظم وبعض فرق من الأرنؤد من حامية كريد.

فتح مدينة ميسولونجى:

وفى أثناء هذه المدّة ورد إلى إبراهيم باشا أمر بمساعدة رشيد باشا وفرمان مؤذن بتعيينه وزيراً لولاية (موره) فقام من ساعته مع عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان ولم يترك فى (موره) وموانئها إلا ما يكفى لحمايتها ثم سافر بحراً قاصداً مدينة (ميسولونجى) فلما وصل إليها هاجمها متبعاً مشورة رشيد باشا، فلم ينجح ورجع منهزماً فاتبع بعد ذلك فى حصار هذه البلدة الخطة التى سلكها فى حصار (ناوارين) بأن شدّد الحصار عليها براً واستولى على الجزائر الواقعة فى فم المينا وبنى فيها قلاعاً حصينة، فأغلق بذلك المينا وأتمّ الحصار براً وبحراً حتى لم يعد من الممكن وصول المدد إليها بأى صفة كانت، ثم أرسل إلى حامية المدينة يطلب منها أن تستسلم بدون حرب ولا قتال لتحققه أن امتناعهم لا يجديهم نفعاً، فلم يقبلوا ذلك منه وصمموا على عدم التسليم ولو ماتوا عن آخرهم.

ثم أرسل أهل المدينة إلى القائد (كرايسكا كى) وكان على مقربة من المدينة يعلمونه بأنهم عزموا على الخروج فى ليلة ٢٢ إبريل سنة ١٨٢٦ بجميع سكان البلد من رجال ونساء وأطفال وطلبوا منه أن يهاجم المصريين فى وقت معلوم ولكن لسوء حظهم لم يقو (كرايسكا كى) على مهاجمتهم لما كان به من المرض الشديد، ولم يشعرهم بذلك فظنوا أنه قد أجاب طلبهم وخرجوا فى الوقت المعلوم من اليوم المعهود وهم فى غاية السكون مستترين تحت جناح الليل، فلما أحس بهم إبراهيم باشا وعسكره قابلهم بنيران البنادق وأوقع بينهم الفشل

فرجعوا إلى المدينة بدون انتظام واتبع المصريون أثرهم حتى دخلوا المدينة وأعملوا فى أهلها السيوف والبنادق وأبلوا فى قتالهم بلاء حسناً. ولقد جمع أحد رؤساء اليونان ما ينيف عن ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء فى إحدى الكنائس حتى إذا وصل المصريون هدم الكنيسة بلغم من البارود كان قد صنعه وأعدّه لهذه الغاية فهلك هو ومن معه عن آخرهم.

هذا ولقد تمكن بعض حامية المدينة من اختراق صفوف المصريين والأتراك بعد قتال عنيف وآووا إلى أحد الجبال المجاورة بعد أن قتل أو جرح ثلاثة أرباعهم ولما علم هؤلاء الشجعان أنه قد استولى اليأس على قلوب رؤس الثورة بعد سقوط مدينة (ميسولنجى) كتبوا إليهم فى ٧ مايو سنة ١٨٢٦ أن لا يخافوا ولا يحزنوا ولا يقنطوا من مساعدة الله فإن يد الله مع محبى الحرية والذابين عنها وأنهم لم يزالوا ولن يزالوا مستعدّين للدفاع عن استقلالهم إلى آخر رمق من حياتهم.

ولقد حدث فى أثناء هذه المدّة أمران مهمان أحدهما موت اسكندر الأول إمبراطور الروسيا فجأة، وتولية الإمبراطور نقولا خلفاً عنه. وثانيهما قتل السلطان محمود العثمانى لجيش الإنكشارية فى ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ اقتداء بما فعله محمد على باشا بمصر مع المماليك، ليتخلص من شرهم ويبرأ من كيدهم ويطهر مملكته من هذه الفئة الباغية التى اشتهرت فى سائر أنحاء المملكة العثمانية بعدم الإنتظام وارتكاب أنواع المنكرات فضلاً عن الرذائل بدون أن يجسر أحد على معارضتهم أو يقوى على مقاومتهم، وكثيراً ما عصوا السلاطين العثمانيين وخلعوهم من مناصبهم بل وقتلوهم وغير ذلك مما لا دخل له فى موضوع هذا الكتاب.

ثم أعقب سقوط مدينة (ميسولونجى) سقوط باقى مدن موره ويقال أن ما قابله إبراهيم باشا من الصعوبات أمام (ميسولونجى) أحدث تغييراً مهماً فى طباعه، فبعد أن كان يعامل اليونانيين بالرفق واللين ويمنع الإيذاء عن أسرهم

ويكرم مثواهم صار يعاملهم بالقسوة والشدّة ويأمر بقتل الأسرى أوّلاً فأوّلا ونهب كل ما يمرّ عليه من البلدان قبل حرقها وغير ذلك مما لا يسلمه العقل، ولعل هذه أمور أشاعها بعض أصحاب الغاية لمقاصد وأغراض يريدون التوصل إليها والحصول عليها بإلقاء الفتن ودس الدسائس فى داخلية البلاد للتداخل فى أمورها مما لا يخفى على رجال الدولة العلية الذين حنكتهم التجارب، ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول:

فتح العثمانيين مدينة أثينا:

أنه بعد سقوط مدينة (ميسولونجى) انفصل الجيش المصرى عن الجيش العثمانى فعاد الأول إلى ولاية (موره) وقد نسب إليه البعض من ارتكاب الفظائع مالا يمكننا ذكره لعدم ثبوته، وأما الثانى فقصد مدينة أثينا وحاصرها ولم يكن فيها إذ ذاك ما يصد هجمات العثمانيين فأسرع (كرايسكاكى) والكولونل (فابغيه) الفرنساوى إلى هذه المدينة المهددة ومعهما سبعة آلاف عسكرى يونانى وتمكنا من الوصول إليها قبل أن يشدّد رشيد باشا الحصار عليها وبعد مناوشتين خفيفتين وقعتا بالقرب من المدينة فى ١٠ وفى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٦ إلتزم رشيد باشا بإخلاء بيرا وما جاورها أما (فابغيه) فاخترق صفوف المحاصرين ودخل المدينة بألف وخمسمائة مقاتل واحتل قلعة (اكروبول) التى تعهد بالدفاع عنها، وكان اللورد (كشران) قومنداناً للسفن الحربية اليونانية والجنرال (شرش) رئيساً للجيوش البرية وهما انكليزيا الجنس وكان السبب فى تقليدهما هذه الوظائف الرئيسية مع وجود شجعان اليونان الذين اشتهروا فى هذه الحروب من أولها، هو عدم اتفاق رؤس الثورة ووجود الغيرة والحسد بينهم وهو الأمر الذى أفضى إلى تقليد رئاسة الجمهورية اليونانية إلى الكونت (كابودى استريا)[1].

[1] ولد هذا الرجل الشهير فى جزيرة كرفو ببلاد اليونان وتوصل بمهارته وحذقه إلى أن صار وزيرا أولا للروسية فى عهد اسكندر الأول ثم انتخبه اليونان رئيسا لجمهوريتهم سنة ١٨٢٧ ومات مقتولا سنة ١٨٣١.

وفى يوم ٤ يونيو سنة ١٨٢٦ هاجم اليونانيون عساكر العثمانيين ولولا موت (كرايسكاكى) لفاز اليونانيون بالغلبة ثم فى ٦ منه اتفق رأى رؤس جيش اليونانيين على معاودة الهجوم على صفوف العثمانيين ولكنهم لم يتحدوا فى العمل ولم يساعد بعضهم بعضاً ومتى تفرقت الكلمة تفرقت القلوب ولذلك لم ينجحوا فيما عزموا عليه ولم يتمكن اللورد (كشران) والجنرال (شرش) من الإلتجاء إلى سفنهم إلا بكل صعوبة أما الجند فهلكوا إلا قليلاً منهم وبعد ذلك اتفق الجنرال (شرش) مع رشيد باشا على تسليم المدينة، وأمر الكولونيل (فابغيه) بإخلاء قلعة الأكروبول وتسليمها إلى العثمانيين لكن اضطره نفاد المؤن وتذمر العساكر لإخلاء القلعة وتم بذلك استيلاء العثمانيين على مدينة أثينا تخت حكومة اليونان الآن.

ولم يبق بعد ذلك لليونان فى أنحاء بلاد موره إلا ثلاث قلاع أما المال المتحصل من القرض الذى أبرم فى مدينة لوندرة ومن تبرعات محبى الحرية فقد نفد أغلبه فى الشقاقات الداخلية وما ترتب عليها من الحروب وسفك الدماء.

تداخل الدول:

بينما إبراهيم باشا يستعدّ لفتح ما بقى فى يد اليونان من القلاع إذ تداخلت أوربا لاسيما فرنسا وانكلترا والروسيا بين الفريقين وطلبت من اليونان والباب العالى توقيف الحركات العدوانية حتى يتم الإتفاق على أمر مرضى مختار لدى الطرفين، فأبى الباب العالى ذلك وأمر قوّاده بإستمرار القتال على ما كانوا عليه ولقد انتهزت الروسيا هذه الفرصة واستعانت بدولتى فرنسا وانكلترا على إلجاء الباب العالى إلى إتباع المعاهدات فتهدّدوه وتوعدوه بالقتال، إن لم يقبل مطالب الروسيا فبعد محاولات ومناقشات طويلة أمضى الباب العالى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٢٦ على اتفاق (إكرمان) الذى من شروطه أن يؤيد كل ما جاء فى

معاهدة بوخارست[١] ويبيح لسفن الروسيا المرور من بوغاز البوسفور إلى البحر المتوسط فى أى وقت شاءت ومنها استقلال إمارتى الإفلاق والبغدان (رومانيا) واستقلال الصرب مع حفظ الحق للباب العالى فى وضع حامية عسكرية فى مدينة (بلغراد) وثلاث قلاع أخر ولم يذكر فى هذه المعاهدة شئ فى شأن اليونان واستقلالهم لإيجاد سبيل للتداخل فى مسئلتهم وحسمها طبق مرغوبهم.

هذا ولنأت على ذكر هذه المسألة تفصيلاً فنقول أن (دوك ولنجتون) وزير خارجية انكلترا إذ ذاك وهو القاهر لنابليون كما سبق، وكونت (نسلرود)[٢] وزير خارجية الروسيا كانا قد اتفقا عقب اجتماعهما فى شأن بطرسبورج على التداخل بين الدولة العلية واليونان وإنالة الأخيرة استقلالها طوعاً أو كرهاً فحررا بلاغاً للباب العالى فى ٢٦ مارث سنة ١٨٢٦ بالنيابة عن دولتيهما وبتعضيد فرنسا، وقدّموه بالإشتراك إلى السدة السلطانية طالبين به استقلال اليونان استقلالاً إدارياً لا سياسياً، بحيث يكون تعيين الحكام والمستخدمين فيها بمعرفة أهلها تحت ملاحظة الباب العالى وأن يدفع اليونانيون خراجاً معيناً للدولة العلية، وأن المسلمين المقيمين فى بلاد اليونان يهاجرون منها ويعطون عوضاً عما يكون لهم بها من المال والعقار. فرأى الباب العالى هذه المطالب فادحة ورفضها رفضا كلياً، فعند ذلك اتفق كل من فرنسا وانكلترا والروسيا بمقتضى معاهدة أمضيت فى مدينة (لندن) فى أوائل يوليو سنة ١٨٢٧ على إلجاء الباب العالى إلى

---

[١] لما شرع نابليون الأول امبراطور فرنسا فى محاربة الروسيا سنة ١٨١٢ كانت الروسيا تقاتل مملكة السويد جارتها شمالاً والدولة العثمانية جارتها جنوباً فلأجل أن تتمكن الروسيا من جمع كل قواها لمحاربة فرنسا سعت جهدها فى إبرام الصلح بينها وبين محاربيها فأمضت اتفاق الصلح مع السويد فى ٥ إبريل سنة ١٨١٢ ومع الدولة العثمانية فى ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ ولكون التوقيع على هذا الوفاق حصل فى مدينة (بوخارست) سميت هذه المعاهدة باسم المدينة المذكورة.

[٢] هو سياسّى روسّى ولد سنة ١٧٨٠ بمدينة (لسبون) عاصمة البرتغال حيث كان والده سفيراً واشتغل هو أيضاً بالسياسة فعين بسفارة الروسيا بباريس سنة ١٨٠٧ واشترك فى كافة المخابرات السياسية التى سبقت وأعقبت سقوط نابوليون الأول وكان من أكبر المساعدين على مكافحة أحزاب الحرية فى جميع أرجاء أوربا فكافأه الإمبراطور الإسكندر الأول بتعيينه وزيراً للخارجية فوجه اهتمامه إلى التداخل بين الدولة العثمانية وبين محمد على باشا كما سيجئ وبمسعاه تم الإتفاق بين الدول ما عدا فرنسا على إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وشهد حرب القرم الذى كانت الدائرة فيه على الروسية وسعى كثيراً فى الصلح الذى تم بباريس سنة ١٨٥٦ وتوفى سنة ١٨٦٢.

قبول تداخلهم فى مسألة اليونان، فأصرّ الباب العالى على عدم قبول تداخلهم فأرسلت الدول الثلاث المتحدة سفنها الحربية إلى مياه اليونان.

واقعة ناوارين البحرية:

لما علم محمد على باشا بتداخل الدول الأجنبية أرسل إلى ولده بموره الدونانمة المصرية حاملة أربعة آلاف عسكرى وكانت السفن المصرية والعثمانية حاملة ألفين ومائتى مدفع وتسعة عشر ألف شخص واصطفت داخل مينا ناوارين على هيئة نصف دائرة يرتكز أحد طرفيها على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة (سفا كتيرى) الواقعة عند مدخل الميناء التى كابد إبراهيم باشا وسليمان بيك العناء الشديد والتعب المديد فى الإستيلاء عليها كما ذكر ذلك فى محله. أما الدونانمة المتحدة فكانت أضعف من الدونانمة الإسلامية من حيث عدد المدافع لكنها كانت أقوى منها بكثير بالنسبة إلى المتانة وانتظام الجند وسرعة الحركات وكانت السفن الفرنساوية تحت إمرة الأميرال (رينى) والإنكليزية تحت قيادة الأميرال (كودرنجتون) وكان قائد سفن الروسيا الأميرال (هيدن) لكن كانت السفن المتحدة تحت إمرة الأميرال الانكليزى لتوحيد الرياسة وعدم تفرقة الكلمة، واختير هو دون غيره لكونه الأقدم فى الدرجة.

ثم دخلت الدونانمة المتحدة إلى الميناء واصطفت للقتال دون أن يجسر أحد الطرفين على تحمل المسئولية بالإبتداء بالعداوة ومع ذلك لم يمض نصف ساعة حتى انتشب القتال بينهما بدون إعلان حرب كما هى عادة الأمم المتمدنة، ولا سبب يوجب العدوان بين الطرفين إلا إغراء الروسيا للدولتين الأخيرتين على تدمير الدونانمة التركية المصرية، وكان يقصد الفرنساويون بذلك الفخر والشرف بعد ما ألّم بهم سنة ١٨١٥ ولم يرغب الإنكليز أن تنفرد فرنسا بهذا العمل خوفاً من زيادة نفوذها فى هذه الجهات فكان الرابح فى هذه الحروب البرية الروسيا فقط كما سيجئ.

والسبب فى اشتعال نيران القتال كما نشره ثقات المؤرخين هـو أن أحـد الحراقات التركية اقتربت فى أثناء المناورات الإبتدائية مـن إحـدى البـوارج الإنكليزية فأرسلت هذه لها ظابطاً فى زورق يطلب منها البعد عنها فانطلق إليها وهدد أحدى عساكرها بغدّارة كانت فى يده، فأطلق العسكرى التركى علـى الضابط الإنكليزى بندقيته فقتله فانتشب حينئذ القتال بالبنـادق بـين هـاتين السفينتين ثم أطلقت أحدى البوارج التركية مدفعاً أصابت طلقته مقدّم السفينة الفرنساوية (سيرين) ولم تصب أحداً فعند ذلك أطلقت هذه السفينة مـدافعها على السفن التركية فانتشب القتال بين الطرفين بحال هائلة، حتى لقـد عـدّت هذه الواقعة التى كانت نتيجتها تخريب أغلب الدونانمة التركية والمـصرية مـن أكبر الوقائع البحرية وأهمها وكان ذلك فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ويـدّعى الأوروباويون أنه لم يكن قصدهم حصول الحرب والقتال بل كـان قـصدهم الوحيد إلزام الدولة العلية بمنح اليونان الإستقلال وإيقاف القتال بأى وجه كان ولو أدى ذلك إلى الحرب.

أما إبراهيم باشا فكان فى داخل بلاد (موره) لإتمام نشر الأمن والسكينة بهـا فحين بلغه خبر تخريب سفنه فى واقعة (ناوارين) عاد إلى هذه البلـدة وأبـرق وأرعد لكن لم يجده ذلك نفعاً ولذا اختار خطة الدفاع عن خطة الهجوم وتحصن فى مينائى (كورون) و(مودون) وما جاورهما وأمر سـليمان بيـك بالبقـاء فى (تربيولتسا) وكان قد عين حاكماً لها ريثما تأتيه أوامر جديدة. ولما وصل خـبر هذه الواقعة إلى دار الخلافة أرسل الباب العالى إلى الدول الثلاث المتحدة بلاغاً يطلب به عدم التداخل بينه وبين رعاياه اليونانيين وأن يدفعوا له عوضـاً عـن السفن التى فقدت فى الوقعة المذكورة ويعتذروا له عما وقع منهم، فعند ذلـك أعلنت الروسيا بحرب الدولة العلية وبارزتها عدة وقائع كان الحرب فيها سجالاً بين الطرفين، ثم كانت الغلبة للروسيا وانتهت الحرب بالتوقيع علـى معاهـدة (أدرنة) وسنأتى على ذكرها فى محلها وفى هذه الأثناء تمكن اليونانيون بمـساعدة

الدول الأدبية، ومساعدة فرنسا المادية، إذ أرسلت لمساعدهًا جيشاً عظيماً تحت إمرة الجنرال (ميزون)، من استرجاع أهم مواقعهم الحربية.

ثم فى ٣ أغسطس سنة ١٨٢٨ اتفق محمد على باشا والى مصر مع الدول المتحدة على إخلاء (موره) بشروط وهى: أوّلاً أن والى مصر يتعهد بإعادة من أسر من اليونان وغيرهم فى واقعة (ناوارين) وبتحرير من بيع منهم للأهالى، ثانياً أن الأميرال الإنكليزى يتعهد بإرجاع من أسر من المصريين وكذلك السفن التى أخذت أثناء الحرب، ثالثاً أن الجيوش المصرية تخلى (موره) فى أسرع وقت وينقلهم أمير مصر إلى الإسكندرية على سفنه، رابعاً أن السفن المصرية فى حالتى ذهابها وإيابها تكون مخفورة بسفن فرنساوية وانكليزية، خامساً أن اليونانيين المقيمين بمصر بإختيارهم لا يجبرون على تركها ماداموا غير مكرهين على البقاء فيها وكذلك من يريد أن يعود مع المصريين بدون إكراه ولا إجبار، سادساً يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى (موره) عدداً من العساكر لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على (مودون) و(كورون) و(ناوارين) و(بتراس) و(كستل تورنيز) أما باقى النقط الأخر فلا بد من الجلاء عنها بدون إمهال.

رجوع إبراهيم باشا إلى مصر وانتهاء حرب اليونان:

فلما عرض هذا الوفاق على إبراهيم باشا أخذ الغيظ منه كل مأخذ لما رأى من أن تعبه لم يعد عليه بأقل نفع ولم يمكنه الإمتناع لتهديد سفن الدول له بحراً وجيش فرنسا براً، فأصدر أوامره لسائر الفرق التى فى داخل بلاد اليونان بالسير إلى الثغور للرجوع إلى مصر ولسليمان بيك وكان مقيماً بالأيه فى مدينة (تريبولتسا) بترك المدينة بعد هدم قلاعها وأسوارها، فأخلى المصريون سائر البلاد تدريجاً ودخلها الفرنساويون بدون معارضة ولا ممانعة إلا (بتراس) فدخلها الجنرال (ميزون) عنوة بعد مقاومة خفيفة.

هذا ولنذكر تتميماً للفائدة ما فعلته الدول الأوورباوية لتحرير اليونان بعد رجوع إبراهيم باشا إلى مصر فنقول أن الدول الثلاث المتحدة وهى فرنسا والروسيا وانكلترا عقدت مؤتمراً فى مدينة (لندن) فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨، ودعت الدولة العلية لإرسال مندوب ينوب عنها ويقوم مقامها فيه فلم يقبل الباب العالى إرسال مندوب خوفاً من اعتبار ذلك إقراراً على ما أتته هذه الدول من مساعدة اليونان. أما مندوبو الدول الثلاث فاجتمعوا بلوندرة فى اليوم المعين وقرروا استقلال (موره) وجزائر (سيكلاده) وتشكيلها على هيئة حكومة مستقلة تحت أمير مسيحى تنتخبه الدول وتكون تحت حماية وضمانة الدول الثلاث، وتدفع للباب العالى مبلغ خمسمائة ألف قرش فى كل سنة.

لكن لم يعترف الباب العالى صاحب السيادة بهذه المعاهدة واستمرّ القتال فى بلاد اليونان لإرجاعها إليه، فأعلنت الروسيا الحرب عليه وبعد قتال شديد فاز الروس بالنصر والتزم الباب العالى بالتوقيع على معاهدة (أدرنة) فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ التى كان منها إباحة الملاحة للروسيا من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط والاعتراف باستقلال اليونان.

* * *

٧- حرب الشام

عادت بقايا الجيش والدونانمة المصرية إلى ثغر الإسكندرية متوّجة بالنصر المبين والفوز العظيم لا عار عليها إذ ألزم إبراهيم باشا بإخلاء بلاد اليونان بعد أن فتحها ونشر لواء الأمن فى جميع أنحائها والعودة إلى مصر بعد أن فنى معظم رجاله فى هذه الحروب والمناوشات، وكيف يتسنى لولاية هي بالنسبة إلى الدول الأورباوية كل شئ أن تقاوم حكومتى فرنسا وانجلترا فضلاً عن مساعدة الحكومة الروسية لهما؟ أيلحق مصر والدولة العلية عار إن هزمتا فى واقعة (ناوارين) البحرية التى سبق لنا شرحها والدونانمة التركية لم تكن لتقاوم دونانمة أعظم الدول الأورباوية بحراً وبراً؟ وكيف يمكن الجيوش المصرية أن تقاوم قوّة لم تقو الدولة العلية مع مالها من القوّة العالية والعظمة السامية على صدّ هجماتها؟ لعمرى إن مجرد وقوف قوّة مصرية محصنة أمام إحدى هاته الدول العظام ليكسبها فخراً جليلاً ونبلاً جزيلاً وشرفاً أثيلاً، ولو خرجت من هذا الموقف الحرج مكسورة، لاسيما وأن المصريين لم يتعوّدوا منذ استيلاء العائلات الأجنبية على بلادهم، أعنى منذ نحو أربعة آلاف سنة أن يبذلوا أرواحهم بل ولا أموالهم للمدافعة عن استقلال وطنهم فما بالك لو دعوا لبذل الأرواح فى نيل الشرف والسمعة كما كان سبب الحرب فى بلاد اليونان، تالله أن تغلب المصريين على اليونانيين المشهورين بالبسالة والشجاعة فى مواقع شتى وفتحهم بلادهم لمن أكبر البراهين على ما للمصريين من قوّة البأس وثبات الجأش فى الحروب، سيما لو علموا أن ذلك يعود على وطنهم بأقل فائدة وأيسر عائدة. وبالجملة فلا يمكننا أن نقول أن حرب اليونان لم تفد مصر شيئاً فإنها ولو لم تعد عليها بفائدة مادية فقد أفادتها فائدة أدبية ألا وهى تدرّب عسكرها وبحريتها على أبواب القتال وفنون الحرب لأن اقتحام الأخطار وبذل الأرواح يغرسان فى الجندىّ برياً كان أو بحرياً، حب الشرف والمخاطرة بالروح فى سبيل نيله لاسيما إذا رأى من رؤسه وضباطه سيرة حسنة فى الشجاعة والنظام العسكرى فإنه وأن توفى أو

استشهد كثير من العساكر المصرية واغتنم أو أحرق أكثر سفنها الحربية فى واقعة (ناوارين) فإن ما بقى فيه كفاية لتدريب من يضم إليه من الشبان لما اكتسبه فى مواقع القتال من التجربة واتقان هذا الفن الذى عليه المعوّل ومدار حماية الوطن وحفظ أهله، فلذلك لم تفتر همة محمد على باشا بل ازدادت عزيمته بعد حرب اليونان فأخذ فى تتميم نظام جيشه واستعداد دونانمته ليعيد ما فقد فى هذه الحروب الهائلة.

ولما انشرح صدره مما سمعه من نجله إبراهيم باشا من حسن نظام الجيش الفرنساوى والدونانمات الأورباوية أمر بإنشاء ألايات من السوارى الذين يحملون المزاريق ويلبسون الزرد والدروع على هيئة جيش فرنسا، واستدعى من يسمى المسيو (دى سريزى) لتنظيم الدونانمة والموسيو (بوسون) لتعليم العساكر البحرية وأعطى كلا منهما رتبة بيك وكان الطبيب (كلوت بيك) فى ذاك الوقت باذلاً جهده فى إيجاد الإسبتالايات وتحسينها للزومها عند الضرورة.

وأما سليمان بيك فكان فى هذه الأثناء بينه وبين إبراهيم باشا بعض حزازة ربما كان سببها حسد الحاسدين ووشى الواشين، لأنه كيف يظن أن إبراهيم باشا ينكر ما لسليمان بيك من الأعمال المشكورة فضلاً عن أياديه فى تنظيم الجيوش المصرية على نظام حسن لأنها لم تكن مؤلفة قبل إلا من أوباش الأرنؤد وأخلاط الترك الذين كانوا لا بغية لهم إلا السلب والنهب ونشر الفساد بين العباد بما كانوا يقترفونه من المحرّمات على رؤس الأشهاد كنهب الأموال وسبى الفتيات والنساء زيادة عن خطف الولدان لإرضاء شهواتهم البهيجة بدون رادع يردعهم أو قامع بقمعهم عن ارتكاب الآثام إلى غير ذلك مما يأبى القلم تسطيره.

أما جيوش سليمان بيك فكانت مؤلفة من أبناء البلاد الذين يعود عليهم نعيمها وشقاؤها ويلزمهم الدفاع بمالهم وأرواحهم عنها لأنها وطنهم ولا يخفى أن حب الوطن من الإيمان وكل إنسان يجب عليه حب اتساع وطنه لأنه كلما ازداد ازدادت الخيرات ونمت البركات. وكان سليمان بيك هو ناظم عقدهم

وموشى بردهم ولم يكتف بتنظيمهم وتعليمهم بل بث فيهم روح الإنتظام وحب الشرف لكن أبى الحاسدون إلا إيقاع النفرة بينه وبين نجل سيده الكريم إبراهيم باشا حتى هجره مدة من الزمان ولم يسلمه قيادة الجيش التى كان هو أحق بها من غيره واستمر هذا النفور إلى أواسط سنة ١٨٢٩، حتى تداخل بينهما محمد على باشا وأزال ما كمن فى صدر ولده من البغضاء من جهة سليمان بيك مؤكداً له أنه هو أول معضد للجيش ولا يمكن الإستغناء عنه، فلذلك صفح إبراهيم باشا عنه وقلده وظيفته فى الجيش فعادت المياه إلى مجاريها.

* * *

هذا ويسوؤنا أن نقول أن مصر مع كونها قد تقدمت فى زمن المغفور له محمد على باشا عمّا كانت عليه فى زمن المماليك مالياً وعسكرياً، لكن لم يصب الفلاح من هذا التحسين إلا كثرة الضرائب وأعمال السخرة لإتمام الأعمال العمومية التى لم تعد بالفائدة على فلاحى ذلك الوقت بل على من أتى بعده فكأنه غرس ليجنى غيره، ولكثرة الضرائب هاجر بعض فلاحى الوجه البحرى إلى جهة الشام والأقطار السورية انقياداً لإغراء بعض أمراء هذه الجهات ووهما منهم أن من يلتجئ إلى هؤلاء الأمراء تكرم وفادته وتحسن مقابلته لكن لسوء حظهم لم ينالوا ما كانوا يسعون وراءه من طلب المنافع الزائدة والخيرات الوافدة ومهاجرة هؤلاء كانت هى السبب فى إضرام النار واشتعال الحرب بين والى مصر وعبد الله باشا الجزّار والى سورية ثم بين مصر والباب العالى.

وبيان ذلك أن محمد على باشا طلب من عبد الله الجزار أن يردّ إلى مصر كل من هاجر منها خوفاً من ازدياد عدد المهاجرين لو وجدوا سورية بلداً آمناً يمكنهم الإقامة فيه مع عدم دفع الضرائب الثقيلة مثل ما يدفعونه فى مصر لجمع الأموال اللازمة لأعمال الترع وإقامة الجسور وسائر الأعمال العمومية الأخرى، فأما عبد الله الجزار فأبى ذلك ولم يرض به، فاغتاظ لذلك محمد على باشا وعزم على إرجاعهم بالقوّة ومما زاد فى غيظه أن له الأيادى البيضاء والنعم

الجزيلة على الجزار فإنه توسط بينه وبين الباب العالى فى سنة ١٨٢٢ لإرضـاء السلطان عنه حين أراد الجزار إدخال مدينة دمشق فى دائرة ولايته رغم أنـف الدولة العلية وآل ذلك إلى أن قهرته العساكر الشاهانية حتى ردّته على عقبـه، بعد ما قتلت وأسرت غالب جيشه ولم يرض عنه الباب العالى إلا بتوسط محمـد على باشا وبشرط أن يدفع ستين ألف كيسة غرامة فدفع عنه والى مصر جلّهـا إن لم يكن كلها.

وفى سنة ١٨٣١ ورد كتاب الجزار إلى محمد على باشا بعدم إجابته إلى مـا طلبه فأخذ فى زيادة عدد الجيش وجمع المؤن والذخائر والخيل اللازمـة لنقلـها ونقل العساكر المشاة بين مصر والشام، وبينما هو مشتغل بجمع رجاله إذ دهمت مصر داهية دهماء وهو تطرق الوباء إليها نعوذ بالله منه وانتشر بسرعة غريبة بين الأهالى وأنفار العسكر.

ولما لم يكن إذ اك ما لدينا الآن من الوسائط الصحية المانعة لإنتشاره وكثـرة أذاه فتك بالعباد فتكاً ذريعاً حتى قيل أن عدد من توفى من المصريين فى شـهرى أغسطس وسبتمبر ينيف على مائة وخمسين ألف وكان عدد سكان القطر حينئذ لا يزيد عن ثلاثة ملايين[1]، ولما اضمحلت وطأة الكوليرة رجع محمد على باشا إلى الإستعداد لأجل محاربة الجزار فلم يكن إلا قليل حتى سافر مـن مـصر إلى العريش الواقعة على الحدود الشامية ست ألايات مشاة وأربعة خيالة ومعهـم أربعون مدفعاً صغيراً وعدة من مدافع الحصار الضخمة مع ما يلزم مـن المـؤن والذخائر وكان معهم المياه لعدم وجود ما يطفئ لهيب العطش فى هذه الرملـة المحرقة الفاصلة بين مصر والشام فقد قاسى الفرنساويون فى اجتيازها أنواع آلام العطش وقت سفرهم لمحاربة البلاد الشامية سنة ١٧٩٩.

(١) نكر المسيو (فلكس مانجان) فى كتابه على تاريخ مصر أن عدد السكان كان فى سنة ١٨٠٠ حين احتلال الفرنساويين مليونين ونصفاً ولا يخفى أن مصر استمرت فى حروب داخلية وخارجية من ذلك العهد إلى التاريخ الذى نحن بصدده فتقديرنا عدد السكان فى سنة ١٨٣١ بثلاثة ملايين يكون أقرب للحقيقة من تقديره بأكثر من ذلك.

حصار عكّا:

وفى هذا الوقت سافر إبراهيم باشا قائد الحملة مع حاشيته بحراً، تحفزه الدونانمة المصرية فى أكمل نظام وأحسن ترتيب وأبدع شكل وأغرب وضع حتى وصل مدينة (حَيْفَا) وكانت قد احتلتها العساكر المصرية قبل قدومه بعد أن فتحوا فى طريقهم (غَزَّة) و(يافا) و(بيت المقدس) و(نابُلُس) ثم جعل مقرّه (حَيْفا) وجمع فيها الميرة والذخيرة وابتدأ فى محاصرة مدينة (عكّا) براً وبحراً فكان يحصرها من جهة البحر عدّة من البوارج الحربية المسلحة بالمدافع الكبيرة ومن جهة البر ثلاثون ألفاً من العساكر المنتظمة وابتدئت أعمال الحصار فى ست وعشرين خلون من شهر نوفمبر سنة ١٨٣١ وأما عبد الله الجزّار فلم يعبأ بهذه الإستعدادات لوثوقه بمنعة المدينة لقوة أسوارها وقلاعها المحيطة بها من كل جهة، لا سيما وأنه لم يمكن (بونابرت) فتحها فدخل فى نفسه الغرور بذلك ولإعتقاده أن الباب العالى لا يتركه بدون مساعدة، وكان كذلك، فإن الباب العالى أرسل لوالى مصر مندوبين يأمرانه أن يكف عن محاصرة عكا وأن يخلى البلاد الشامية، ويهددانه بتدخل الباب العالى لو لم يكف عن عدوانه، لكن لم يصغ محمد على باشا إلى تهديداتهم لعلمه أن الباب العالى لا يمكنه تحقيق هذا الأمر لإشتغاله إذ ذاك بمحاربة الروسيا ألد أعدائه، لكنه أظهر لهما الإمتثال وكتب سراً إلى ولده إبراهيم باشا بمضايقة المدينة وتشديد الحصار ليضطر أهلها إلى التسليم قبل وصول العساكر السلطانية إليهم لو أرسلت الدولة العلية جيوشها إليهم لإلزامه القهقرى.

وأما مدينة (عكّا) فلم تكن من المنعة بالمكان العظيم الذى كان يظنه الجزّار لأن عدم نجاح (بونابرت) أمامها إنما كان لمعاكسة الدونانمة الإنكليزية له وقطعها المواصلات بين الشام ومصر من جهة، وأخذها مدافع الحصار التى أرسلها قائد الفرنساويين على طريق البحر من جهة أخرى، لتعذر إرسالها براً لوجود صحراء العريش وعدم استيفاء لوازم النقل وكذلك تأخر إبراهيم باشا عن دخولها لم

يكن ناشئاً عن منعتها بل لعدم وجود مهندسين محنكين بالجيش لإرشاد المدفعيين إلى الجهة التى يلزم توجيه نيران المدافع إليها لأن الشجاعة فى مثل هذه الأحوال لا تكفى على حدتها، بل للعلم فيها مدخل لا ينكر. ومما كان يزيد فى ارتباك الجيوش المصرية وعدم تفرغهم لمحاصرة المدينة معاكسة سكان لُبنان لهم ومهاجمتهم إياهم فى مناوشات صغيرة متعددة وقد زادت قِحَتُهُمْ حين وصلهم خبر قدوم العساكر الشاهانية لمحاربة الجيوش المصرية وإلزامها بالعودة إلى مصر.

انتصار المصريين بقرب حمص:

كان الباب العالى قد تمكن فى هذه الأثناء من جمع عشرين ألف مقاتل وأرسلها لمحاربة والى مصر تحت قيادة عثمان باشا والى حَلَب فزحف بالفعل هذا الجيش الجرّار قاصداً (عكّا) ومستصحباً فى طريقه كل ما لاقاه من عساكر وأعراب ودروز، سواء كانت منتظمة أو غير منتظمة ولما بلغ هذا الخبر قائد الجيوش المصرية جمع مجلساً عسكرياً من نخبة ضباطه الوطنيين والأجانب للتروّى فى أحسن الطرق لرد هجمات العثمانيين فقرّ رأى هذا الجمع على رفع الحصار مؤقتاً وإرسال الجيوش إلا قليلاً لحفظ خط الرجعة إلى (عكا) لمهاجمة الجيش العثمانى فى طريقه والإنقضاض عليه بغتة وتفريق شمله قبل أن يأتيه المدد فقبل إبراهيم باشا هذا المشروع وجعل نفسه رئيساً عاماً على الجيش ووكل أمر الترتيبات اللازمة لسليمان بيك فلما عهد إليه هذا الأمر جمع ستة آلاف من نخبة عسكره وعدداً كثيراً من المدافع القوية وتقدّم على طريق دمَشق لمحاربة الأتراك وفى هذه الأثناء لما علم عبد الله باشا الجزّار بتضعضع قَوّة المصريين عقب سفر نخبته ونخبة قوّاده إلى دمَشق خرج من المدينة وهاجم المحاصرين فظهر عليهم وأخذ الكثير من مدافعهم وقاتلهم بها، لكن إبراهيم باشا لم يعبأ بهذه الغلبة بل جدّ فى طريقه لمقاتلة العثمانيين حتى إذا عاد بالنصر شدّد الحصار على (عكّا) وفتحها عنوة.

ثم وصل إلى مدينة (حمْص) حيث التقى فى ضواحيها مع جيش عثمان باشا وكان هذا الجيش مؤلفاً من فرسان العرب والأكراد فأحاطت بالعساكر المصرية إحاطة الهالة بالقمر حتى كان يخيل للناظر أن الجيش المصرى لا يلبث أن يتفرّق أيدى سبا، ولكن قام حسن نظامه ومهارة ضباطه وشجاعة عساكره مقام كثرة العدد وأغنت عن وفرة العدد وذلك أن سليمان بيك رتب العسكر على هيئة صفوف منتظمة ووضع وراءها بطاريات المدافع حتى لا يراها المهاجم فانخدع القائد التركى بهذه الحيلة وهجم بكل قوّته على الصفوف المصرية فلم تردّ هجومهم بل ثبتت مكانها إلى أن صارت العساكر التركية على مسافة قليلة، فتقهقر المصريون خلف المدافع وأطلقت هذه قنابلها فكسحت كل من بالسهل من مشاة وركبان، وبعد ذلك اقتفى أثرهم المشاة المصريون عدوا وأبلوا فيهم بلاء حسناً وأعملوا فيها السيف والرمح إلى أن أوصلوهم إلى نهر العاصى حيث غرق كثير من الأتراك أما عثمان باشا وباقى الضباط فاحتموا فى مدينة (حَماه) وكانت هذه الواقعة فاتحة الفتوحات الشامية وباكورة النصر على الجيوش التركية كما سيجئ مفصلاً إن شاء الله تعالى.

فتح مدينة عكّا:

ثم صار إبراهيم باشا حتى احتل بَعلَبَكَّ بجيشه بعد أن أبقى فى جميع الطرق من العسكر ما يلزم لحفظ خط الرجعة ومكث هناك مدة خوفاً من رجوع العثمانيين إلى الكرة، ولما علم أن عثمان باشا أرسل إلى الباب العالى يطلب المدد وأنه لا يأتيه إلا بعد شهرين أو أكثر إذا أسرع فى إرساله ولم يعقه عائق يوجب البطء رجع إلى مدينة (عكّا) وجدّد الحصار عليها بكل شدّة براً وبحراً بمساعدة العرب والدروز والمارونية الذين أتوه بأنفسهم طوعاً بعد أن ظهر على الأتراك، وكذلك الأمير بشيراً أكبر أمراء لُبنان وأعظمهم شأناً، أتى إلى معسكر إبراهيم باشا وطلب الدخول تحت حمايته.

وأخذ الحصار حينئذ وجهة أخرى واستمر إطلاق المدافع القوية بغاية الدقة والإتقان والإحكام ولم يزل الإطلاق مستمراً حتى هشم السور وفتحت فيه فتحتان متسعتان وفتحة ثالثة صغيرة وحينئذ لم يتردّد إبراهيم باشا فى مهاجمة المدينة وأخذ فى وضع الإستعدادات اللازمة وعين يوماً للهجوم وكان يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وعند الصباح انقضت الجيوش المصرية على الفتحات الثلاث فاستولت على اثنتين منه وترددت قليلاً أمام الثالثة فبادر إبراهيم باشا وتقدّم بجزء من جيشه الإحتياطى لمساعدة هذا القول، فدبت فيهم الحميّة العسكرية وساروا عدواً حتى وصلوا إلى الفتحة المذكورة وصعدوا إلى السور واستمر القتال هناك بالسلاح الأبيض بينهم وبين ما بقى من الحامية إلى المساء، فاستسلم الباقون وألقوا سلاحهم وأخذ فى هذه الوقعة عبد الله الجزّار أسيراً وأرسل تواً إلى مصر فأكرم محمد على باشا مثواه وأحسن لقياه.

ولما انتشر بمصر خبر فتح (عكّا) لا سيما وقد أعيت (بونابرت) الحيل فى أخذها، زينت المدينة عدة أيام متواليات وكان البشر إذ ذاك يتلألأ على وجوه المصريين ويعلن بما ملأ قلوبهم من الفرح والسرور، إذ لم يعهد من ابتداء تولى العائلات الأجنبية على مصر أنها انتصرت مثل هذا الإنتصار الذى توسم المصريون به التقدم والنجاح تحت ظل العائلة المحمدية العلوية وطفقوا يدعون الله أن يديم لهم محى مجد مصر ويطلبون منه سبحانه أن يحفظ الذى أحياها من موتها حتى يتم مشروعاته وينيلها استقلالها الإدارى تحت رعاية الدولة العلية الإسلامية.

انتصار المصريين بقرب حلب:

كان لسقوط مدينة (عكّا) فى أيدى المصريين موقع عظيم فى قلوب العثمانيين فاضطرب الباب العالى وخشى من تعاظم الخطب وازدياد مطامع المصريين فأراد تلافى الأمر قبل اتساع الخرق على الراقع، فأمر بحشد الجيوش والكتائب وجمع بكل عناء وتعب ستين ألف مقاتل وأرسلهم لمحاربة إبراهيم باشا تحت قيادة حسين باشا مبدّد الإنكشارية ولقبه بلقب (سردار أكرم) ووهب له ولاية مصر

وولاية (كريت) لكن سوء حظه لم يساعده على دخول مصر لحسن حظها كما سترى.

فتقدم حسين باشا المذكور بجيشه مع البطء والتوانى حتى إنه لم يصل إلى مضايق جبال (طوروس) إلا فى أوائل شهر يوليو وكان لم يرد البعد عن مدينة (أنْطاكِيَة) خشية من ملاقاة إبراهيم باشا ومن معه من أسود مصر، بل أرسل محمد باشا والى حلب مع مقدمة الجيش وأمره أن يتحصن فى مدينة حِمص. هذا ولم يخف على إبراهيم باشا أن انفصال معظم الجيش العثمانى عن مقدمته وكونه على مسافة بحيث يتعذر عليه الإسراع فى مدّ يد المساعدة إليها إذا مست الحاجة لذلك، من أكبر الغلطات العسكرية وأعظم الهفوات الحربية بل تنبه لذلك وأراد انتهاز الفرصة وضرب المقدمة أولاً ثم محاربة حسين باشا وجيشه ثانياً، فتوجه بسرعة نحو دِمَشق ودخلها بدون عناء وترك فيها حامية قليلة ثم أخذ يجدّ ويجتهد فى السير نحو مدينة حمص حتى وصل أمام معسكر محمد باشا والى حلب بثلاثين ألف مقاتل قبل أن يشعر به أحداً واستعدّ للنزال فلم ير قائد الجيوش التركية مندوحة عن القتال وأخذ فى الإستعداد والتأهب له.

وأما إبراهيم باشا فإنه سلم قيادة الجند إلى سليمان بيك لما شاهد منه من الحنكة والدراية فقسم الجيش إلى ثلاثة صفوف متوازية وجعل يمينه مرتكزاً على صحراء وشماله على بحيرة صغيرة ووضع جنوده الخيالة فى الجناحين وثلاث بطاريات طوبجية فى الأمام وأربعاً خلف الجيش لتتقدم عند الضرورة وبعد ما أتم هذه الترتيبات ابتدأ بإطلاق النيران من البطاريات الأمامية.

أما محمد باشا والى حلب قائد الجيوش التركية فلم يرتب جيشه إلا على صفين فقط ولا يخفى ما ينشأ عن ذلك من ضعف نار المشاة ولم يحسن ترتيب الطوبجية لأنه فرقها ووضع بين كل أورطة من المشاة مدفعاً واحداً فكان عدم الإحتياط فى ترتيبها سبباً فى إضاعة قوتها ثم ارتكب غلطة أخرى أعظم من الأولتين، وهى وضع جناحه الأيمن فى نقطة بحيث يتعذر عليه الخروج منها

بسرعة لمساعدة الجناح الآخر أو القلب وهذه النقطة كانت محاطة بترعة وبركة وطريق عام فلما رأى سليمان بيك هذه الترتيبات وعلم أن جناح الترك الأيمن فى حيز العدم وجه كل قوّته نحو الجناح الأيسر والقلب فصوّب إليهما مدافع بطارياته الأمامية وفى أثناء إطلاق القنابل ذهب ببطارياته الإحتياطية وبعض من الخيالة وساروا بميل حتى وصلوا إلى طرف الجيش من جهة اليسار وهناك هجم بمدافعه وخيله فشتت شمل الجناح الأيسر والقلب وفرّقهم أيدى سباحين، كان الجناح الأيمن لا يقوى على التحرك من مكانه فانهزم الجيش التركى ورجع محمد باشا وما بقى من جيشه إلى مدينة حلب، ووجد بالقرب منها حسين باشا مع بقية الجيش.

وكانت هذه الواقعة فى ٩ يوليو سنة ١٨٣٢ وبلغ عدد القتلى من الترك ألفين والأسرى ثلاثة آلاف وكانت الغنيمة فيها للمصريين اثنى عشر مدفعاًوكثيراً من الذخائر والخيام فتقهقر محمد باشا إلى حلب حيث التقى بحسين باشا وجيشه ولما أراد حسين باشا الدخول فى مدينة حلب ليتحصن فيها منعه سكانها خوفاً من انتقام إبراهيم باشا منهم فاضطرّ حسين باشا أن يتقهقر ليبحث عن مكان حصين يمكنه فيه أن يوقف سير المصريين ويصدّهم عن بلاد الأناضول واستمرّ فى رجوعه حتى وصل جبال (طوروس) الفاصلة بين الشام والأناضول وتحصن فى مضيق هناك بقرب من مدينة تدعى (بَيْلان) حيث جمع شتيت قواه مع الإحتياطى من جيشه. وهذا المضيق هو الطريق الوحيد بين بلاد الشام والأناضول وهو مشهور فى التاريخ لمرور الإسكندر المقدونى منه فى الجيل الرابع قبل المسيح حين زحف بجيشه لفتح بلاد الشام ومصر لمرور الإفرنج حين أتوا على طريق قسطنطينية فى زمن الحروب الصليبية لفتح بيت المقدس.

واقعة بيلان:

فى أثناء هذه المدة تقدم الجيش المصرى بغاية السرعة حتى وصل مدينة حلب فدخلها فى يوم ١٧ يوليو سنة ١٨٣٢ بدون أن يجد أدنى مقاومة من الأهالى

وترك بها جزءاً من المهمات العسكرية وخفراً قليلاً من الجند ولم يــزل مجــدّاً فى طلب العدد ومرسلاً فى أثره طلائع الجيش حتى عثر على حسين باشا مع جيشه متحصنين فى جبال (طوروس) حيث أقيمت القلاع الحصينة على قمم الجبــال حتى صار الممرّ صعباً فوصل إبراهيم باشا مع جيشه يوم ٢٩ يوليو مــن هــذه السنة إلى معسكر الجيش التركى فاندهش من مناعة الممرّ لكن لم يلبث أن جمــع مجلساً حربياً مركباً من كبار ضباط الجيش وتداولوا الرأى فى الطريق التى يمكن بها الإستيلاء على هذا المضيق بدون أن يعرّض جيشه إلى مدافع العدوّ المركبــة على قمم الجبال فبعد أن استكشفوا مواقع العدوّ والنقط التى نزل بها وتحققــوا أنه يوجد قمم أعلى من هذه القمم استقر رأى هذا المجلس علــى الإســراع فى احتلال هذه القمم العليا بدون تأخير حتى يتمكن الجيش المصرى مــن إطــلاق بنادقه ومدافعه على الجيش التركى الذى يكــون إذ ذاك فى موضــع حــرج فصدرت الأوامر إلى العساكر المصرية بالصعود واحتلال القمم المذكورة بدون أن تستريح من التعب وما ذاقوه من النصب ورفعت المدافع الضخمة مع العناء والمشقة إلى هذه القمم الشامخة.

وبمجرد ما تمت هذه التجهيزات الإبتدائية صوّب المصريون نيرانهــم علــى العدوّ من أعلى إلى أسفل فوقع الفشل فى الجيش التركى ولم يدر كيف يقــاوم عدواً تصله مقذوفاته ولا يمكنه أن يجاوبه بمثلها، ولم يمض كثير من الزمن حــتى تقهقر الأتراك وتركوا المعاقل والحصون وأرادوا النزول إلى الــوادى فقابلتــهم سوارى المصريين بالسيوف وأخذوا فى ضربهم حــتى تفــرق شملــهم واغتــنم المصريون فى هذه الواقعة خمسة وعشرين مدفعا وألفين من الأسرى وكثيرا مــن الذخائر والتجأ كثير من الترك إلى ضواحى مدينة اسكندرونة للــهرب علــى الدونانمة لكن لسوء حظهم كانت الدونانمة قد سافرت فلما علــم المــصريون بذلك اقتفوا أثرهم وتبعوهم إلى اسكندرونة حيث لحقــوهم فى اليــوم التــالى وطردوهم من المدينة وغنموا منهم أربعة عشر مدفعاً وجماً غفيراً من الأسرى.

وكانت هذه الواقعة هى الطامة الكبرى والخيبة العظمى لحسين باشا وجيشه ويقال أن حسين باشا ترك جيشه ليلاً واختفى حتى لم يوقف له على أثر خوفاً مما يلحقه من العار بسبب انخذاله أمام جيوش أحد أتباع الدولة العلية وفراراً مما يحكم عليه به من العقاب والقتل بسبب ذلك واختلف الناس فى كيفية فراره على أوجه شتى فقال فريق أنه فر على مركب يونانية بعد أن اتخذ كل ما كان معه من ماله الخاص ومال حكومته لكن غدر به ربان السفينة واغتال ماله وألقاه ومن معه على جزيرة صغيرة من جزائر الأرخبيل حتى أهلكهم الجوع فيها وقال فريق أنه اختفى فى إحدى قرى الأناضول وأمضى فيها ما بقى من عمره فى عيشة بسيطة كأحد أفراد الرعية ولم يرد الظهور بعد ذلك، وكل هذا رجم بالغيب أما الحقيقة الحقة فلا يعلمها إلا موجد الكائنات وبارئ النسمات سبحانه جل جلاله وعظم سلطانه.

واقعة قُونِيَة:

ثم إن إبراهيم باشا اجتاز بعد ذلك جبال (طوروس) وجاوز حدود بلاد سوريا ودخل ولاية (أطنه) ولكن لم يبغ التقدم إلى الأمام بل بذل جهده فى تنظيم ما فتحه من الولايات بعد أن أدخل فى دائرة فتوحاته مدائن انطاكية وطرسوس وأطنه وأقام مع جيشه فى هذه المدينة إلى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣٢ ثم انتقل بخيله ورجله إلى الأمام لمقابلة الجيش التركى الجديد الذى أرسله السلطان لمحاربته لأنه لم يكن من عاداته أن يدع العدوّ يهاجمه بل كان هو يقابله فى سيره ويهجم عليه من حيث لا يشعر فضلاً عن أن يوقع فى صفوفه الفشل وكان هذا الجيش مؤلفاً من جميع الشعوب المكونة للدولة العلية ولا رابطة بينها من الروابط التى يتحرك بها الجيش حركة واحدة كرجل واحد لأن الدولة العلية لم تتمكن من التأليف بين قلوب رعاياها حتى تكون منهم أمة واحدة عثمانية بل لم يزل كل شعب محافظاً على تقاليده وعوائده ولا تجمعه مع باقى الشعوب إلا جامعة الخضوع لسلطان واحد ذى بأس وبطش.

ومن المعلوم أن تباين الشعوب واختلاف أهوائهم ومشاربهم لا تزيلـه قـوة السلطة ولا قمدمه من أصل وأن كانت تخمد ناره وتكسر أواره. ألا تـرى أن السلطة التى تجمع هذه الأضداد وتؤلف بينهم بحسن إيالتها وتلمّ شعث ما بينهم من تنافر الجنسية واختلاف المشارب إذا أحسوا منها وهناً أوقصوراً فى القـوة والثروة طمحت أبصارهم وتشوفت نفوسهم إلى مبارزتها بالعداوة وأسرع كـل شعب إلى بنى جلدته وأهل مشربه، وحسبك دليلاً على ذلك معاهدة برلين وما اشتملت عليه من استقلال بعض الشعوب وانـضمامها إلى أحـدى الـدول الأوربية.. ولنقتصر على ذلك خوفاً من الخروج عما نحن بصدده ونرجع إلى ما كنا فيه فنقول:

كان هذا الجيش تحت قيادة رشيد باشا الذى اشترك قليلاً مع إبراهيم باشـا فى محاربة (موره) وخصوصاً أمام مدينة (ميسولونجى) وامتاز بعد ذلك فى محاربة من يدعى مصطفى باشا والى (اشقودره) ببلاد الأرنؤد ولما اجتمع هذا الجـيش العرمرم بمدينة (استانبول) استعرضه السلطان بنفسه وضم إليه ست ألايات من المشاة المنتظمة مع إضافة عدد وافر من المدافع حتى بلغ عدده ستين ألف مقاتل ثم تقدم رشيد باشا إلى بلاد الأناضول لصدّ هجمات إبراهيم باشا عـن مدينـة القسطنطينية عاصمة الدولة العلية. وكان إبراهيم باشا قد تقدم حـتى وصـل مدينة (قونية) وجعلها مقراً لأعماله الحربية ومركزاً للذخائر والمؤن وبث طلائع جيشه، إلى سائر ضواحى البلد وتفقد بنفسه كل النقط المهمة واستعرض جيشه فوجد من حسن نظامه ما انشرح منه صدراً وقرّ به عيناً وأمل الظفر على رشيد باشا كما انتصر على حسين باشا، وما النصر إلا من عند الله.

وفى ١٨ ديسمبر من سنة ١٨٣٢ وصلت مقدمة الجيش التركى تحت قيادة رؤف باشا إلى شمال مدينة (قونية) وكانت هذه المقدمة مؤلفا أغلبها من الجيوش غير المنتظمة، فناوشهم إبراهيم باشا ليتحقق قوة انتظامهم ودرجة ثبـاقم ولمـا آنس منهم الضعف أراد أن يظفر بهم ويفرق شملهم ويشتت جمعهم قبل وصول

الجيش فلم يقبل رؤف باشا الحرب لتحققه من عدم الثبات أمام الأسود المصرية فانقضى يوما ١٨ و١٩ فى مناوشات خفيفة كانت نتيجتها أخذ بعض مدافع وبعض أسرى من الأتراك. ثم فى صبيحة يوم ٢٠ من الشهر انتشر خبر وصول رشيد باشا وجيشه إلى مقربة من (قونية) وحينئذ تحقق الكل أن هذه الواقعة ستكون خاتمة الحرب وأنه لو انهزمت العساكر التركية، خيف على الدولة العلية من تقدم المصريين نحو القسطنطينية وبمجرد وصول رشيد باشا أخذ يتأهب للقتال فرتب جيشه المركب من ستين ألف مقاتل على أربعة صفوف وجعل الخيالة لوقاية الخلف والاجنحة، لكنه ارتكب الخطأ الذى كان سبباً فى انخذال حسين باشا أمام حلب، وهو تفريق المدافع بين كل أورطة وأخرى وتشتيت قواها وتفريقها حتى لا يعود لنيرانها تأثير ومن البديهى أن نفس الأسباب تنشأ عنها نفس المسببات.

وأما إبراهيم باشا فلم يكن معه إذ ذاك إلا ثلاثون ألف مقاتل مدربون على فنون القتال وحضروا كل الوقائع الحربية التى حصلت بين الترك والمصريين من ابتداء الحرب، مع أن الجيوش التركية كانت مؤلفة من أحداث مختلطى الأجناس مختلفى الملل ومع ذلك لم يسبق لأغلبهم اقتحام نيران الحرب ومشاهدة أهوالها، ومما قوى فى قلوب المصريين الأمل فى الفوز والإنتصار ثقتهم برؤسهم وتعدد النصر لهم المرة بعد المرة فى سائر الوقائع التى شهدوها، "وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين".

وبعد أن انتظم كل من الجيشين تقدم الجيش التركى إلى الأمام، أما المصرى فمكث فى مكانه لا يبدى حراكاً وكان الضباب الكثيف الكثير الموجود فى بر الأناضول خصوصاً فى مثل هذا الشهر سادلاً أستاره على الجيشين ومخفياً كلا منهما عن أعين الآخر ولذلك لم يبدأ إبراهيم باشا بالضرب كى لا يعرف العدوّ مكانه، أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة خمسمائة متر إبتدأ باطلاق البنادق والمدافع فعلم إبراهيم باشا وسليمان بيك ترتيب جيش العثمانيين

وتفريق مدافعهم، ثم شاهد سليمان بك المشاة التركية انفصلت بسبب الضباب عن الخيالة فأمر فى الحال المشاة من المصريين بالدخول بين الفريقين ليستحيل إجتماعهما ورجوعهما إلى ما كانا عليه من الإلتئام والإنضمام ولقد أوقعت هذه الحركة العسكرية الرعب والفزع فى قلوب الأتراك فوقفوا مبهوتين يقدّمون رجلاً ويؤخرون أخرى إلى أن فاجأت الخيالة المصرية الخيالة التركية وأعملت فيها السيف حتى بدّدها ووجهت المدفعية المصرية قنابلها على المشاة التركية فأهلكتها ودمرها.

ولما رأى رشيد باشا أن لامناص من الإنهزام أراد أن يستقتل فى الحرب فنزل بنفسه فى وسط المعركة يقاتل كجندى ولكن لم يفز ببغيته بل وقع أسيراً فى أيدى المصريين فجاؤا به إلى إبراهيم باشا فأحسن وفادته، ولما انتشر خبر أسره وقع الفشل فى صفوف الأتراك فولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وفاز المصريين بفوز لم يسبق له مثيل فى تاريخهم واغتنموا من هذه الوقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر وأسروا عشرة آلاف عسكرى كان من ضمنهم كثير من القوّاد العظام والضباط الكرام.

وكان لهذه الوقعة تأثير مهم فى قلوب سكان الأناضول وصار المصرىّ أو من يتبعه مهيباً معظماً أينما حل ومما يؤيد ذلك ماروى أن شخصاً يدعى محمد أغا دخل مدينة أزمير ومعه أربعة رجال واستولى عليها باسم إبراهيم باشا وطرد حكامها واستبدّ فيها بأمره ولم يقدر أحد من السكان ولا من غيرهم على إخراجه، لكنه ما لبث أن اضطرته العساكر الشاهانية إلى الهرب وإخلاء المدينة أما إبراهيم باشا فلم يرد أن يزيد شواغله باحتلال (أزمير) لما يترتب عليه من سلخ جزء من جيشه وإرساله إليها فأنكر معرفة محمد أغا المذكور وبذلك زالت هذه المسألة الغريبة التى ليس لها أدنى أهمية حربية ولكن أوردناها اثباتاً لما وقع فى قلوب الأتراك من بأس المصريين ومهابتهم.

تداخل الدول:

ولقد اضطربت لذلك الدولة العلية فخشيت من تقدم إبراهيم باشا مع جيشه وأوجست خيفة من سوء العاقبة ولما لم يبق لها من الجيوش المنتظمة ما تعترضه به فى طريقه استعانت بالسياسة الأورباوية فتداخلت الدول العظام فى المسألة لتسويتها بحل مرضى للطرفين خشية من دخول إبراهيم باشا اسلامبول واستفحال أمره وأما الروسية فانتهزت هذه الفرصة للتداخل بالفعل بين الدولة العلية ورعاياها المصريين فأرسلت سفنها إلى شواطئ الأناضول الشمالية لمنع تقدم إبراهيم باشا نحو القسطنطينية وأنزلت إلى البر برضا الباب العالى نيفاً وخمسة عشر ألف نفس من جيشها لمحاربة إبراهيم باشا إذا اقتضى الحال. وكان ذلك منها لما خشيت من أنه لو استولى محمد على باشا على تخت الدولة العلية لم يتيسر لها حينئذ تنفيذ وصية بطرس الكبير فتداخلت فرنسا وانكلترا وعارضتا الروسيا فى نزول عساكرها فى أرض الدولة العلية وبعد مخابرات طويلة التزم الروسيون بسحب عساكرهم إلى الحدود، وتوصلتا أيضا إلى إبرام الصلح بين السلطان محمود ومحمد على باشا بأن يعطى ولاية مصر مدة حياته ويقلد ولايات كريد والشام وقسم أطنه.

وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة (كوتاهيه) نسبة إلى البلد التى كان إبراهيم باشا بها وقت الإتفاق ولم يتجاوزها إتباعاً لأوامر الدولة وصدرت إرادة السلطان الشاهانية بذلك فى مايو سنة ١٨٣٣ وبعد ذلك أخلى إبراهيم باشا بلاد الأناضول وإجتاز جبال (طوروس) عائداً إلى الشام حيث أخذ فى تنظيم البلاد ونشر أسباب الراحة والأمن بين العباد.

أما الباب العالى فأجاب إلى هذه المطالب إتباعاً لمشورات الدول الأورباوية عموماً، وفرنسا وانكلترا خصوصاً، فإنهما بذلتا جهدهما فى إقناع الباب العالى بمصالحة تابعه، بدون تداخل الروسيا دخولاً حربياً فإنه أمر لا يؤمن أن يعود على تركيا بما لا ترضاه فقفل الباب العالى ذلك ظاهراً وأخذ فى الإستعداد سراً

فى تدريب الجيوش وتجهيز العدد والعدد لردّ ما سلب من أملاكه كما سيجيء ذلك مفصلاً.

هذا أما الروسيا فتمكنت فى مدة نزول عساكرها بأرض الدولة من إبرام معاهدة مع الباب العالى تدعى معاهدة (أنكاراسكله سى) كان من أهم شروطها أن كلا من المتعاقدين يتعهد بالذب والمدافعة عن الطرف الآخر عند حصول خطر داخلى أو خارجى له ومنها غير ذلك من الشروط التى لا تخلو من الإذلال والإجحاف ولكن بمساعدة المقادير لم تنفذ شروط هذه المعاهدة مطلقا لإحتجاج الدول الأورباوية عليها ولتنبه الباب العالى إلى مضارّها.

وأما إبراهيم باشا وسليمان بك فأخذا ينظمان البلاد الشامية تنظيماً إدارياً وسياسياً وحربياً وعسكرياً حتى ساد الأمن فى ربوعها وانتشرت السكينة فى أنحائها وأمن على النفس والمال من أن تعبث بها أيدى الظلم والإعتساف، وراجت التجارة واتسع نطاقها وكثرت المعاملات بين الشام والبلاد الأورباوية وازدادت الصادرات والواردات ضعفى ما كانت عليه قبل ضمها إلى مصر ونمت المحصولات. وصار كل إنسان واثقاً بأنه يحصد ما يزرع بدون أن يشاركه العرب أو تقاسمه فيه الحكام، كما كان حاصلاً قبل حلول إبراهيم باشا بها ثم أمر إبراهيم باشا بزرع كثير من شجر التوت اللازم لإزدياد محصول الحرير، فغرس نحو مائة ألف شجرة، وغرس فى ضواحى مدينة أنطاكية أشجار الزيتون وتغطت جبال سوريا وهضباتها بكروم العنب لتصدير الخمر، فزهت البلاد الشامية وأينعت وعادت إلى بعض ما كانت عليه فى أعصر الفنيقيين والرومانيين وتحقق الثقات أنها لو استمرت تابعة لمصر لصارت من أخصب بقاع الدنيا وأكثرها زراعة وتجارة. وفى هذه الأثناء أنعم العزيز محمد على باشا على سليمان بك الفرنساوى بلقب باشا مكافأة له على خدمته الصادقة أثناء هذه الحروب، لكن لم يستمر أمر البلاد الشامية فى قبضة محمد على باشا إذ لم يأل الباب العالى جهداً فى استرجاعها إليه فأخذ يستعدّ براً وبحراً ويتروّى مع الدول فى الطريق

المؤدية إلى إرجاع الشام إليه، خصوصاً قسم أطنة الواقع خلف جبال (طوروس) لأن المصريين بإحتلال مضايق هذه الجبال يمكنهم الإغارة على بلاد الأناضول فى أى وقت شاءوا.

عصيان أهل الشام أول مرة:

استمرت الشام على هذا التقدم إلى أوائل سنة ١٨٣٤ فأصدر محمد على باشا أوامره المشدّدة إلى نجله إبراهيم باشا بإحتكار جميع أصناف الحرير لجانب الحكومة وبضرب جزية جديدة على كل الأهالى بدون تمييز بين الجنسية أو الديانة وبتجهيز عدة ألايات من سكان البلاد الشامية، ومما زاد أهل الشام انحرافاً عن محمد على باشا أمره بنزع السلاح من جميع الأهالى لأنهم من شعوب غير مؤتلفة وديانات مختلفة وعادات ليست بمتفقة ولذلك لا ينقطع الشقاق من بينهم، الأمر الذى يقضى غالباً على استعمال السلاح لاسيما وأن البلاد الشامية تحفها من جهة الشرق صحارى رملية يسكنها بعض قبائل العرب الرحل الذين لا طريق لتكسبهم ولا سبيل لتعيشهم إلا السلب والنهب والتعدّى على القرى الواقعة على حدود الصحراوات، وربما توغلوا فى داخلية البلاد لهذه الغاية المشؤمة والسجية المذمومة، فلذلك صارت الأسلحة النارية وغيرها من ضروريات السكان ولوازمهم للدفاع عن أنفسهم والذود عن أولادهم والذب عن أموالهم، فإلزامهم بعدم حمل السلاح بمثابة جعلهم هدفاً لسهام تعدّى الغير عليهم وهم عزل ولم يدر بخلدهم أنه بحسن إدارة إبراهيم باشا وسهره على راحة الأهالى، صار لم يخش من هؤلاء العرب على تكدير كأس الراحة العمومية وأن إبراهيم باشا لما عرف به من الشجاعة وحسن السياسة كان كفؤاً للذود والدفاع عنهم وإذا تقرر ذلك فقد صار حمل السلاح مضراً بالهيئة لعدم الإحتياج إليه للدفاع عن المال والنفس واستعماله حينئذ لا يكون إلا فى المخاصمات الخصوصية بين أفراد الطوائف المختلفة، ولما كان لواء الأمن منشوراً والعدل منثوراً صار أمر نزع السلاح ضرورياً لإستتباب الأمن وتوطيد أركانه بين هذه الأمم مختلفى الديانات والمذاهب والأجناس والعقائد،

لكن اتخذ المفسدون هذا الأمر ذريعة لإلقاء المفاسد بين الأهالى وتوغير صدورهم من الإدارة المصرية التى لم يروا فى باقى الولايات مثلها فى الإنتظام والعدل بين الرعية وأفهموهم أن محمد على باشا لم يأمر بهذا الأمر إلا ليستعبدهم ويغتصب أملاكهم وأموالهم بعد تجريدهم من السلاح.

فلما وصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم باشا وكان إذ ذاك فى مدينة (يافا) لم يتردّد فى نشرها بين القبائل وفى سائر البلاد مشدّداً فى تنفيذها بدون إمهال ولا توان، متوعداً من يبدى أدنى معارضة بصارم العقاب وشديد الجزاء فتأثر لذلك كل الأهالى ما بين صغير وكبير وشريف وحقير وأخذوا فى التعصب ولما لم يجدوا ثمرة لتعصبهم ورأوا أنه لا بد من نزع السلاح من أيديهم طوعاً أو كرهاً عزموا على الإمتناع وشق عصا الطاعة وساعدهم على ذلك أرباب الغايات وأطمعوهم فى المساعدة مادّياً وأدبياً إذا اقتضاها الحال فصغوا لوسوسة هؤلاء الشياطين وغواية الغاوين.

وابتدأت الثورة بجوار البحر الميت (بحيرة لوط) وعلى شواطئ بحر الأردن بجوار مدينة أُورْيشَلِمَ[1] (بيت المقدس) وأعلن قبائل هذه الجهات أنهم لم يذعنوا ولم يمتثلوا قط لأوامر الباب العالى فكيف يتبعون أوامر والى مصر الذى هو تابع له، وأنهم يريدون المحافظة على استقلالهم ولو كان فى ذلك هلاكهم عن آخرهم وكان ذلك فى شهر إبريل سنة ١٨٣٤.

فلما وصل إلى إبراهيم باشا خبر عصيانهم قام لوقته مستصحباً معه فرقة من جيشه وسار قاصداً وادى الأردن لمعاقبة العاصين وجدّ فى سيره حتى وصل مدينة أوريشَلم قبل أن يبلغهم خبر قيامه من (يافا) فاستدعى إليه أعيان القوم وأكابرهم فمثلوا بين يديه وسألهم عن سبب توقفهم فى الإمتثال لأوامر الوالى وهل هم مصروّن على التمادى فى العصيان فأجابوه بأنهم غير معارضين فى

[1] قال ياقوت فى معجمه أوريشلم بالضم ثم السكون وكسر الراء وبـ ء ساكنة وشين معجمة مكسورة ويروى بالفتح وميم وهو اسم لبيت المقدس بالعبرانية ويروى أوريشلوم وأوريشلم أى بتشديد اللام المفتوحة.

احتكار الحرير لكنهم معارضون كل المعارضة فى أخذ شبانهم إلى العسكرية وأنهم مستعدّون لدفع الضريبة ولو ضعفين ولإرسال بعض أولاد المشايخ بصفة رهينة تأميناً على طاعتهم بشرط إعفاء شبانهم من العسكرية أما نزع السلاح فلم يذعنوا له مطلقاً.

فلم يقبل ذلك منهم إبراهيم باشا، بل أخبرهم أنه لا بدّ من تنفيذ أوامر والده بدون تغيير أو تبديل، فلما رأوا أن لا مناص استأذنوا فى العود إلى المدينة وعرض ما تم بينه وبينهم من الحديث على الأهالى، وأوروه أنهم فى حدّ ذاتهم مذعنون لأوامره وسيبذلون جهدهم فى إقناع القوم بالإمتثال لكنهم يرجون منه لو خاب مسعاهم ولم يقبل الأهالى هذه الطلبات أن لا يؤاخذهم ولا ينسب ذلك إلى سوء نيتهم وفساد طويتهم، فأذن لهم بالذهاب مظهراً اعتقاده بحسن نيتهم، وكان يريد بإظهار البشاشة لهم وعدم الشدّة عليهم التخلص من الحرب فراراً من عدوّ هو أنكى وأشدّ بطشاً من عصيان الأهالى، ألا وهو الهواء الأصفر الجالب للموت الأحمر، الذى أتى مع الحجاج عند عودهم من تأدية الفريضة وفشا بأوريشلم وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً حتى خيف امتداده وتعدّيه إلى خارجها فقفل إبراهيم باشا راجعاً إلى (يافا) ومكث ينتظر جواب أهالى المدينة، ولم يظهر الوباء فى مدينة (يافا) ذلك الوقت.

ولقد كان لمجئ إبراهيم باشا أمام مدينة القدس تأثير حسن، فألقى الرعب فى قلوب القبائل المجاورة وهدأ الأهل وعادت السكينة كما كانت لكن هذا الهدوء لم يكن إلا ظاهراً لأن إدخال شبان البلاد فى الخدمة العسكرية وزيادة الضرائب مما أوغر صدور السكان على الإدارة المصرية فلم يكن سكوتهم إلا انتظاراً لفرصة مناسبة يشقون فيها عصا الطاعة.

ولقد ساعدهم الحظ فلم يمض عليهم طويل زمن حتى سنحت لهم تلك الفرصة المنتظرة وذلك أنه شاع أن الدولة العلية تجمع الجيوش وتؤلف الكتائب فى بلاد آسيا الصغرى وأن رشيد باشا الذى كان قائداً للجيوش التركية فى

واقعة (قونية) وأسر فيها، كما سبق لنا ذكره فى محله، ولى قيادة هذا الجيش الجديد ليعوّض ما فقده من شهرته فى تلك الواقعة فلما شاع ذلك الخبر وعلم به العرب النازلون على ضفاف البحر الميت نزعوا إلى العصيان وامتدّت تلك الثورة بسرعة عجيبة إلى جبال يهوذا حتى تفاقم الخطب وتعسر الخلاص لولا ما اتصف به إبراهيم باشا وقائده سليمان باشا من العزم فى الخطوب والحزم فى الكروب.

عصيان الشيخ قاسم وأبى غوش:

وكان من المحرّضين على هذه الثورة الشيخ قاسم حاكم مدينة (نابُلُس) وهو من عائله شريفة شهيرة بقدمها وعراقتها فى النسب، ومن مآثر المرحوم إبراهيم باشا أنه بذل له ولأولاده جزيل نعمه وولى أكبرهم مدينة (حبرون) ليستميل إليه هذه العائلة المسموعة الكلمة فى سائر أكناف المدينة وضواحيها، لكن هذا الشيخ أنكر الجميل وكان أوّل مناد بالعصيان وأوّل محرّض على الثورة فلبى نداءه سكان الجبال المجاورة الذين لا يودّون أن يكونوا تابعين لأى حاكم ولو كان أعدل الحكام وكذلك عائلة من يسمى (أباغوش) النازلة فى الأودية الواقعة بين أُورْشَلَم ويافا فإنها رفعت راية العصيان وقطعت الطريق بين المدينتين بإحتلالها كل مسالك الجبال ومضايقها، لكن ربما يلتمس لهذه العائلة عذر لأنها لم تجد ما وجده الشيخ قاسم وأولاده من إبراهيم باشا من حسن المعاملة وإسدال النعم والعطايا الجمة فضلاً عن الحجر على رئيسها بمدينة عكا لما اقترفه من سوء معاملة الحجاج وعدم السماح لهم بالمرور من أرضه ما لم يعطوه جعلاً معلوماً مع تنبيه إبراهيم باشا عليه بإبطال هذه العادة فهاجمت عائلة (أبى غوش) وأعوانها النقط المصرية المعينة لحفظ الطريق من قطاع الطرق. ولما كانت حامية هذه النقط غير كافية لمنع تعدى مثل هؤلاء الطغاة قفلت راجعة إلى مدينة يافا بعد أن دافعت دفاع الأبطال وقاومت مقاومة الأسود فى الجبال وكذلك حامية أُورْشَلم لما لم تستطع إيقاف حركة العصيان ولا إطفاء لهبها المستعر تركت خطة الهجوم وتحصنت فى قلعة المدينة حتى يأتيها المدد.

فلما بلغ إبراهيم باشا هذه الأخبار المكدّرة للبال المهيجة للبلبال المزعجة لأبطال الرجال أرسل فى الحال ألايا من الفرسان لكج جماح الثائرين لكنه لم يقدر على مقاومة قبيلة (أبى غوش) المحتلة للطريق الموصلة بين (يافا) و(أُورِيْشَلَم) فبعد أن قتل فى القتال قائد هذه الفرقة والسواد الأعظم من رجالها عاد الباقون إلى يافا فى حالة لو شاهدها العدوّ لرثى لها.

فلما رأى ذلك إبراهيم باشا هم فى الحال وتوجه بنفسه ومعه العدد الكافى من الجند لمنع تجمع الثائرين فى مدينة (نابُلس) حيث استدعاهم الشيخ قاسم للإجتماع للمفاوضة فى تدبير ما يلزم لنجاح مشروعهم وأرسل أيضاً إلى مشايخ القبائل يخبرهم بأن الشيخ قاسم لم يقصد التخلص من الإدارة المصرية العادلة إلا ليستعبدهم ويسومهم سوء العذاب.

فلما عرف حاله لبعض القبائل المصافية له، نفروا منه وتضعضعت بذلك شوكته وزالت سطوته وانهدمت قوته وأمكن لإبراهيم باشا وسليمان باشا اتخاذ خطة الهجوم فقاما من يافا فى ٤ يوليو سنه ١٨٣٤ ومعهما ستة آلاف جندى واقتربا من الجبال فرأياها مغطاة بالعرب ثم وصلا إلى قرية تدعى قرية (أبى عنب) حيث كانت عائلة (أبى غوش) متحصنة تحصناً عظيماً كاد يتعذر معه أخذها بل يستحيل ولكن لم يعبأ إبراهيم باشا بهذه التحصينات بل هاجمها بعسكره بكل شدّة وثبات واستمر القتال ثلاثة أيام متوالية دافع من خلالها الثائرون دفاع الأبطال ولولا ما اشتهر به إبراهيم باشا من الحزم والعزم والثبات فى مواقع القتال لفاز الثائرون بالغلبة. وفى اليوم الثالث دخل المصريون القرية واجتازوا جبال يهوذا واحتلوا كل الطرق ووصلوا إلى مدينة أوريشلم[1] بدون أن يتعرّض لهم أحد فى طريقهم لتبدد شمل الثائرين بعد سقوط قرية (أبى عنب) التى كانت قلعتهم الوحيدة ومانعتهم الحصينة.

---

[1] يبلغ عدد سكان هذه المدينة عشرين ألفا وتنقسم إلى أربعة أقسام تختلف بالجنسية والطباع والعقائد وكراهة بعضهم بعضا يسكن فى جهتى الشرق والشمال الأتراك وفى الجنوب اليهود وفى الغرب اليونان والأرمن.

وحين وصل المصريون إلى أبواب المدينة وقع الرعب فى قلوب سكانها الأتراك لأنهم كانوا يساعدون الثائرين على محاربة المصريين لما انتشر خبر تجمع العساكر العثمانيين فى جهات الأناضول ولعلمهم بأنه لابد من انتقام إبراهيم باشا منهم ومحاربته لهم ليكونوا عبرة لغيرهم ولكى لا يعودوا إلى الثورة مطلقاً سراً أو جهراً، التجأ كثير منهم إلى الفرار هرباً مما سيترل بإخوانهم من العذاب الشديد نعم إن إبراهيم باشا كان يسعى بجهده فى استعمال الطرق السلمية ويعفو عن كثير ممن كان يقاومه، لكنه ليس فى مثل هذه الحالة فإن استعمال الحلم فى هذه الأحوال مما يجرّئ المفسدين على نشر فسادهم ويعين الطغاة على طغيانهم.

ولقد تحقق ما كان يخشاه أتراك (أُورِيْشَلم) فقتل إبراهيم باشا كثيراً من زعمائهم هذا ولم يكن لإستيلاء إبراهيم باشا على مدينة (أُورِيْشَلم) فائدة تذكر لموت كثير من عساكره من كثرة المناوشات التى كانت دائمة بينه وبين العرب، ولعدم وجود العدد الكافى من الجند فى هذه البلاد حتى كان يستمد منهم ما يلزم لتعزيز حامية المدينة وحفظ خط الرجعة إلى يافا ومضايق الجبال والطرق الموصلة بين المدينة وغيرها فأخذ فى التحصن بالمدينة كى لا يهلك كثير من جيشه فى المناوشات، وأرسل إلى مصر يطلب منها المدد حتى إذا وصله تمكن من مهاجمة العدوّ وتبديدهم فى واقعة مهمة لا يقوم لهم بعدها قائمة.

وفى خلال ذلك لم يأل جهداً فى إيقاع النفرة بين رؤس الثورة وتحريض بعضهم على بعض كى يتوصل إلى مرغوبه ويتحصل على مأموله إذا وقع بينهم الفشل فنجح فى مشروعه هذا كل النجاح، حتى أن الشيخ قاسم حاكم (نابُلُس) لما رأى أن أغلب مشايخ القبائل أوشكت تنسلخ عنه أراد التقرب من إبراهيم باشا وأرسل إليه يخبره أن النابلسيين يرغبون فى الرجوع إلى طاعة المصريين لو وعدوهم بمعافاتهم من الخدمة العسكرية فقبل إبراهيم باشا المخابرة فى هذا الموضوع لو حضر الشيخ بنفسه إلى معسكره فحضر الشيخ طائعاً

مختاراً، لكن لسوء حظه لم ينجح فى هذه المخابرات لأن سليمان باشا كان فى أثنائها قد تمكن من إبرام وفاق مع أولاد الشيخ (أبى غوش) بأن يسلموا إليه معاقل جبال يهوذا فى مقابل إطلاق سراح أبيهم والعفو عما حصل منه ومن قبيلته ومكافأقم مادياً على المساعدات التى قدموها إلى المصريين فقبلوا ذلك وصار الطريق آمناً بين يافا وأُورْشَلِم.

سفر محمد على باشا إلى الشام:

ولما علم إبراهيم باشا بسفر أبيه أغلق باب المخابرات بعدم قبوله إعفاء سكان نابلس من الخدمة العسكرية وعاد إلى يافا فى أواخر يوليو سنة ١٨٣٤ لملاقاة والده محمد على باشا الذى كان توجه إلى الشام مع المدد اللازم لإخماد الثورة قبل انتشارها.

فلما يئس الشيخ قاسم من الإتفاق مع المصريين عاد إلى نابلس وأخذ فى تحصين المدينة وبناء الأسوار والقلاع حولها وعاهد نفسه أن لا يسالم المصريين ما دام حياً بل يحاربهم حتى يقضى الله أمراً، فاستعدّ محمد على باشا بنفسه لمحاربته وأرسل إلى الأمير بشير أمير الدروز أن يحضر إلى (يافا) ويرسل جيوشه لمحاربة الشيخ قاسم فخاف الأمير بشير ولم يتوجه بنفسه إلى (يافا) بل أرسل أحد أولاده ليخبر محمد على باشا بأن الدروز سيسافرون عن قريب لمهاجمة نابلس فاكتفى محمد على باشا بهذا الجواب وأمره بإخضاع مدينة (صَفَدَ) التى أخذ سكانها فى ارتكاب الفظائع وقطع الطرق اعتماداً على مناعة مدينتهم فامتثل الأمير بشير وتوجه لساعته قاصداً (صفد) وحاصرها، لكن لم يحتج الحال لأخذها عنوة فإنه قبل أن يهاجمها أرسل إلى سكانها يتهددهم بإحراق مدينتهم وقتلهم عن آخرهم إن لم يسلموا له سلاحهم ويأتوا إليه خاضعين، ولتأكدهم من أن الدروز لا يتأخرون عن إنفاذ ما يتوعدونهم به، سلموا المدينة للأمير بشير وأعطوه سلاحهم فدخل المدينة واستلم زمامها وأخذ رؤس الثورة وأرسلهم إلى سجن (عكا) وبعد أن وطد الأمن فى ضواحى (صفد) زحف برجله إلى مدينة

نابلس من جهة الشمال حين كان المصريون يتقدمون من جهة الجنـوب فهـال النابلسيين مرأى هذين الجيشين، ولكن الشيخ قاسم مع تحققه عجزه عن مقاومة المصريين، آلى على نفسه أن يقاتلهم إلى آخر رمق من حياته ومما زاد فى غيظه أن إبراهيم باشا ووالده محمد على باشا أجزلا النعم على عائلة أبى غـوش وأمـر الباشا بإخراج رئيسها من سجن عكا وأهدى إليه هدايا فاخرة وأرجـع ولـده الأكبر إلى منصبه واعترف له بالرياسة على قبيلته وولى ولاية (أُوْرِيْشَلم) أحـد أولاده الأخر بشرط أن يتكفل بمؤنه حامية المدينة وما تحتاج إليه مـن مأكـل ومشرب وملبس.

ولشدّة حنق الشيخ قاسم على المصريين لم يستطع صبراً حـتى يـأتى إليـه عساكر الدروز بل خرج للقائهم خارجاً عن أسواره وحصونه وكان ذلك سبباً فى ضعف قوته، إذ لا طاقة للمحاربين غير المنتظمين على مقاومة المنتظمين فمـن المعلوم ومما أيدته التجارب أن العسكرى المنتظم يعد بعشرة من غير المنـتظمين فكيف إذا كان القائدون لهم رجالاً مثل إبراهيم باشا وسليمان باشا لكن الشيخ قاسم لم يتدبر هذه الحقيقة فعاد عليه وخيم عواقبها.

وذلك أنه التقى بجيش المصريين فى موقع يبعد عن (نابلس) بـضع سـاعات وبعد قليل لم يستطع الوقوف أمام نيران المدافع وتقهقر بعد ما قتل من رجالـه نيف ومائة رجل إلى أحد التلول المجاورة للمدينة، فتبعه المصريون ودخلوا المدينة عنوة أما هو فهرب مع من بقى من رجاله وكان مثخناً بالجراح هو وأحد أولاده فالتجأوا إلى مدينة (حبرون) حيث عزم على أن يقاتل ويدافع عن نفسه حـتى يموت فاقتفى أثره إبراهيم باشا مع جيشه ولم يلبث أن وصل (حـبرون) وأمـر بمهاجمتها بدون أن يترك للعدوّ أدنى وقـت لتحـصينها وكـان ذلـك فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ فانقض المصريون عليها كالليوث الضارية بقوّة لا يقوى على مقاومتها إنس ولا جان، ودخلوها بعد قتال عنيف كانت الدائرة فيه على الشيخ قاسم ورجاله مع كونهم دافعوا دفاع الأبطال، وساعدهم علـى ذلـك

الأشجار المغروسة بالبساتين المحيطة بالمدينة من كل طرف مما عاق المصريين فى هجومهم وكان سبباً لموت كثير منهم بين أنفار وضباط إذ كان الضباط فى مقدمة الجند يشجعونهم على القتال.

اقتفاء إبراهيم باشا أثر الشيخ قاسم:

ولما دخل إبراهيم باشا المدينة عفا عن سكانها وأمّنهم على أموالهم وأعراضهم لكنه أقسم بإستئصال عائلة الشيخ قاسم من أولها إلى آخرها، فلما رأى الشيخ المذكور ذلك فرّ هارباً من المدينة عند دخول المصريين ولم يتمكن إبراهيم باشا من القبض عليه مع ما بذله من العناية فى ذلك فخرج الباشا من المدينة لإقتفاء أثره، بعد أن ترك بها حامية قوية تحت قيادة سليمان باشا خوفاً مما عساه يحصل من الفتن فيها وبث الجواسيس فى سائر أنحاء فلسطين ليقف على المحل الذى احتمى فيه الشيخ المذكور ورجاله وبعد قليل عاد بعض الجواسيس إليه وأخبروه بأنه فى قرية يقال لها (الكَرَك) واقعة فى جنوب بحيرة لوط (البحر الميت) وهى مدينة حصينة وبها قلعة منيعة مبنية على قمة شاهقة يتعذر الوصول إليها لوعورة الطرق الموصلة إليها وبذلك يمكن لحامية قليلة أن تصد عنها كل مهاجم وتردّ كل عدوّ بعدده وعدده، فلما علم إبراهيم باشا بذلك آلى على نفسه أن يأخذ الشيخ المذكور أسيراً ولو حمله ذلك على إهلاك معظم جيوشه، لأنه إن لم يفعل ذلك ظن أهل الشام أنه غير قادر على اخضاعه وربما جرّهم ذلك إلى العصيان، فكان قصد إبراهيم باشا بمحاربة الشيخ قاسم وقتله هو أن يكون ذلك مثالاً وعبرة لسكان الشام كي يعلموا علم اليقين أن كل من عادى إبراهيم باشا لا بدّ أن ينال جزاءه عاجلاً لا آجلاً.

فلما تيقن إبراهيم باشا وجوده فى مدينة الكَرَك قام لوقته وجدّ فى السير واصلاً لليل بالنهار فى قطع الصحراء المحرقة من شدة الحرارة حتى مات جملة من عسكره فى أثناء السير من شدة العطش لقلة المياه فى الطرق، ويقال أنهم لما وصلوا إلى البحر الميت ألقوا أنفسهم فيه لشدّة ما كان بهم من الظمأ المحرق مع

شدّة ملوحة مائه، ومن الثابت أن ماء هذا البحر لكثرة ملحه يزيد ثقله النوعىّ حتى يحمل الإنسان بدون سباحة ولقد قال بعض السياحين أن المسافر بعد أن يتحمل مالا يوصف من المشاق والأوصاب وآلام الجوع والعطش وينظر من بعد لون مائه يخيّل له الظمأ أنه عذب فرات، لكن لا يلبث أن يشم رائحته الكريهة الناشئة عن كثرة ما فيه من الأملاح والكبريت فيزول عنه هذا التخيل.

ولما وصل إبراهيم باشا إلى مدينة (الكَرَك) لم ينتظر قدوم مدافعه بل أمر بالهجوم على القلعة بعد أن أراح عساكره مدة يومين ولم يتمكن الجند من أخذ القلعة عنوة لتعذر الوصول إليها فعاد المصريون بلا طائل والتزم إبراهيم باشا أن ينتظر المدفعين، فلما وصلت المدافع ابتدأت بإطلاق القنابل على أسوار القلعة حتى تهدمت، ودخلت العساكر القلعة فلما دخلوها لم يجدوا فيها أحداً من النابلسيين ولا رؤسهم وسبب ذلك أن الشيخ قاسم مع كونه ظهر على المصريين فى الواقعة الأولى لم يخف عليه أن فوزه لم يكن إلا لعدم وجود المدافع وأنه لا يمكنه مقاومتها فهرب فى غلس الليل ومن معه من بقايا تابعيه والتجأوا إلى الصحراء فتبعهم إبراهيم باشا بعسكره حتى أدركوهم وأحاطوا بهم فلما رأى النابلسيون ذلك، وعلموا أن لا مناص لهم من الموت ألقوا سلاحهم وسلموا أنفسهم إلى إبراهيم باشا.

أما الشيخ قاسم وأولاده وبقية زعماء الثورة فتمكنوا من الهرب ثانية واختفوا عند عرب (عنز) النازلين بين مصر والشام ولعلم هذه القبيلة بأنها لو أخفت الشيخ المذكور وعلم بذلك إبراهيم باشا لأوقع بهم أشد العذاب وصارم العقاب بل ربما كان ذلك سبباً فى هلاك أغلب أفرادها إن لم نقل الكل فتقرّبوا من إبراهيم باشا بأن قبضوا على الشيخ المذكور ورفقائه وسلموهم إليه.

وبعد أن طيف بهم فى أنحاء فلَسطين ليكونوا عبرة لمن يعتبر أمر بقطع رؤسهم وكانوا ستة فقتل ثلاثة منهم ومن ضمنهم الشيخ قاسم فى مدينة أوريشَلم التى كان مبدأ الثورة منها، واثنان فى (عكّا) والسادس فى دِمَشق وانتهت بذلك

الفتنة الشامية الأولى وثبت قدم المصريين فى البلاد الشامية ولم تزل ملتحقة بمصر تابعة لها حتى تداخلت الدول الأورباوية عقب وقعة (نصيبين) التى انتصر فيها المصريون نصراً مبيناً وألزمت محمد على باشا بردّ الشام إلى الدولة العثمانية، كما كانت وسيجئ مفصلا إن شاء الله.

ولقد لام بعض المؤرخين الأمير إبراهيم باشا على تعريض نخبة جيشه للموت من الجوع والعطش والحرارة فى اقتفاء أثر الشيخ قاسم، وفاقهم أنه لو تركه وشأنه لعثا فى الأرض فساداً وحمل ذلك الشاميون على عجز منه وتجرؤا على اقتراف المنكرات بل ربما كان ذلك سبباً لحصول عصيان عمومى يؤدى إلى سفك دماء المصريين أكثر مما يسفك فى قطع دابر مثل هذا الشيخ.

وبعد أن استتب الأمن فى ربوع البلاد الشامية أخذ إبراهيم باشا فى تنفيذ أوامر والده التى كانت سبباً فى هذه الثورة الجزئية، فأمر أولاً بترع السلاح من السكان كلهم بدون استثناء أو تمييز بالنسبة للجنسية أو للدين فأطاع الشاميون[1] ولو مع التذمر خشية أن يحل بهم ما حل بالشيخ قاسم من البلايا وينزل بهم ما نزل به من الرزايا وبعد ذلك أمر بتحصيل الضريبة التى ضربت على الشاميين بدون تمييز بين صغارهم وكبارهم وأمرائهم وصعاليكهم فتذمر من ذلك الفقراء والرعاة الذين كانت الدولة العلية لا تطالبهم بشئ ما، خصوصاً المسلمين منهم، فإن الضرائب كانت تضرب على النصارى واليهود لا غير، ولما كانت تلك الضريبة لا تفى بحاجات الحكومة كانت تصادر الولاة والصناجق فتسلب منهم ما جمعوه فى مدّة ولايتهم من النهب والإغتصاب، وبذلك كان المسلمون من السكان راضين بهذه الحالة وكرهوا الضريبة المصرية لمساواتها بين السكان بدون نظر إلى معتقدهم نعم إنه ربما كان الأولى بالحكومة المصرية وقتئذ أن تراعى عوائد البلاد وطباع أهلها ثم تصلح كيفية ضرب الأموال وتوزيعها على الأهالى شيئاً فشيئاً، لكنه لا يجوز من جهة أخرى أن

[1] إنما عبرت فى هذا الكتاب بلفظ الشاميين ولو لم يكن هناك أمة شامية لعدم تكرار أسماء الأمم والملل المختلطة الأجناس المختلفة الأديان القاطنة بأرض الشام.

الأمة المصرية تقوم بكافة مصاريف الجيش والإدارة مع ما هى عليه من الفاقة والفقر المدقع الناشئ من تسلط المماليك عليها أحقاباً متوالية بل من العدل أن كلاً من الأمتين الشامية والمصرية يشترك فى مصاريف ما يلزم للحكومة كما أنهما يشتركان فى التمتع بخيراتها والإستظلال بظلال الأمن الشامل للولايتين.

وعلى كل حال لم تصادف الإدارة المصرية فى تحصيل هذه الضريبة من الصعوبات ما لاقته فى إدخال الشاميين فى الخدمة العسكرية فإنه أدخل منهم فى الجيش المصرى ثمانية عشر ألفاً ما بين دروز وموارنه ومسلمين وغيرهم من كل الشعوب والأجناس وهو الأمر الذى ازدادت به كراهة الشاميين للإدارة المصرية، وذلك لأن الدولة العثمانية ما كانت تدخلهم فى العسكرية كرهاً بل كانت تكتفى بمن يدخل بإختياره من سكان جبل لُبنان وكان يندرج منهم سنوياً فى الخدمة العسكرية ألف لا غير، ومما كان سبباً فى زيادة كراهة الشاميين للأمة المصرية عدم الإنتظام فى أخذ الشبان كما هو جار الآن فى مصر وسائر الدول المتمدنة بأن يخدم الشاب مدة معينة ثم يعود إلى أوطانه، ويكون أخذه بطريق القرعة مع المساواة بين كل الأفراد، بل كانت الطريقة المتبعة فى أخذهم أن يدخل الضابط المعين لذلك فى القرى ويختطف الشبان بالقوة وربما لم يتم له ذلك إلا بعد مقاومة عنيفة يكون من ورائها أحياناً قتل بعض من الفريقين ولقد ذكر أحد من كانوا فى معية البرنس (دى جوانفيل) نجل "لويس فيليب" ملك فرنسا حين كان سائحاً فى البلاد الشامية أثناء احتلال المصريين لها أن الحرس الذى كان معيناً لحراسته أثناء جولانه فى جبال لُبنان كان كلما يرى فى طريقه شابا قوّى البنية صالحاً للخدمة العسكرية ضبطه وأرسله مع بعض الجند إلى أقرب ألاى ليلحقه به دون أن يعلم أقاربه بذلك، ولا غرابة فى مثل هذا فإن هذه الطريقة كانت متبعة فى مصرنا أيام محمد على باشا ومن بعده ولم تبطل إلا من عهد قريب.

ولقوّة المصريين إذ ذاك وعدم تهاونهم فى المجازاة على أقل عصيان بأشد العقاب، لم يجسر الشاميون على شق عصا الطاعة بل سلموا أسلحتهم وصار يرد إلى (بيروت) و (صيدا) وغيرهما عدد عظيم من الأسلحة النارية والبيضاء بل ومن المدافع التى كان يحتمى تحت ظلها سكان جبال لُبنان وكان من أهم المساعدين للمصريين فى تنفيذ هذا الأمر فى لُبنان الأمير بشير، فإنه بذل ما فى وسعه لإرضائهم خوفاً من أن يحل به ما حل بالشيخ قاسم المتقدم وأعوانه مع علمه بأن ذلك يوغر عليه صدور اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم من مسيحيين ودروز لكنه آثر إرضاء المصريين على إرضاء مواطنيه وبقى على ولائهم حتى تقلص ظل إدارتهم وسلبت منهم البلاد الشامية بواسطة تداخل الدول الأجنبية عموما والدولة الانكليزية خصوصاً.

ولقد بذل الأمير بشير جهده فى تنفيذ أوامر إبراهيم باشا وإخماد الفتن الجزئية التى تظهر فى القرى لكن لم يجد اهتمامه نفعا بل ازداد الهياج شيئاً فشيئاً، وانتهز الأتراك هذه الفرصة لبث رسلهم فى سائر الأنحاء وتحريض الجبليين على القتال وخلع طاعة المصريين، الذين تمتعوا فى مدة حكمهم بالراحة والطمأنينة مما لم يروا ولن يروا مثله ومما قوّى نفورهم من الإدارة المصرية وعد رسل الدولة إياهم بمعافاتهم من الضرائب والخدمة العسكرية ومنحهم الإستقلال الإدارى فاغتروا بهذا ونزعوا إلى العصيان، ومن الغريب أنهم لما هموا بالعصيان ظهر أنهم لم يسلموا من سلاحهم إلا القديم العادم النفع وأخفوا الصالح الجيد ليستعملوه ضدّ المصريين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم منعوهم عن قطع الطرق ونهب أموال ساكنى الأودية والسهول، الذين لا قدرة لهم على الدفاع واقتفاء أثرهم لإلتجائهم إلى جبالهم الشامخة الصعب الوصول إليها لعدم وجود الطرق، ولقد تنبه إلى هذا الأمر إبراهيم باشا وعلم أنه لا يمكنه إدخال هؤلاء الجبليين فى طاعته إلا إذا فتح الطرق السهلة لمرور الخيالة والمدافع ولذلك أمر المهندسين بإنشاء ما يلزم من الطرق المتسعة المنتظمة على حسب الأصول الهندسية مع

مراعاة تخفيف الميل كى يسهل جرّ المدافع الضخمة عليها وتوجيهها إلى حيث يلتجئ العدوّ.

ولكى لا تصل الأسلحة والبارود الذى كان يرسل إلى الثائرين مدداً لهم، أمر إبراهيم باشا أيضاً بمنع دخول السفن التركية إلى ميناء الشام وعدم ورود القوافل من جهات الأناضول فساء ذلك الأتراك وسبب ضرراً عظيماً للتجارة لكن إبراهيم باشا رأى المصلحة فى ذلك وآثر أخف الضررين وأهون الكربين.

ثم استدعى سليمان باشا من (حبرون) وكلفه بتمرين من يرد من مصر من العساكر وبإرسال الشاميين الذين أدخلوا فى العسكرية إلى مصر إذ كان محمد على باشا يرسلهم إلى مصر العليا أو إلى السودان بصفة محافظين خوفاً من أن يحصل منهم ما يضر بإخماد الثورة لو بقوا فى بلادهم ولا يخفى ما فى ذلك من الحكمة والتبصر فى عواقب الأمور.

هذا ولما رأى محمد على باشا أن المدارس التى أنفق عليها المال الكثير لحسن ترتيبها وليتعلم فيها جيل جديد من المصريين يشب على الأفكار الحديثة ويكونوا عوناً له ولخلفائه من بعده فى بث التمدن فى القطر المصرى قد أخذت فى الإنحلال بسبب سفر أغلب الأساتذة الأورباويين، طاعة لطلب الساعين فى عدم تقدم مصر الذين لا يريدون إلا أن تكون ملقاة فى بحار الجهل ظناً منهم أن لا يقوم أحد من المصريين مقامهم فى ذلك، استدعى سليمان باشا من الديار الشامية وكلفه بملاحظة شئون المدارس وكل ما يكون سبباً فى ترقيها إلى أوج التقدم حتى تأتى بالغاية المقصودة فلبى دعوته وعاد إلى مصر وأخذ فى ترتيب المدارس على أحسن نظام خصوصاً المدارس الحربية والبحرية ولم يعقه فى طريقه معارضة الجهلة من حاشية الوالى، لمساعدة الوالى نفسه له.

وحين كان يشتغل سليمان باشا فى القاهرة بمثل هذه الأشغال السلمية كان رشيد باشا القائد العثمانى الذى أخذ أسيراً فى واقعة (قونية) كما تقدم مشتغلاً

بجمع الجيوش والكتائب فى بلدة (سيواس) بارمينيَة ليحارب المصريين ويقهرهم كي ينمحي ما لحقه من العار والخزى والبوار فى واقعة (قونية) ثم تقدم بتلك الجيوش إلى مضايق جبال (طوروس) منتظراً للفرصة المناسبة للإنقضاض على البلاد الشامية واختطافها من قبضة الحكومة المصرية ولا يخفى ما للموقع الذى نزل به من الأهمية العسكرية والحربية لأنها نقطة ملتقى الطريق للآخذ من جبال (طوروس) إلى وادى الدجلة والفُرات، فضلاً عن نقاوة وصفاء هواء هذه الجهة المرتفعة وكثرة وجود الماء العذب بها مما يكون الجيش بسببه آمناً من الأمراض المعدية التى كثيرا ما تنشأ فى الجيوش المجتمعة لما يتخلف عنهم من الأقذار والوخامة ولم يكن القصد من جمع هذا الجيش الجرّار إلا تشجيع أهل الشام على العصيان للتخلص من عدل الحكومة المصرية والعود إلى الإستبداد.

ولما فطن الشاميون إلى هذه الغاية ازدادوا عتواً وكادوا ينشرون لواء العصيان جهاراً فلما علم إبراهيم باشا بذلك أخذ الإحتياطات اللازمة لصدّهم لو أرادوا الهجوم عليه ولمهاجمتهم إذا اقتضى الحال ذلك، فأرسل حامية قوية إلى مدينة الَرقة الواقعة على شاطئ الفرات لمنع مرور العثمانيين لو أرادوا عبوره وكذلك أرسل العدد الكافى من الجند إلى جهات (أورفه) و(حَلب) و(أنطاكية) وفرّق ما بقى من جيشه بهيئة سيارات صغيرة تطوف فى كل أنحاء البلاد لمجازاة القرى التى تتأخر فى تأدية الخراج، أو تعارض الحكومة فى إجراءاتها وبذلك خمدت الثورات الداخلية الصغيرة وعلم الكل أن ما هم فيه من شق العصا والإنحراف عن الحكومة المصرية غرور وأن الأوفق موالاتها ما لم تسع الدولة العلية بالفعل فى مساعدتهم مادّياً وجعل إبراهيم باشا مركزه وأركان حربه فى مدينة أنطاكية[١] مفضلا لها عن مدينة حلب لرداءة هوائها وقلة مياهها وتعرضها دائما إلى الأوبئة والأمراض المعدية.

[١] مدينة بتركية آسيا تبعد عن حلب بمائة كيلومتر وعن البحر المتوسط بثلاثين كيلومترا كانت فى أيام الرومانيين أحسن مدينة بالشرق وبلغ عدد سكانها فى عهدهم سبعمائة ألف شخص ثم فتحها العرب فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وتنازعها المسيحيون والمسلمون أيام الحروب الصليبية التى انتهت بانتصار الإسلام وبقيت مدة تابعة لمصر مع بلاد الشام إلى أن فتحها السلطان سليم العثمانى سنة ١٥١٦.

ولتمهيد ما سيأتى ذكره من الحوادث السياسية التى أوجبت تداخل الأوروباويين فى المسألة المصرية ضد محمد على باشا منعا لوقوع أهم الولايات العثمانية فى قبضته وبالتالى من عدم تمكنهم منها فى المستقبل نقول:

إن حكومة فرنسا كانت فى ذلك العهد حكومة ملكية مقيدة تقييداً كلياً وكان يكفلها إذ ذاك (لويس فيلبس) الذى ارتقى على أريكة الملك عقب هياج الأمة على (شارل) العاشر وعزلها له وطردها إياه فى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٣٠ لأنه كان شديد الميل كثير الرغبة إلى الإستبداد والحكم بدون مشورة الأمة أى الرجوع إلى ما كانت عليه فرنسا قبل الثورة العظمى وضياع كل ما حصل عليه الفرنساويون من الحرية بعد سفك دمائهم فى محاربة سائر ملوك أوربا، ولما ولى (لويس فيلبس) أجاب إلى كل ما طلبته منه الأمة من كونه يكون ملكاً مالكاً لا حاكماً وأما الأحكام فتكون بيد الوزراء وأعضاء مجالس النوّاب ولما لم يكن لمعظم الفرنساويين ما يلزم لمثل هذه المهمة من الحنكة والتجارب ولو أنه كان منهم فى ذلك الحين رجال سياسيون محنكون مثل (تيرس) وجيزو[1] وغيرهما إلا أنهم كانوا ملزمين بإتباع ما يقرّره أعضاء مجالس النوّاب حتى فى الأمور السياسية التى يلزم كتمانها، ولذلك كانت فرنسا حينئذ بمعزل عن جميع الدول الأوروباوية ما عدا انكلترا، فإنها كانت تظهر لها التودد لمصالحها التجارية فضلاً عن ميل الفرنساويين لمساعدة كل أمة تسعى للحصول على الحرية والإستقلال وهذه الحاسيات[2] لا تذم على كل حال بل تمدح فى حدّ ذاتها.

(١) ولد المسيو جيزو سنة ١٧٨٧ واشتهر من حداثة سنه بالتضلع فى فن التاريخ وله فيه مؤلفات كثيرة أهمها تاريخ التمدن فى فرنسا وأوربا وتاريخ الثورة الإنكليزية (١٦٨٨) ودخل الوزارة فى عهد الملك لويس فيليب بصفة ناظر للمعارف العمومية ثم تعين سفيراً لفرنسا لدى حكومة انكلترا ولم يمكنه أثناء سفارته منع انكلترا من الإتحاد مع الدول على محمد على باشا فى يوليو سنة ١٨٤٠ ثم تعين وزيراً للخارجية فى أكتوبر من هذه السنة واستمر فى هذه الوظيفة إلى فبراير سنة ١٨٤٨ حيث طرد الملك ونودى بالجمهورية بفرنسا فسافر جيزو إلى انكلترا واستمر فى تأليفه حتى توفى فى شهر سبتمبر سنة ١٨٧٤.

(٢) هكذا فى الأصل المحرر.

ولم يكن لمحمد على باشا مساعد من الدول الأوروباوية إلا فرنسا التى تبذل جهدها دائماً مع كل أمة تحارب وتناضل للحصول على الإستقلال فلولا مساعدتها لما كانت مملكة اليونان كما سبق لنا بيان ذلك، ولم تكن مملكة البلجيك ولا إيطاليا المعدودة الآن من الدول العظمى وهى التى ساعدت الولايات المتحدة الأمريكية على التخلص من ربقة الحكومة الإنكليزية إلى غير ذلك مما لا يحصى من مساعدة الشعوب المضطهدة التى حاربت لأجل استقلالها ولم تنجح.

ولما رأى محمد على باشا أنه لا يمكنها مساعدته ما دامت الدول الأخرى معارضة لها لاسيما وأن القابضين والمستولين على أزمة الأحكام فى هذه الدول هم أشهر رجال هذا العصر فكان اللورد (بالمرستون)[1] وزير خارجية انكلترا والكونت (دى نسلرود) وزيراً للروسية والمسيو دى مترنيخ[2] الشهير وزيراً للنمسا على حين كانت وزارات فرنسا تتابع وتسقط دون أن يكون لها خطة سياسية تجرى عليها فاتح وكلاء الدول بمصر فى شأن مشروعه لكنه أظهره بطريقة أخرى مآلها إبرام تحالف على منع من يريد من الدول التعدى والطمع فيما بيد غيره وأن يقدّم جيوشه وبحريته إذا اقتضى الحال لنجاح هذا التحالف ويطلب فى مقابلة ذلك أن يستقل بمصر والشام وبلاد العرب وأن تكون هذه الأقطار له ولورثته مؤبدة.

[1] ولد سنة ١٧٨٤ وتعلم بكلية كمبردج ودخل مجلس العموم وجلس مع المحافظين ثم انضم إلى الأحرار سنة ١٨٣٠ تقريبا ثم ترقى إلى أن صار وزير الخارجية انكلترا من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤١ ومن سنة ١٨٤٦ إلى سنة ١٨٥١ ومن سنة ١٨٥٥ إلى سنة ٥٨ ومن ٥٩ إلى ٦٥ تبعاً لتعاقب الأحزاب على منصة الأحكام وتوفى سنة ١٨٦٥ واشتهر مدة وزارته الأولى بمعاكسة محمد على باشا وبالثانية بمعاداته للروسيا وإثارة حرب القرم عليها.

[2] ولد البرنس دى مترنيخ سنة ١٧٧٣ بمدينة كوبلنس من أعمال ألمانيا ودخل من صغره فى الوظائف السياسية فتقدم تدريجا إلى أن عين سنة ١٨٠٩ وزيراً أولاً لخارجية النمسا واستمر فيها إلى سنة ١٨٤٨ وتوفى سنة ١٨٥٩ واشتهر بمضادته دائماً للحركات الثورية وبمعاكسته لفرنسا وإرجاع أوربا إلى الملكية المطلقة.

فأدهش هذا المشروع وكلاء الدول ولم يردّوا عليه جواباً بل استمهلوه حتى يخاطبوا الدول التى هم تابعون لها وبعد قليل أجابوه بنهيه عن التعلق بأهداب هذا المشروع.

هذا ولما علم الباب العالى بما جرى بين والى مصر والدول وكيف قابلت الدول مشروعه وتحقق أنها لا تعارضه فى إرجاع مصر تحت سلطته كما كانت بل ربما ساعدته على ذلك، أخذ فى توجيه أفكاره نحو جبل لبنان ليتسنى له الدخول فى مسألتهم وأرسل عدداً عظيماً من الجند إلى معسكر (سيواس) لكن لم ترد فرنسا ذلك بل طلبت من الباب العالى أن يرسل إلى مصر أحد من يعتمد عليهم للمخابرة مع وإليها فى طريقة فيها رضا الطرفين، وذلك أولى من استعمال القوّة لأول وهلة فإنه أمر لا يكون وراءه إلا اثارة نار الحرب وسفك دماء العباد بدون فائدة ولا عائدة، فرضى الباب العالى بذلك وأرسل أحد مستخدمى خارجيته المدعو (ساريم بيك) إلى والى مصر لهذه الغاية فقابله بكل بشاشة وإيناس وأظهر له خضوعه إلى الدولة العثمانية وأخبره بانه لم يكن فى عزمه الإتيان بأى أمر يكون بسببه تغيير الحالة الحاضرة، فسرّ من ذلك مندوب الدولة العلية ورغب منه أن يتوجه معه إلى دار الخلافة ليتفق بنفسه مع جلالة السلطان محمود خان[1] على ما يكون عليه السير فى المستقبل فلم يقبل منه ذلك البتة لعلمه أن فى سفره إلى اسلامبول ما يكره، فعرض عليه حينئذ (ساريم بيك) أن يعطى ولايتى مصر والعرب وتكونا له ولذريته إلى ما شاء الله وبلاد الشام أيضاً إلى جبال (طوروس) مدة حياته وأن يدفع للدولة خراجاً سنوياً

[1] هو السلطان محمود الثاني ولد سنة ١٧٨٥ ولاه رئيس الإنكشارية المدعو (مصطفى بيرقدار) بعد عزل وقتل السلطان مصطفى الرابع سنة ١٨٠٨ حارب الروسية وتنازل لها عن إقليم (بساربيا) بمقتضى معاهدة بوخارست سنة ١٨١٢ واستقل الصرب والإفلاق والبغدان (رومانيا) فى أيامه وأذعن أيضا لإستقلال جزائر اليونان سنة ١٨١٩ ثم فى سنة ١٨٢٨ انسلخت بلاد مورة وما جاورها عن الدولة العلية بعد حرب استمرت ثمان سنوات وتشكلت بهيئة حكومة ملكية مستقلة تحت حماية الدول وحارب الروسيا ثانى مرة فانهزم وأمضى معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ - ومن سنة ١٨١٩ إلى سنة ١٨٢٢ ثار عليه على باشا والى يانينا فقتله وفى سنة ١٨٣١ أخذ منه محمد على باشا بلاد الشام فأبرم مع الروسيا معاهدة انكار اسكله سى وأباح لها حق إنزال عسكريتها بأرضه لحمايته ثم هزم المصريون جنده فى واقعة نصيبين سنة ١٨٣٩ وتوفى بعد ذلك بأيام قلائل ومن مآثره أنه أبطل جيش الإنكشارية سن ١٨٢٦ وقتل أغلبهم وسعى فى إصلاح داخليته وهو أول من استبدل العمامة والملابس التركية بالطربوش الرومى والملابس الأوربية.

يكون للسلطان حق تقديره، فقبل ذلك منه وكان ذلك فى أوائل سنة ١٨٣٧ وتم الإتفاق بينهما على ذلك وعاد المندوب إلى الدولة بهذا الوفاق.

ولكن لم يقبل الباب العالى هذه الشروط كلها بل تراءى له أن لا يعطيه فى الشام إلا ولايتى (صيدا وطرابُلس) إلى مفاوز جبال (طوروس) وتكون تلك الجبال تابعة للدولة حتى يمكنها بذلك، متى سنحت لها الفرصة، أن ترسل جيوشها إلى مصر بدون أن يكون لها فى الطريق معارض ولا منازع فلما وصل هذا الخبر إلى محمد علي باشا علم أن لا سبيل إلى الإتفاق بالطرق السلمية، وأنه لابد من الحرب عاجلاً أو آجلاً فأعلن لقناصل الدول أنه لا يقبل هذه الشروط وأنه عازم على المحافظة على كل ما فتحه بكل ما فى وسعه وأن لا يسلم شبراً من الأرض التى احتلها إلى الدولة العلية طائعاً وأنه لا يترك مملكته عرضة لإغارات العساكر العثمانية بتسليمهم مضايق جبال (طوروس)، التى لم يستول عليها إلا بشق الأنفس وبذل الأرواح وإضاعة الأموال وأنه لو تنازل عن ذلك لعدّ نذلاً جباناً لا يصلح أن يكون حاكماً.

ثم أخذ فى الإستعداد للقتال وأرسل كمية عظيمة من الأسلحة والمدافع إلى جهات الشام ليظهر للباب العالى عزمه على المدافعة عن جميع ما فتحه من البلاد وأنه لا يروعه تهديد ولا وعيد وأعلن لقناصل الدول أنه سينادى باستقلاله هو وورثته بالبلاد التى احتلها الآن، وأنه على أى حال لن يدفع للدولة العلية شيئاً قط من الخراج فارتجت لهذا الخبر وزارات أوربا على الخصوص الوزارة الإنكليزية وأيقنوا أنه لابد من فتح باب المسألة الشرقية إن لم يُتدارك هذا الأمر قبل تفاقمه وأن الأولى تلافى تلك المسألة التى ربما تكون نتيجتها إثارة نار الوغى بين دول أوربا أجمع لإختلافهم فى حل هذه المسألة وتباين مشاربهم فيها، فأرسلت الحكومة الإنكليزية إلى محمد على باشا بلاغاً تخبره به أنه لو صمّم وأصرّ على تنفيذ مشروعه ونشأت عن ذلك حرب بينه وبين الباب العالى

فتكون حكومة الملكة[1] مضطرة لإستعمال القوة ضده، وتصدّه عن الباب العالى لو اقتضى الحال وأنه لا يغترّ بعدم اتفاق الدول فى المسألة الشرقية فإن ذلك لا يكون مانعاً لإدخاله فى طاعة دولته، لو رغب الخروج عنها وأيد هذا الكلام ما ورد إليه من باقى الدول من التهديدات.

سفر محمد على باشا إلى بلاد السودان:

لكن محمد على باشا لم يعبأ بكل ما ورد إليه من هذا القبيل وبينما وزراء الدول ينتظرون ما يأتى به جوابه إذ ورد عليهم نبأ سفره إلى جهات السودان للبحث عن معدن الذهب وترك حكومته كأنها لم يكن بها شئ من التهديدات، ويحكى عنه أنه قال لو وجدت الذهب فزت بالأرب ونلت المراد بدون تداخل الدول لكن هذه العبارة تحتاج إلى إثبات.

* * *

عصيان أهل الشام ثانى مرة:

لا يخفى ما فى هذه الرحلة من الأخطار على حكومته المصرية من انتهاز الشاميين فرصة غيابه للإذعان إلى الثورة وشق عصا الطاعة لا سيما وأن أعداءه من الخارج كانوا يترقبون الفرص لبث الفتنة والفساد فى بلاد الشام وكان الأمر كذلك، فإن محمد على باشا لم يجتز بلاد (دنقلة) حتى ورد إلى (باغوص بك) الذى كان قد فوّض إليه إدارة البلاد فى أثناء تغيب ولى نعمته خبر عصيان سكان جبل لبنان وما به وبجواره من الأمم المختلفة بين دروز ونصيرية ومارونية وتقدم العساكر الشاهانية إلى التخوم بعلة أنهم يريدون معاقبة بعض قبائل الكرد المشهورين بالعبث فى الأرض حتى الآن ومن الغريب أن سائر أعضاء العائلات الشريفة فى الجبل كانت محافظة على الولاء للحكومة المصرية ولم يقبل أحد منهم أن يكون رئيساً لهذه الثورة التى لم تكن ناشئة عن تذمر

[1] هي الملكة فيكتوريا ولدت سنة ١٨١٩ وتولت سنة ١٨٣٧ ولم تزل حاكمة إلى يومنا هذا. (أى إلى عام تأليف الكتاب المحرر).

الأهالى من جور أو ظلم بل سببها الوحيد إلقاء الدسائس بينهم من الخارج قصد إرجاع محمد على باشا إلى حدود مصر أو اغتياله، وأنىّ لهم ذلك وهو شهم متيقظ لما يراد منه قابض على زمام الأحكام بهمته المشهورة وعزيمته المشكورة وبطشه الشديد ورأيه السديد. ولما بلغ إبراهيم باشا، وكان لم يزل مقيماً بالبلاد الشامية بصفة حاكم أعلى، خبر هذه الثورة أصدر أوامره المشدّدة باقتفاء أثر الثائرين وبمجازاة من يؤخذ منهم أسيراً بأشد العذاب وأصرم العقاب، لكنه لم يلبث أن طلب المدد من مصر لشدة بأس الثائرين فى هذه المرة وتسلحهم بالسلاح المتقن فطلب من باغوص بيك أن يرسل إليه سليمان باشا مع ما يرسله إليه من العدد والعدد، فبذل باغوص بيك جهده فى كل ما أمكنه جمعه من العساكر المدرّبة وأرسلهم إليه ليتمكن من إخماد الثورة قبل تفاقم الخطب.

فبمجرد وصول سليمان باشا ومعه المدد إلى الشام أمكن إبراهيم باشا تحصين البلاد الواقعة على التخوم كأنطاكية وحلب وأورفه، وبعد أن وثق بمناعة تلك البلاد وعدم تمكن الأتراك من مهاجمتها بغتة عاد إلى جهة الجنوب حيث اجتمع مع سليمان باشا لإخماد الثورة التى كانت قد أخذت فى الإزدياد لما سمع الثائرون أن الدولة العلية عازمة على إرسال عساكرها لمهاجمة المصريين.

فكانت جبال لُبنان كشعلة نار ولم يبق فيها أحد محافظ على ولاء الحكومة المصرية فوجه إبراهيم باشا وسليمان باشا اهتمامهما إلى هذه الجبال الشامخة الوعرة المسلك الكثيرة القمم والأودية حتى قيل فيها أن كل نقطة منها تصلح أن تكون قلعة، وذلك مما جعل وصول العساكر إليها صعباً لا سيما الخيالة والمدفعيين، نعم إن إبراهيم باشا فتح عدة طرق تصلح لسير المدافع لكنها لم تكن بكافية للغاية المقصودة ومع ذلك دخل بجيشه فى بطن الجبل واقتفى أثر الثائرين إلى أعالى القمم وكانوا يفرون أمامه ليجرّوه على التوغل فى جبالهم، حتى إذا تركوا الطرق السهلة وتوغلوا فى المسالك الصعبة الوعرة انقضوا على المصريين من أعالى الجبل ورموهم بالرصاص من أعلى إلى أسفل فكانت تصيب المصريين

مقذوفاقم ولاتصيبهم مقذوفات المصريين[1] ولقد نجحت هذه الحيلة مع سكان جبل لبنان كما نجحت مع غيرهم من الجبلين فانقضوا على المصريين من كل فج ورموهم بالرصاص والحجارة حتى ألجؤهم إلى القهقرى وكانت هذه أول مرة تقهقر فيها المصريون أمام أعدائهم وهم تحت قيادة إبراهيم باشا وسليمان باشا.

ولما تيقن الرئيسان من عدم الجدوى فى الوقوف أمام عدوّ لا يمكنهم صدّه بل ولارؤيته، وقتل وجرح أغلب من كان معهما من الجند واستشهد نخبة الضباط وهلكت خيول المدافع، أصدر إبراهيم باشا أمره بالرجوع لإنقاذ من بقى، أولى من تعريضهم للموت على غير طائل وقال لو مكثنا على هذه الحالة المجهولة الطريق لكنّا قد ألقينا بأنفسنا إلى التهلكة وهذا أمر منهى عنه فسار إبراهيم باشا فى مقدمة الجيش وكلّف رفيقه وصديقه سليمان باشا بالسير ف المؤخرة لصدّ هجمات الجبليين عنهم ومعاكستهم فى حال رجوعهم فقام بهذه المهمة خير قيام وأمكن العساكر المصرية بعد العناء الشديد الخروج من هذه الجبال الشامخة حتى وصلوا إلى السهل وأخذوا فى حصر الموتى ومداواة الجرحى وترتيب الباقى وتنظيمهم وتحصّنوا حتى يصل إليهم المدد.

وبعد أن تمت هذه الإجراءات عقد إبراهيم باشا مجلساً حربياً دعى له سليمان باشا وكافة رؤس الجيش للمداولة فى أى الطرق يتخذ لتفريق شمل الجبليين وإدخالهم تحت الراية المصرية، فبعد مداولات طويلة قر قرارهم على استعمال الطريقة التى نجحت فى أول ثورة ضدّ الشيخ قاسم المتقدم وأبنائه وهى إلقاء الشقاق بين الثائرين، وحيث أن هذه الثورة لم يكن سببها إلا أخذ الشبان إلى العسكرية وتجريد الأهالى من السلاح وأن بعض الجبليين، وهم المارونية، ميالون إلى فرنسا، وهى مساعدة للحكومة المصرية فيعرض عليهم سليمان باشا الفرنساوى الأصل أن ترد إليهم أسلحتهم وأولادهم ويفهمهم أن فرنسا راضية

[1] هذه هي الطريقة الوحيدة التى يستعملها سكان الجبال لحفظ استقلالهم فى كافة الأنحاء المسكونة كما فى سويسرة والجبل الأسود بلوريا وأهالى الحبشة والقبائل القاطنة بجبال جزائر الغرب وأهالى اسكتلاندا ببريطانيا العظمى.

عن أعمال المصريين فى الشام ولا بد بعد ذلك من انفصالهم عن باقى الجبليين من دروز ونُصيرية لما بينهم من الضغائن القديمة التى لم يتناسوها إلا لمحاربة المصريين مع بقائها فى صدورهم كامنة.

وعند سماع المارونية بتساهل المصريين معهم فى هذين الأمرين الأصليين عادوا إلى السكينة وفرق عليهم إبراهيم باشا كثيرا من الأسلحة والرصاص فاتحدوا معه وأتى فريق منهم إلى معسكره ليرشدوه إلى الطرق الجبلية المؤدية إلى مكامن الدروز والتى لا يعقلها إلا العالمون بها من سكان الجبال، وسلموه أهمّ النقط التى كانت بأيديهم وتمكن المصريون بهذه الكيفية من الوصول إلى تلك المكامن فهاجموا الدروز فى معاقلهم وحصونهم وكان المارونية يحاربونهم مع المصريين بعد أن كانوا ضدّهم قبل ذلك بقليل، وذلك مشاهد الحصول فى كل جهة لم تربط أهلها وحدة الجنسية إن لم تربطهم الوحدة الدينية فيتمكن الأجنبى من دخول بلادهم بدون كثير عناء فما لا ينال بالسلاح ينال بالخداع "والحرب خدعة" وقد تمكن المصريون بعد عدة مناوشات، كان الفوز فيها دائما لهم، من إخضاع الدروز وإلزامهم بالطاعة وإدخالهم تحت رايتهم لكن لم يحصل المصريون على هذا الفوز العظيم إلا بعد أن قتل من جنودهم عدد عظيم وتحمّلوا ما لا يوصف من المصاعب ولا يطاق من المتاعب، فضلاً عن مكابدة أنواع المشاق فى التسلق على هذه الجبال الوعرة التى لولا مساعدة المارونية لهم لما أمكنهم الوصول إلى معرفة مفاوزها.

واقعة نصيبين:

وفى أثناء هذه المدة توفى بمعسكر (سيواس) القائد التركى رشيد باشا الذى هزمه المصريون فى واقعة (قونية) قبل أن يأخذ بثأره ويمحو ما لحقه بسبب ذلك من العار، وعهدت قيادة هذا الجيش إلى حافظ باشا أحد قوّاد الدولة العلية الذين امتازوا فى الحروب بالثبات والرزانة والأمانة والتبصر فى عواقب الأمور.

ولما انتشر فى أوروبا خبر فشل الدروز وانتصار المصريين عليهم اضطربت الدول وأرسلت إلى الباب العالى تستنهض همته لمحاربة المصريين والمبادرة إلى استخلاص البلاد الشامية من أيديهم خوفا من تقدمهم إلى بلاد الأناضول إذا استتب الأمن فى بلاد الشام وهدأت الدروز وأبانت له الدول أيضاً مضار استفحال أمر محمد على باشا وأنه يخشى من أن ينادىَ باستقلاله لو لم يسرع الباب العالى فى جعل مصر مثل الولايات الشاهانية، فأصغى الباب العالى إلى هذه الآراء التى ربما كانت مبنية على غايات شخصية، ومال مع الدول وأوعز إلى حافظ باشا أن يتقدم إلى تخوم الشام من الجهة التى يسهل عليه الدخول منها فأسرع حافظ باشا بالتقدم إلى الأمام معللاً نفسه بالنصر على المصريين وردّ ما فقدته الدولة العلية فى واقعة قونية وما قبلها.

ولما كانت مضايق (طوروس) قد حصنها المصريون بالقلاع والمدافع الضخمة على أحسن أسلوب وأتم نظام بهمة من استخدمهم عزيزهم من المهندسين الأجانب، وصار يتعذر بل يستحيل على أى جيش المرور منها، اقترب حافظ باشا من جهة ديار بكر وأورفه، حيث يمكن للمهاجم الدخول إلى البلاد التابعة للحكومة المصرية بسهولة لإتساع السهول فى تلك الجهة وعدم وجود جبال يمكن تحصين مسالكها كجبال (طوروس) ولما علم إبراهيم باشا بذلك جمع معظم جنوده ومدافعه حول مدينة حلب كي يتيسر له صد المهاجم من أى جهة أتى. وأما حافظ باشا فارتكب خطأ عظيماً ظن أن فيه النصر، مع أنه كان سبب انكساره، كما سيأتى مفصلا إن شاء الله، وهو تجزئه جيشه إلى عدة فرق ليغير على بلاد الشام ويتعدى حدودها من جملة نقط فى آن واحد ولما ذاع خبر تقدم الجيشين أمام بعضهما واستعدادهما للقتال طمحت أبصار دول أوربا إلى ما يكون وراء هذه المعركة من النتائج المهمة التى ربما انقلب بسببها التوازن الشرقى، وصارت السلطة فى يد محمد على باشا وانتقل مركز الخلافة من القسطنطينية إلى القاهرة.

هذا ولقد عاد محمد على باشا عند ذلك من بلاد السودان بدون أن ينــال الغاية المقصودة من اكتشاف معدن الذهب الذى كان يعود عليه بأرباح وافــرة نعم أنه عثر على عدة معادن لكنه رأى أنها تحتاج إلى مصاريف باهظة ربما زادت عما يستخرجه منها من الذهب ولذلك عدل عن استعمالها وصرف وجهــه إلى تنظيم إدارة السودان واثقاً بأنه لو اعتنى بإدارتها وتنمية ثروة أهلها ربما عــادت على الحكومة المصرية بأضعاف ما تربحه من معادن الذهب.

* * *

وبمجرد عودته أحدقت به قناصل الدول لمعرفة أفكاره مــن حيــث تقــدم الأتراك وما هو عازم على فعله لو هاجمته الجيوش العثمانيــة، فكــان يجــاوبهم بأجوبة مرضية لهم ومطمنة لخاطرهم وما زال يؤكد لهم أن جل بغيتــه حفــظ السلم ليتمكن من نشر أسباب التمدن فى بلاده، ولكن كان فى أثناء إعطائه لهم هذه التأكيدات يرسل الجند والذخائر إلى ولده إبراهيم باشا وأوامره المــشدّدة بأن يكون دائماً مستيقظاً ومستعدّاً لصدّ هجمات من يتعدى عليه وبأنه لا يــردّ القوة بالقوة إلا إذا تعدَّت العساكر الشاهانية إلى تخوم الحكومتين، وبأنه لا يبدأ أصلاً بالهجوم بل يتربص فى معسكره ينتظر ما يطرأ عليه من الحوادث حــتى لا يكون هناك وجه لأوربا تنسبه به إلى التعدى والطمع وحب الإتساع ولا يكون لها وجه أيضاً فى مساعدة الباب العالى عليه وكان ذلك فى أوائل سنة ١٨٣٩.

لكن لم يغتر الباب العالى بهذه التأكيدات السلمية بل أوعز إلى حافظ باشا أن يعبر الفرات ويستعد لمحاربة المصريين عند أوّل إشارة ترسل إليه، فــأمر حــافظ باشا من يدعى إسماعيل باشا أحد القواد التابعين له وكان معسكراً فى بلدة واقعة على الشاطئ الأيسر للفرات يسميها الأتراك (بلا جيــك) باجتيــاز الفــرات والإنتقال إلى الشاطئ الأيمن فلما وصل هذا الخبر إلى إبراهيم باشا فى يــوم ٢٣ إبريل سنة ١٨٣٩، أرسل الرسل إلى والده بمصر يستفهم منه عما يفعلــه لــو هاجمته الأتراك كما هو المظنون، وفى هذه الأثناء كان يرسل أوامره متتابعــه إلى

الجنود يدعوهم للاجتماع حول مدينة (حلب) خوفاً من مهاجمة الترك لهم على حين غفلة، وجمع إليه أعيان المدينة ومشاهيرها وأعلمهم بتقدم العساكر العثمانية نحو مدينتهم وطلب منهم أن يساعدوه، أو بالأقل أن لا يخونوه بتسهيل السبل للأتراك فأجابوه بلا تردد أهم يحافظون على ولائه ويدافعون معه عن مدينتهم إلى آخر رمق من حياقم فاطمأن خاطره واستراح باله وعلم أهم معه لا عليه، ولاجل أن يتحقق من موقع العدوّ أرسل فرقة مؤلفة من خمسمائة من العرب الذين يعتمد على صداقتهم وإخلاصهم له، وكلفهم بأن يخبروه بحركات الجيوش التركية حتى يكون على يقين من أمرهم وما هم عليه.

هذا ولما وصل خبر تقدم الأتراك إلى محمد على باشا أمر بجمع العساكر والذخيرة وأرسل إلى وزير حربيته المدعو أحمد المنكلى باشا لما كان يعهده فيه من الشجاعة والبسالة بأن يلحق إبراهيم باشا بالديار الشامية ليكون له عوناً وظهيراً فى الحوادث المنتظرة، فلما علم قناصل الدول بكل هذه الإستعدادات خافوا من سوء العاقبة واشتعال نار الحرب بين مصر والدولة العلية لوثوقهم بانتصار المصريين على الأتراك فتوجه قنصل فرنسا إلى محمد على باشا وطلب منه بإلحاح زائد أن يوقف سفر أحمد باشا المنكلى خوفاً من أن تعتبر الدول سفره هذا بمثابة رغبة فى القتال وربما أدى ذلك إلى معاكستها له ومساعدة الباب العالى عليه، وفى آخر المحادثة قال له القنصل أن مسئولية الحرب تقع على عاتقه لو أرسل أحمد باشا المذكور لأن الباب العالى لا يودّ إلا السلم الذى هو رغبة فرنسا، فأجابه محمد على باشا بأنه مستعد لا لعدم إرسال أحمد باشا فقط بل لإستدعاء إبراهيم باشا مع جيشه أيضا إذا ضمنت له فرنسا أن الترك لا يتقدمون نحو تخوم الشام، ففرح بذلك قنصل فرنسا وأبرز له رسالة صادرة من الأميرال (روسّان) سفير فرنسا لدى الباب العالى يخبره فيها بأن الباب العالى وعد فرنسا وعداً صريحاً بعدم الإبتداء بالحرب فنظر حينئذ محمد على باشا إلى قنصل النمسا وكان حاضراً هذه المحادثة وقال له أيمكنك أن تضمن لى السلم باسم دولتك كما فعل قرينك؟ فأجابه قنصل النمسا بالنفى، فحينئذ قال محمد

على باشا أن الواجب عليّ الآن أن أستعدّ للحرب لأنى متحقق من نوايا الباب العالى.

وفى اليوم التالى سافر أحمد باشا إلى حلب وكان وصوله بعد تسعة أيام وعلم القاصى والدانى بذلك وأنه لا بد من الحرب قريباً وصار الكل فى انتظار ما يترتب على هذه الحروب من النتائج، وما تفعل أوربا لو انتصر المصريون على الأتراك وأما الأتراك فإنهم جمعوا جيوشهم حول قرية صغيرة تدعى (نصيبين)، وهى نقطة مشهورة فى التاريخ بحسن موقعها الحربى، حتى أنها كانت دائما ملتقى الجيوش التى تنازعت ملك بلاد الشام من الأعصر الخالية إلى وقتنا هذا وهذه النقطة مهمة جداً لوقوعها على تلال مرتفعة يحفها من أسفلها نهر صغير يجرى من الشمال إلى الجنوب، صعب العبور لشدة جريان مائه وزيادة عمقه وهو نهر (قرسيم) وكذلك يحيط بها من جهة أخرى نهر آخر يجرى من الغرب إلى الشرق ويصب فى نهر قرسيم فيجتمعان ويجريان إلى نهر الفُرات.

ولو هاجم إبراهيم باشا الجيش التركى فى أثناء عبوره لنهر الفرات حين كان منقسماً على الشاطئين لأمكنه أن ينتصر عليه بكل سهولة لولا أن حالت بينه وبين بغيته هذه أوامر والده المشدّدة عليه بعدم الإبتداء بالهجوم. وكانت فى أثناء هذه المدة قناصل الدول تكثر من التردد على سراى محمد على باشا بشبرا لتبليغه كل ما يرد عليهم من دولهم فكانت الدول تارة تهدده بتداخلها لو ابتدأ بالحرب، وتارة تعده بأن تتوسط له عند الباب العالى ليعطى له ولايتى مصر والشام وتكونا له ولأولاده من بعده ولكثرة إلحاح القناصل عليه سافر إلى الوجه البحرى بقصد التفسح ولتسكين خاطر القناصل، وكتب إلى باغوص بيك ناظر خارجيته بالقاهرة جواباً من شبين بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٥٥ الموافق (٢ إبريل سنة ١٨٣٩) يخبره به أنه قد ورد إليه كتاب من ولده إبراهيم باشا من جهة الشام يقول فيه أن العساكر الشاهانية اجتازت الفُرات عند قرية (بلاجيك) ويظهر أن وجهتها مدينة حلب، وأنه كتب إلى ولده أن لا يهاجم

الجيش التركى بل يتربص فى مكانه حتى يهاجموه فيدافع عــن نفــسه بقــدر الطاقة.

لكن لم يهدأ بال القناصل بل توجه الموسيو (دى ميــدم) قنــصل جنــرال الروسية إلى دمياط ومعه رسالة وردت إليه بخط الموســيو (نــسلرود) وزيــر الروسية الأول يهدّد فيها محمد على باشا بالتداخل الحربى إن لم يصدر أمره حالاً برجوع العساكر المصرية من الشام ويعترف بتبعيته للباب العالى ويقبل كل مــا تقرّره الدولة بشأنه، فاغتاظ لذلك محمد على باشا لكنه كظم غيظه ووعد بــرد الجواب ثم فى يوم ١٦ مايو سنة ١٨٣٩ أرسل إلى قناصــل الــدول عمومــاً منشوراً يخبرهم فيه بأنه لو رجعت العساكر السلطانية إلى الشاطئ الأيسر مــن الفُرات، فهو أيضا يأمر برجوع عساكره ورجوع إبــراهيم باشــا أيــضاً إلى (دمشق) ولو عادت عساكر الدولة إلى ما وراء (ملطْيَة) فهو يستدعى إبــراهيم باشا إلى مصر فضلاً عن كونه مستعداً لإرجاع جزء عظيم من جيشه إلى مــصر لو تعهدت الدول الأربع العظمى[1] وقبل الباب بأن تكون مصر والــشام لــه ولورثته إلى ما شاء الله. ولكن لم تقبل الدولة العلية ذلك بل عزمت علــى أن لا تسلم إلا للقوة وأرسلت إلى حافظ باشا أن يستعدّ لمقاتلة المصريين ومكافحتهم فأمر حافظ باشا بقطع العلاقات التجارية بين ولايات الدولة والــشام وأوقــف أيضاً سير القوافل فأمر بمثل ذلك إبراهيم باشا وأرسل سليمان باشــا، وكــان مكلفاً بالمخاطبات السياسية، منشوراً إلى قناصل الدول بحلب يخــبرهم فيــه أن إبراهيم باشا أمر بعدم سير القوافل إلى ولايات الدولة العلية لإبتداء حافظ باشا بمثل ذلك، وأن هذا التحريج لا يرتفع إلا إذا عادت المواصلات بــأمر القائــد التركى.

فاغتاظ لذلك حافظ باشا وابتدأ فى أخذ كل ما تصل إليه يده مــن خيــول وبغال وحمير وأغنام مما يكون للجيش المصرى ثم احتل قرى عديدة حول مدينة

(1) يريد بذلك دول الروسيا والنمسا وفرنسا وانكلترا

(عَيْن تاب) بدون إشهار للحرب كما هى عادة الأمم المتمدنة، ثم هجم على هذه المدينة نفسها ودخلها عنوة بعد أن طرد الحامية المصرية فكتب إبراهيم باشا لوالده يعلمه بأن الأتراك تعدّوا الحدود ودخلوا البلاد التابعة للحكومة المصرية بمقتضى معاهدة (كوتاهيه) ولما لم يرد له رد الخطاب بسرعة واستبطأه قام من حلب مع جزء من جيشه وأمر سليمان باشا بأن يكون على أهبة السير لمساعدته لو دعت الضرورة للقتال. وبينما هو سائر إذ ورد عليه خبر استيلاء الترك على مدينة واقعة على الشاطئ الأيمن للفرات تدعى (تلَ باشر)[1] بعد أن قتلوا وأسروا فريقاً من حاميتها التى كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادى.

فلما طرق هذا الخبر أذنه جدّ فى السير وأرسل إلى سليمان باشا يستدعيه للقيام بدون تأخير مع بقية الجيش ليلجئ الأتراك إلى الرجوع إلى ما وراء الحدود ويستردّ منهم ماسلبوه خيانة وغدراً ولكن بمجرد وصول العساكر المصرية إلى تل باشر أخلاها العثمانيون بدون قتال لما علموا وتيقنوا من ضعفهم عن مقاومة المصريين فلم يقتف إبراهيم باشا أثرهم بل اكتفى بعودهم إلى الحدود منتظراً ما يأمره به والده وكان ذلك ٣ يونيو سنة ١٨٣٩ وفى ١٥ منه ورد إليه جواب والده مؤرخاً ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٥٥ الموافق (٦ يونيو سنة ١٨٣٩) يقول له فيه حيث أن الأتراك اعتدوا عليه ولم يراعوا العهود ولا المواثيق، فلا يكتفى بإرجاعهم إلى الحدود بل يلزمه محاربتهم واهلاك جيشهم كى لا يعودوا إلى اعتدائهم.

فلما وصل إليه هذا الجواب ورأى فيه الأمر الذى كان يرغبه، أصدر أوامره إلى سليمان باشا وسائر القوّاد بالسير إلى الأمام لمهاجمة الأتراك فى معسكرهم بنصيبين.

---

[1] تل باشر هو موضع قرية حلب على يومين منها وفيه قلعة خرج منها علماء كثيرون منهم حسن بن على ابن ثابت التل باشرى، سمع الغيلانيات على الفخر بن النجارى، ا.هـ من شارح القاموس للسيد محمد مرتضى.

وفى يوم ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٩ تحرّك الجيش بأجمعه واحتل بدون عناء كثير النقط الأمامية وأخذ قليلاً من الأسرى.

وفى اليوم التالى أراد إبراهيم باشا أن يهاجم الأتراك على حين غفله، لكنه عدل عن هذا الرأى اتباعاً لمشورة سليمان باشا وقرَّ رأيهما على استكشاف مواقع العدوّ قبل الهجوم عليه وكان الأتراك قد حصنوا نقطة نصيبين حتى جعلوها أمنع المواقع الحربية فى الدولة العلية وذلك بإرشاد من استخدموهم من ضباط الألمان وكان من ضمنهم البارون (دى مولتك) الذى ينسب إليه انتصار الألمانيين على الفرنساويين فى سنة ١٨٧٠ فكان إذ ذاك فى خدمة الباب العالى منوطاً بأن يكون مرافقاً لحافظ باشا بصفة أركان حرب أعنى مرشداً، فلما استحسن إبراهيم باشا مشورة سليمان باشا الذى رافقه فى هذا الإستكشاف اتبعها وأخذ ألف وخمسمائة من العربان وأربعة ألايات من السوارى وبطريتين من المدافع وسار بهذه القوة القليلة حتى قرب من مدافع الأتراك فأرسلوا إليهم لردّهم عدداً عظيماً من العساكر غير المنتظمين (باشبوزق) وقليلاً من السوارى النظامية فناوشهم المصريون مناوشة خفيفة حتى ألجؤهم إلى الرجوع والعود إلى استحكاماتهم وتمكن سليمان باشا وإبراهيم باشا فى خلال ذلك من استكشاف التحصينات المهمة التى أقيمت أمام نصيبين وتبين لهما أنه يتعذران لم يكن مستحيلاً مهاجمتها من هذه الجهة مهما كانت شجاعة المصريين، ولذلك عاد الجميع إلى معسكرهم بقرب نهر مزار لينظروا أى طريق أنجح للإستيلاء على هذه النقطة المهمة التى لو وقعت فى قبضة المصريين وتشتت الجيش العثمانى المتحصن فيها، لم يقم بعد للترك قائمة إلا إذا تداركتهم العناية بمساعدة الدول الأوروباوية لهم.

ولما انتشر خبر رجوع المصريين شمل السرور الجيش التركى وظنوا أن المصريين لا يجسرون على مهاجمتهم، بل لا بد أن يتركوا معسكرهم ويعودوا إلى حيث أتوا، ثم زاد سرورهم لما أخلى المصريون معسكرهم فى اليوم التالى وأخذوا

فى الإنسحاب والرجوع، فلما رأى الأتراك ذلك ظنوا أنهم ولوا الأدبار لكن لم تلبث أفراحهم أن تبدّلت أتراحاً لما علموا أن المصريين لم يعودوا بل أخـــذوا فى الدوران حول نصيبين ليهاجموها من الجهة الأخرى التى لم يحصنها الأتراك لعدم توهمهم أن المصريين يأتونهم منها.

فجمع حافظ باشا مجلساً عسكرياً لتقرير ما يجب اتخاذه ضدّ هـــذه المنــاورة العسكرية التى لم تخطر ببالهم فأراد البارون (دى مولتك) ومن معه من ضـــباط الألمان أن يهاجموا المصريين فى أثناء سيرهم وعدم استعدادهم للتزال وتأهبـــهم للقتال، لكن اعترض عليه فى هذا الرأى الصائب القائد التركى وسائر الضباط الأتراك قائلين كيف نترك نقطة صرفنا نفيس الوقـــت ومعظمـــه فى تحـــصينها وتعرّض أنفسنا وأرواحنا إلى القتل فى واد سهل لا يوجد بـــه أدنى اســـتحكام طبيعى أو صناعى للإحتماء به، فردّ عليهم الألمانيون بأن الجيش التركى يبلـــغ عدده ستين ألف مقاتل والجيش المصرى لا يزيد عن أربعين ألفاً فيمكن للتـــرك بكل سهولة أن يتغلبوا على المصريين مع أنهم لو تربصوا فى معاقلهم وهـــاجمهم المصريون فى الجهة القليلة التحصن لربما كان الفوز والنصر لهم.

فلم يقبل حافظ باشا نصيحتهم بل اعتمد على رأيه من البقاء فى الحـــصون حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فاغتاظ لذلك الألمـــانيون وأرادوا أن يقـــدموا استعفاءهم لولا خوفهم مما يلحقهم من العار والملامة لو تـــأخروا أمـــام عـــدوّ مهاجم.

وفى أثناء هذه المداولة تقدم إبراهيم باشا وفريق من الخيالة المنتظمة والعـــرب نحو القنطرة المبنية على نهر قرسيم بعد اتحاده بنهر مزار، قصد إصلاحها لمـــرور الجيش لتوهمه أن الأتراك لا بد أن يكونوا قد خربوها لمنع وصـــول المـــصريين إليهم، لكنه وجدها على حالها فأسرع للإستيلاء عليها قبل وصول الخيالة الذين أرسلهم حافظ باشا لصدّ المصريين عنها لكن لما وصلت السوارى العثمـــانيون كان قد سبق السيف العذل واجتازها إبراهيم باشا وعسكره، ولم يمكـــن بهـــذه

الكيفية للعثمانيين استرجاعها بل بقيت فى قبضة المصريين وقد وصل إليها باقى الجيش فى مساء ٢٢ من شهر يونيو تحت قيادة سليمان باشا وعسكر الجيش كله على ضفة نهر (قرسيم) المواجهة للجيش التركى واتخذ المصريون الإستعدادات اللازمة لصدّ الأتراك لو هاجموهم ليلاً، هذا ولم يضيع حافظ باشا وقته سدى بل غير وجهة جيشه وأخذ فى إقامة بعض استحكامات لمقاومة المصريين من هذه الجهة وحصنها بالمدافع التى كانت فى الحصون الأول فأوجب هذا التغيير ارتباك الجند لأن الجناح الأيمن صار أيسر والأيسر صار أيمن، نعم أن مثل هذا التغيير لا يترتب عليه أدنى إرتباك لو كان الجيش مدرّباً على مثل هذه المناورات لكن الجيش التركى الذى كان محصناً فى نصيبين لم يكن من الإنتظام على جانب عظيم لأنه حشد بعد تشتت الجيش القديم فى واقعة (قونية) ولذلك وقع فيه خلل كبير بسبب هذه المناورة التى لم يراها[1] قبل هذه المرة فضلاً عن أن الإستحكامات التى أقيمت على عجل لم تكن كافية لمقاومة المصريين ومعلوم أن المهاجم يكون دائما أشدّ من المدافع خصوصاً لو كان المهاجم أكثر انتظاماً من مقاومه.

كل هذه أمور أوقعت الضباط الألمانيين فى حيرة عظيمة لتخوفهم، إن لم نقل لتحققهم من فوز المصريين، وفى يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ توفيت الخاتون الإنكليزية (ليدى ستانهوب)[2] التى كانت من ألد اعداء الحكومة المصرية فى

[1] فى الأصل (لم يروها) المحرر.

[2] هى امرأة انكليزية شريفة ذات أطوار غريبة ولدت فى لندن تحت المملكة الإنكليزية فى ١٢ مارث سنة ١٧٧٦ وتوفيت فى (جون) من جبل لبنان فى ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ وكانت بكر أولاد (كارلوس) ثالث ارلات (استانهوب) من زوجته (استير) ابنة (وليم بت أرل شتام) وزير انكلترا الشهير وبقيت عنده إلى أن مات سنة ١٨٠٦ فأوصى عليها الأمة الإنكليزية فعينت لها مرتبا سنويا قدره ١٢٠٠ ليرة انكليزية وبعد قليل تركت انكلترا وطافت أوربا ولم ترغب فى الزواج مع ما لها من الجمال والبهاء وبعد أن طافت أوربا سافرت إلى استانبول ثم قصدت بر الشام فوصلت اللاذقية بعد أخطار عظيمة أحدقت بها أثناء سفرها ونجت منها بإذن الله وبعد ما تعلمت لغة العرب وعوائدهم عزمت على الطواف والجولان فى الأماكن التى يعز وصول الإفرنج إليها فشكلت قافلة وحملت هدايا نفيسة إلى البدو فزارت أشهر مدن الشام ثم وصلت مدينة تدمر فاجتمع عليها كثير من قبائل البدو فأعجبهم جمالها ولطفها وشبهوها بزينوبيا الرومانية ملكة تدمر واشتهر عليها من ذلك الحين هذا اللقب الذى تعرف هى به فى كتب الإفرنج ثم فى سنة ١٨١٣ استوطنت فى دير على مسافة ساعة من مدينة صيدا وبنت به لها ولمن معها بيوتاً على الشكل الشرقى وكانت دائما تلبس لبس أمير شرقى وتتقلد السلاح. وكان لها علاقات مع الباب العالى ولأمراء لبنان ومشايخ البدو فى برارى الشام وبغداد والجزيرة ثم انتقلت إلى

بلاد الشام وكثيرا ما ألقت الدسائس وفرقت المال والسلاح على سكان الجبل لمحاربة المصريين، اختطفتها أيدى المنون قبل أن تشاهد انتصار المصريين فى واقعة نصيبين وعلى أى حال لو لم تمت فى تلك الليلة لماتت فى اليوم التالى مما كان يصيبها من الحزن والكدر لعدم نوالها بغيتها القلبية وهى انخذال المصريين فى ساحة الوغى الأمر الذى صرفت لأجله ما لها وحياتها، فأتت غير مأسوف عليها من المصريين ونصرائهم، هذا ومما زاد فى تخوف الضباط الألمان ما كان للجيش المصرى على العثمانى من المميزات منها أن الجيش المصرى لم يكن مؤلفاً إلا من جنس واحد وهو الجنس المصرى وجميعهم مدربون على الأعمال الحربية وعلى النظام الأوربى ما عدا بعضا من العرب الهنادى وكان جميع ضباطه حائزين رتبهم بالإستحقاق والأهلية والكل واثقون برئيسهم إبراهيم باشا لما نالوه من النصر أكثر من مرة تحت قيادته.

تلك صفات كانت معدومة من الجيش التركى لأنه كان مؤلفاً من ترك وأكراد وغيرهم من الأمم المكونة للدولة العثمانية وليس بينهم وحدة جنسية تربط بعضهم ببعض وأغلبهم غير منتظم والمنتظم منهم لم يكن مستعداً للقتال استعداداً كافياً لمقاومة جيش منتظم كالجيش المصرى وأما ضباطه فأكثرهم إن لم

بيت مرتفع بالقرب من قرية (جون) بلبنان وحصنته بأسوار منيعة لتكون فى مأمن من طوارق الزمان لا سيما وأن الأهالى نفروا منها لما تناقصت ثروتها ولم يمكنها أن تواصلهم بالهدايا كما كانت تفعل قبل وأخذت من ذلك العهد فى التداخل فى الأمور السياسية وكان لها نفوذ عظيم بين قبائل البادية حتى إنه لما عزم إبراهيم باشا فى فتح سورية اضطره الأمر أن يطلب إليها أن تكون على الحياد ويقال أنه بعد سقوط مدينة عكا فى أيدى المصريين أوى إليها كثير من الفارين وكانت تتعاطى التنجيم وتعتقد صحة ما يجئ به مع غرابة ذلك وإجماع العلماء على فساده وفى السنين الأخيرة من حياتها لما بلغ أهلها فى انكلترا ما كان من أمرها وسيرها فى غير الطريق الحسن وتداخلها فيما لا يعنيها قطعوا عنها المال فكثرت عليها الديون لأنها لم تقلل شئ من مصروفاتها وبقيت مدة وحدها بعد أن مات من صحبها من الإفرنج بدون كتب ولا جرائد ولا رسائل من أوربا ولم يكن عندها صديق يواليها ولا أنيس يؤانسها ولا سمير يسامرها ولا جليس يجالسها بل بقى لها فقط جماعة من الجوارى والعبيد السود وبضعة فلاحين سوريين يعتنون ببساتينها وخيلها ويحفظونها من الطوارق ولما كثرت ديونها اعتراها مرض عضال قضت به نحبها ولم يكن عندها أحد من الإفرنج بل أحاط بها جماعة من خدامها وعند وفاتها حضر قنصل الإنكليز فى بيروت ومعه أحد القسيسين الأمريكانيين لدفنها فدفنت فى البستان المجاور لدارها وقصارى الكلام أنها حصلت بأعمالها على شهرة عظيمة فى الشرق وأذهلت أوربا كلها وكان الأهالى عموما يسمونها بالست الإنكليزية وقد روى عنها قصص غريبة كثيرة تكاد تكون من الخرافات فضلاً عن أنها لا يوثق بها وقد زارها كثير من السائحين الأورباويين وكان من جملتهم الشاعر الفرنساوى الشهير (دى لامارتين) ذو المرتبة العالية والمعرفة السامية سنة ١٨٣٢.

يكن كلهم لم ينالوا وظائفهم بالإستحقاق والأهلية فضلاً عما لحقهم من الإنهزام أمام الجيوش المصرية فى واقعة (قونية) كما سبق ذلك فى بابه. وفى ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ أراد حافظ باشا أن يهاجم المصريين تحت جناح الظلام طمعاً فى أن يوقع الفشل بينهم لكنه لم يتم له مقصوده لأنه بعد أن ألقى بين خيام المصريين قليلاً من القلل، انتبهوا من رقادهم فلم يكن إلا قليل حتى صدّوا مهاجمة الترك وألزموهم بالرجوع إلى معسكرهم فعادوا منهزمين بعد أن خضبوا الأرض بدمائهم وملأوا الاودية بأجسامهم ولم يقتل من المصريين إلا النزر اليسير وكان المجروح منهم قليلاً، وحدث فى هذه الوقعة أن بعض الشاميين هربوا من الجيش المصرى وألتجؤا إلى العسكر العثمانى وحاربوا معهم فى صفوفهم وكذلك أورطتان من ألاى الحرس الثالث أرادتا الإنضمام للترك فلحقهما إبراهيم باشا فى سيرهما وأعادهما إلى مركزهما ولم يرغب مجازاتهما مجازاة شديدة خوفاً من تذمر باقى الشاميين فى هذا الوقت الذى يلزم فيه أن يكون الجيش كله قلباً واحداً فقبل اعتذارهم بأنهم ضلوا عن السبيل فى أثناء الحرب، واكتفى بتغيير ضباطهم بآخرين ممن يثق بهم واستمر الجيش بقية ليله يتأهب للقتال لتصميم إبراهيم باشا على مهاجمة الأتراك فى يوم ٢٤ يونيه.

وفى صبيحة هذا اليوم المشهود طلع إبراهيم باشا وقليل من الهنادى لإستكشاف مواقع الترك ليهاجمهم فى موقع الضعف فتحقق له أنه لا يمكنه مهاجمتهم من الجناح الأيمن لإرتكازه على أخوار عميقة لا يمكنه إجتيازها تحت نيرانهم ولا من الوسط أيضاً لما أقامه الترك من المعاقل عند تغيير وجهتهم وموقع الضعف هو الجناح الأيسر لعدم وجود موانع طبيعية أو صناعية تمنع تقدّمهم إلا بعض أشجار من الزيتون متباعدة عن بعضها بحيث يتيسر المرور من بينها ولما كان إبراهيم باشا معسكراً بين الجيش التركى والفرات أى أمام جناحه الأيمن، فلمهاجمة الجناح الأيسر لزمه أن يمرّ بكل جيشه أمام جيش الترك إلى أن يصل إلى الجناح الأيسر ولا يخفى ما فى مثل هذه الحركة من الخطر لأنه لو هاجمه الأتراك فى أثناء مروره لوقع الفشل فى صفوف المصريين وكان الفوز للعثمانيين

لكن أهمل حافظ باشا أن يأخذ بالرأى السديد وهو مهاجمته للمصريين أثناء سيرهم أمامه فلم يبد حراكاً بل اتبع رأى من كان معه من الضباط الأتراك المخالفين لرأى أركان الحرب الألمانيين.

ولما اقترب الجيش المصرى من الجناح الأيسر لمح إبراهيم باشا هضبة مرتفعة مشرفة على مواقع الترك ولم يحتلوها فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلالها، فركض سليمان باشا بجواره وتبعه السوارى والطوبجية الراكبة وسار الكل مسرعين نحو هذه الهضبة التى كان احتلالها من أكبر دواعى انتصار المصريين، وعند ذلك انتبه الأتراك من غفلتهم واستيقظوا من نومتهم لما رأوا اتجاه المصريين نحوها وأدركوا أهميتها فأرسلوا عدة ألايات من سواريهم قصد احتلالها وإبعاد المصريين عنها ولكن لحسن حظ المصريين كان سليمان باشا قد احتلها مع عسكره قبل وصول الأتراك، فلما وصلوا إليه أرسل عليهم نيرانه وألزمهم العودة منهزمين.

ولما وصل الجيش المصرى بتمامه إلى الجناح الأيسر لم ينتظر إبراهيم باشا تجمع العسكر المعينين للهجوم، بل هجم مع قليل من الجند على الجيش التركى ليكون أول من دخل معاقلهم واحتل حصونهم ولكن لما كان المصريون المهاجمون قليلين والجيش التركى كثيراً وناره قوية وقع الرعب فى قلوب المهاجمين وامتنعوا عن التقدم ومازال إبراهيم باشا يهددهم ويحثهم على الإقدام فلم يقبلوا بل قفلوا عائدين. وكانت هذه أول مرة تقهقر فيها المصريون أمام الأتراك ولا لوم عليهم فى ذلك بل على قائدهم حيث لم يتأن وخاطر بحياته وجنده حباً فى نوال الشرف، ولما رأى سليمان باشا تقهقر الجند صوّب عليهم نيران مدافعه حتى ألزمهم التقدم إلى الأمام مفضّلين الموت مع الشرف على الحياة مع الخزى والتلف خصوصاً إذا كان الموت محقّقا فى كلتا الحالتين، وبذلك تمكن إبراهيم باشا من أن يحارب ويناضل إلى أن وصل الجيش بأجمعه واشترك مع المقدمة فى الهجوم ولما اشتدّت نار الوغى تزعزع الجناح الأيسر العثمانى وأخذ فى القهقرى

وابتدأ الأكراد بالهرب، ولم يلبث باقى الجيش أن حذا حذوهم وولى الكل الأدبار والتجؤا إلى الفرار وقتل فى هذه المعركة خالد باشا أحد قوّاد الدولة العلية المشهورين وأركان حربه المدعو إبراهيم بك الذى تخرّج فى مدارس فرنسا الحربية لأنهما لم يتركا مكانهما حتى قتلا.

وأما الضباط الألمانيون وحافظ باشا ومن معهم من بقية الجيش فتقهقروا على غير نظام مسرعين بالفرار إلى مدينة مرغش، فعند ذلك اقتفى المصريون أثرهم وأبلوا فيهم بلاء حسناً ثم عادوا إلى المعسكر التركى فوجدوه على حالته حتى أن بعض الضباط الألمانيين ومنهم البارون (دى مولتك) تركوا ملابسهم وأوراقهم وغنم المصريون كل ما فى المعسكر من خيم ومؤن وذخائر ومن المدافع ١٦٦ ومن البنادق ٢٠ ألف وقتل فى هذه الوقعة ٤٠٠٠ عثمانى ومن المصريين كذلك تقريباً، لكن قتل المصريون من الأتراك فى حال تتبعهم لهم ما يبلغ خمسة أسداسهم فقد قال البارون (دى مولتك) فى كتابه على الشرق أن فرقة بكير باشا التى كان يبلغ عددها ٥٥٠٠ لم يبق منها إلا ٣٥٠ نفسا وأن فرقة محمود باشا لم يبق منها إلا ٧٥ نفسا وأما السوارى فلم يقتل منهم إلا القليل لأنهم بادروا بالهرب ابتداء، فأرسل إبراهيم باشا لوالده يبشره بهذا الفوز العظيم الذى خلص مصر وأنقذها من التهديدات التى كانت تتوارد عليها ومما زادها شرفاً أنها قاومت رجال الدولة العلية.

ولا يخفى ما ترتب على هذا النصر من الفوائد الجمة كتوطيد ملك محمد على باشا فى بلاد الشام وبلاد الجزيرة وإيقاع الرعب فى قلوب سكان تلك الجهات الذين كفوا عن أثارة الخواطر وبث الدسائس لتحققهم عدم قيام الدولة العلية بمساعدتهم، وكان عقب هذه الواقعة موت السلطان محمود خان الثانى فتوفى فى يوم ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ الموافق أول يوليو سنة ١٨٣٩.

ولما مات وحضر الأطباء لتشخيص مرضه الذى كان سبباً لموته اختلفت آراؤهم فيه فمنهم من قال أنه توفى بداء السل الرئوى ومنهم من قال أن موته

متسبب عن اضطراب عصبي ومنهم من قال غير ذلك، وكان له من العمر أربع وخمسون سنة ومكثت خلافته احدى وثلاثين سنة، وخلفه على الملك بعده ولده السلطان عبد المجيد خان الأول وكان عمره إذ ذاك ١٧ سنة. هـذا وبعـد أن أتاح الله النصر لإبراهيم باشا توجه بنفسه للإستيلاء على المعسكر المحصن الذى كان قد أقامه الأتراك فى (بلا جيك) على ضفة الفرات اليمنى ووجـه قـوّاده لاحتلال ملَطْيه وقونية ثم سافر فى ٢٧ الشهر ليحتل مدينة (عيْن تـاب) الـتى فتحت أبوابها للأتراك، فوصلها وبعد أن احتلّها بدون مقاومة وعفا عن مشايخها سافر إلى مدينة قَيصّرية ليريح عساكره ويتقدم لفتح بلاد الأناضول.

وفى ٢٩ منه وصل إليه الموسيو (كابى) وكان قد أرسله المارشال (سـولت) وزير فرنسا الأول إلى محمد على باشا ونجله إبراهيم باشا ليخبرهما بـأن أوربـا جميعها حتى فرنسا عازمة على منع القتال بينه وبين الباب العالى وحسم الخلاف الواقع بينهما بالطرق الحبية السلمية وكان سفره من باريس فى ٢٨ مايو سـنة ١٨٣٩ ووصوله إلى الإسكندرية فى ١٣ يونيو فقابل محمد على باشا وأخـبره بالمأمورية التى كُلَف بها وطلب منه أمراً لولده إبراهيم باشـا بعـدم الإبتـداء بالحرب وبعدم اجتياز جبل (طوروس) لو حصل الحرب قهراً عنه وانتصر هـو فيه، فأجاب إلى ذلك محمد على باشا ظاناً أن فرنسا كما أنها تلزمه بعدم الحرب لابدّ أن تساعده لو تعدّى الباب العالى عليه وأعطى الموسيو (كـابى) الجـواب المطلوب فسافر إلى اسكندرونة ومنها إلى حلب مستبشراً بنجاح مأموريته ولكن لسوء حظه لما وصل حلب بلغه خبر انتصار إبراهيم باشا فى (نصيبين) فـسافر لوقته إلى هذه الجهة ليمنعه عن اجتياز جبل (طوروس) فلم يجده فيها فاسـتفهم عنه فقيل له أنه قام لتتميم انتصاره باحتلال مضايق الجبل وأنـه وجـه قـواده للإستيلاء على مدينتى (قونية) و(ملَطْيَة) الواقعتين فيما وراء الجبل.

فحار الموسيو (كابى) فى أمره وأيقن بتداخل الـدول وخـصوصاً الروسـيا وانكلترا والنمسا لصد إبراهيم باشا عن أملاك الدولة العلية لو قصد التقدم إلى

مركز الخلافة العظمى، فطار بجناح السرعة إلى (قَيصَرية) فقابل إبـــراهيم باشـــا أمامها وفاتحه بما أرسل لأجله من إيقاف سير العساكر المصرية نحو الأناضـــول فاستشاط الباشا غيظاً وقال إن هذا الأمر مستحيل وكيف يجوز لقائد حائز على النصر والغلبة أن يقف بطريقة ولا يتمم انتصاره لكن تيسر للموسيو (كابى) أن يصدّ إبراهيم باشا عن مشروعه ويقنعه بعدم استمرار القتال ويمنعه من التقـــدم إلى بلاد الأناضول فوعده بعدم احتلال مدينة (قونية) ولم ينـــثن عـــن احـــتلال (ملطية) وما جاورها من البلاد قائلاً أن احتلال هذه المدينة ضرورى لحفظ بلاد الشام من هجمات الأعداء.

فلم يقبل الموسيو (كابى) ذلك بل أظهر لإبراهيم باشا ضرورة عدم الخروج عن حدود الشام خوفاً من أن تعتبر الدول الأروباوية ذلك تعدياً على أمـــلاك الباب العالى وتتداخل بينهما وربما أجبرته بالقوة على الرجـــوع وأن الجـــواب المرسل إليه من والده يمنعه عن اجتياز جبال (طوروس) فلم يذعن إبراهيم باشـــا لذلك بل عزم فى نفسه على احتلال ملطية وأمر جيشه بالتأهب للسفر، ولكـــن لم يلبث الموسيو (كابى) أن عاود الكرة وألح عليه بالتنازل عن هذا المشروع لمـــا يترتب عليه من الضرر وبعد اللتيا[1] والتى قبل إبراهيم باشـــا ذلـــك وأصـــدر أوامره إلى قوّاده بذلك واكتفى باحتلال مدينتى مرعش وأورفه.

تسليم قبطان باشا الدونانمة التركية إلى محمد على باشا:

وقد حدثت فى خلال ذلك مسألة هيجت الخواطر فى أوربا وهى أن أحمد باشـــا قبودان الدونانمة التركية سافر إلى الإسكندرية وسلم الدونانمة المذكورة برجالها ومدافعها إلى محمد على باشا وذلك أنه فى أثناء شهر يوليو سنة ١٨٣٩ صدرت الأوامر من قبل إلىهذه الدونانمة قبيل واقعة (نصيبين) بـــالخروج مـــن بوغـــاز الدردانيل قصد محاربة الدونانمة المصرية، لكن كانت كل من فرنسا وانكلتـــرا

[1] هكذا فى الاصل (المحرر).

أرسلت دونانمة من طرفها لمنع انتشاب الحرب بين الدونانمتين التركية والمصرية ولذلك لم يحصل بينهما قتال.

ولما تولى السلطان عبد المجيد أراد أن يحسم الخلاف بينه وبين محمد على باشا بالطرق السليمة لما تراءى له من أن ذلك أولى من استمرار القتال وسفك دم العباد فعيّن من يدعى عاكف أفندى للسفر إلى مصر للإتفاق على هدنة معينة يمكن فى خلالها إجراء المخابرات والإتفاق على طريقة مرضية للطرفين، وكلف عاكف أفندى المذكور، أن يأمر أحمد باشا قبودان بالرجوع إلى القسطنطينية فلما انتهى هذا الخبر إلى أحمد باشا وكان قد علم بموت السلطان محمود وتعيين خسرو باشا صدراً أعظم ظن أن استدعاءه إلى إسلامبول لم يكن إلا لعزله أو لقتله لما بينه وبين خسرو باشا من الضغائن ولعدم وجود من يدافع عنه، لموت السلطان محمود حيث كان محبه وصديقه الوحيد، فصغا إلى ما وسوس له به وكيله المدعوّ عثمان باشا الإلتجاء إلى محمد على باشا وتسليمه الدونانمة.

وفى يوم ١٤ يوليو سنة ١٨٣٩ أقلع بمراكبه وخرج من الدردانيل قاصداً ثغر الإسكندرية فشاهده الأميرال (لالاند) إذ كان بمراكبه موجودا بالقرب من البوغاز المذكور ولكن لما كانت أوامره لا تبيح له التعرض لها فى سيرها بل منع القتال فقط، اكتفى الأميرال الفرنساوى باتباعها ومراقبتها حتى إذا أرادت القتال منعها طوعاً أوكرهاً وفى أثناء السير اقتربت منه بارجة عثمانية تقل عثمان باشا وأشارت إليه بالإشارات البحرية أنه يريد الإجتماع بالأميرال فنزل الأميرال بنفسه إلى البارحة ووجد عثمان باشا فى انتظاره وبعد أن تحادثا ملّياً عن موت السلطان محمود قال له عثمان باشا إن موته لم يكن عادياً بل هو ناشئ عن دسائس خسرو باشا وخليل باشا صهر السلطان، ولذلك قد عزم هو وأحمد باشا قبودان على السفر إلى جزيرة (كريد) للمخابرة مع حافظ باشا قائد الجيوش البرية فى الأناضول ومع محمد على باشا والى مصر لإبرام تحالف بينهم على طرد الصدر الأعظم خسرو باشا وشيعته وتولية مهامّ الدولة إلى من يوثق

به من الرجال، فحصل للأميرال (لالاند) من هذا الكلام دهشة وتوجس خيفة من سوء عاقبة هذا المشروع ونتائجه الوخيمة فبذل جهده فى إرجاعه عنه.

ولما لم يجد منه أذناً صاغية وكانت الأوامر المرسلة إليه من حكومته لاتبيح له منعه نصحه بأن يسافر إلى جزيرة (رودس) التابعة للدولة العلية لأن جزيرة (كريد) كانت إذ ذاك تابعة لمصر ولا يجوز له أن يذهب لها فوعده عثمان باشا بذلك وأقلع إلى جهة الجنوب فظن الأميرال (لالاند) أنه مسافر إلى (رودس) ولذلك كف عن مراقبته وأرسل سفينة واحدة لمرافقته. وفى الحال أيضاً أرسل أحد ضباطه إلى إسلامبول لتبليغ سفير فرنسا ما حصل فوصل هذا الضابط فى ٧ يونيو وأخبر السفير بسفر الدونانمة إلى جزيرة (رودس) كما كان يظن الأميرال (لالاند) فأخبر السفير فى الحال الباب العالى لأخذ الاحتياطات اللازمة وكذلك أخبر باقى السفراء ثم بعد هذا بقليل وصلهم خبر وصول الدونانمة المذكورة إلى الإسكندرية فكان له تأثير مكدر بين رؤساء الدولة وسفراء الدول ذات الشأن لأن الدولة العلية بهذه الكيفية لا تثق بأحد من قوّادها فكأنها لا جيش ولا دونانمة لها.

فأرسلت الدول إلى قناصلها بالإسكندرية لتطلب من محمد على باشا إرجاع المراكب للدولة منعا لما عساه يحصل من إكراه الدول له على ذلك وألح عليه قنصل فرنسا كثيراً فلم يصغ لنصائحهم بل عزم على أن لا يردّها للدولة ما لم تمنحه ولاية مصر وولايات الشام وآسيا الصغرى، التى احتلها بعساكره وتكون له ولذريته من بعده، وتضمن له الدولة ذلك وتعزل خسرو باشا من منصب الصدارة، وفى يوم ٢٤ يوليو عاد إلى القسطنطينية عاكف أفندى الذى كان قد أرسل لمصر لايقاف تقدم الجيوش المصرية ومعه رسالة من محمد على باشا يقول فيها أنه كتب لولده إبراهيم باشا بأن يقف بالنقط التى هو بها إلى أن تصدر له أوامر جديدة وأنه لم يزل مصراً على عدم قبول الصلح والطاعة للباب العالى إلا إذا منحه وذريته من بعده الولايات التى احتلها، وكيف يقبل خلاف ذلك

وساريم أفندى المندوب الأول للباب العالى كان قد عرض عليه ملـــك مـــصر وولايتى صَيدا وطرابُلُس؟

تداخل الدول:

فى يوم ٢٧ من يوليو اجتمع وزراء الدول ليتداولوا فيما يلـــزم إتباعـــه فى المسألة المصرية منعاً لإبراهيم باشا من الزحف على القـــسطنطينية، ولتـــداخل الروسيا، لاسيما وأنه لا جيش للدولة لا براً ولا بحراً فقر رأيهم علـــى إعطـــاء محمد على باشا مصر والشام ما عدا قسم (أطنه) وبلاد العرب بشرط أن يكون للباب العالى حق الاحتلال وإدارة كل من دمَشق و(أوريشَلم) ومكة والمدينـــة وأن يدفع والى مصر خراجاً سنوياً قدره ثلاثون مليوناً قرشاً تركيـــاً (تـــساوى ثلثمائة ألف جنيه مصرى تقريباً) وقرروا أيضا أن يرسل إليه مندوبون لتبليغـــه هذا القرار لكن قبل سفر هؤلاء المندوبين أرسل سفراء الدول إلى الباب العـــالى لائحة مشتركة[1] بتاريخ ٢٨ يوليه ممضاة من سفراء فرنسا وانكلترا والنمـــسا والروسيا وبروسيا يطلبون منه أن لا يقرر شيئاً فى أمـــر المـــسألة المـــصرية إلا بإطلاعهم واتحادهم وأنهم مستعدّون للتوسط بينه وبين محمد على باشا لحل هذه المسألة المهمة فأضطرّ الباب العالى أن يقبل هذا التداخل وأرســـل إلى الـــسفراء يخبرهم أنه أوقف سفر المندوبين.

وكان الراغب أوّلاً فى هذه اللائحة المسيو (دى مترنيخ) وزير النمسا الأول أكبر ساسة عصره ليضع الدولة العلية تحت حماية الدول العظام أجمع، فعرض ما بداله على وزارات باقى الدول فوقع لديهم موقع الإستحسان والقبـــول حـــتى الروسيا نفسها، خوفاً من اتفاق باقى الدول ضدّها وحماية الدولة العلية بـــالقوة كما حصل فى حرب القرم سنة ١٨٥٣.

فاجتمع سفراء الدول أوّل اجتماع عند الصدر الأعظم فى ٣٠ يوليو ســـنة ١٨٣٩ وتداولوا فيما يجب إعطاؤه لمحمد على باشا فأبـــدى ســـفيراً انكلتـــرا

[1] فى الأصل (اشتراكية) المحرر.

والنمسا ضرورة إرجاع الشام للدولة العلية وعارضهم فى هذا الرأى سفيرا فرنسا والروسيا وطلبا أن يمنح محمد على باشا ملك مصر و ولايات الشام الأربع لكن انحاز سفير البروسيا إلى الرأى الأول فتقرّر بالأغلبية، ثم طلب الموسيو (دى مترنيخ) أن يعقد مؤتمر دولى فى مدينة (فيينا) أو (لوندرة) لإتمام المداولات بشأن المسألة المصرية فلم يقبل منه ذلك عند الكل سيما فرنسا وانكلترا فلم يقبلا ذلك ولم يميلا لهذا الطلب لعدم ثقتهم بالمسيو (دى مترنيخ)، وكذلك الروسيا لم تقبل تخويل مؤتمر دولى تحديد علاقاتها مع الباب العالى بل أعلنت أنها مصرّة على التمسك بنصوص معاهدة (انكارا سكله سى) وهى حماية الدولة بعساكرها ومراكبها، وبالتالى احتلال معظم أملاكها بدون حرب لو تعدى إبراهيم باشا حدود الشام.

فعند ذلك طلبت كل من فرنسا وانكلترا من الباب العالى التصريح لمراكبها بالمرور من بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من الروسيا ومن العساكر المصرية وجاء الأميرال (ستوبفورد) بنفسه إلى القسطنطينية للحصول على هذا التصريح ولما علم باقى السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدول المتوسطة وأعلن سفير الروسية بأنه إذا دخلت المراكب الفرنساوية والإنكليزية البوغاز يقطع علاقاته السياسية مع الباب العالى ويسافر فى الحال وكانت حكومته أرسلت له مركباً حربياً ليسافر عليها إذا اقتضى الحال ذلك، وكتبت النمسا إلى وزارتى (لوندرة) و(باريس) بأن طلبها هذا مخل بسلم أوربا وأنهما لو أصرّا عليه تخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل. فلما علم الباب العالى بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتى فرنسا وانكلترا وطلب منهما إبعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز.

فلهذه الأسباب وعدم الإتفاق بين وزراء الدول توقفت المخابرات إلى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٣٩ حتى عرض اللورد (بونسونبى) سفير انكلترا لدى الباب العالى أن دولته مستعدة لإكراه محمد على باشا على رد الدونانمة التركية

بشرط أن يكون لها حق إدخال مراكبها إلى خليج إسلامبول لصد الروسيا عند الضرورة، فلما علمت بذلك حكومة فرنسا أرسلت إلى الأميرال (لالاند) قائد أسطولها فى مياه تركيا أمراً بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩ أنه لا يشترك مع مراكب انكلترا فى أى حركة عدوانية ضد حكومة محمد على باشا فعلم الكل أنه لابد من حصول خلاف بين فرنسا وانكلترا بخصوص المسألة المصرية وأخذت الدول حذرها مما عساه يحصل من الأمور التى تنشأ بسبب هذا الخلاف، فأعلنت النمسا بأنها لا ترغب التداخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولى فى فيينا أو برلين وأعلنت بروسيا والروسيا بأنهما يقبلان كل ما تقرره الدول فى هذا الشأن بشرط أن يكون موافقاً لرغبة الباب العالى وأن يكون قبوله لهذا القرار صادراً عن كمال الحرية التامة فكأن الدول قبلت ما تتفق عليه فرنسا وانكلترا بالإتحاد مع الباب العالى، ولكن لم يتم الإتفاق بين هاتين الدولتين لسعى انكلترا فى إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وعدم قبول فرنسا ذلك رغبة فى مساعدة محمد على باشا.

وذلك أن فرنسا كانت تود أن تكون ولايتا مصر والشام له ولذريته وإقليما أطنة وطرسوس له مدة حياته، وأما انكلترا فكانت لا تريد أن يعطى إلا ولاية مصر لكن رغبة فى إرضاء فرنسا قبلت أن يعطى مدة حياته نصف بلاد الشام الجنوبى بشرط أن لا تكون مدينة عكا من هذا النصف، فرفضت فرنسا هذا الإقتراح وقالت كيف نجرده من كل فتوحاته خصوصاً بعد أن قهر الجيوش العثمانية فى واقعة (نصيبين) وأننا لو جردناه منها لتركنا له باباً للحرب مرة أخرى وهو أمر لا تكون عاقبته حسنة لأن هذا شئ يوجب تداخل حكومة الروسيا فى أمر الدولة العلية بمقتضى العهودات، ولا تكون نتيجة ذلك إلا حرباً عامة فالأولى منعاً لسفك دماء العباد أن تعطى لمحمد على باشا البلاد التى فتحها، لأنه أقوم بإدارتها وأحق بها لما تكبده من المشاق الصعبة والمصاريف الزائدة وبذل الأرواح، ولما علمت الدول بوقوع الخلاف بين فرنسا وانكلترا

أعلنت النمسا وبروسيا رسمياً أنهما ينحازان إلى إحدى الدولتين التى لا تحرم الدولة من أملاكها، وبعبارة أخرى إلى انكلترا.

وأما الروسيا فأرادت أن تنتهز فرصة عدم اتحاد الدولتين لتقرير نفوذها فى الشرق وحق حمايتها للدولة العلية دون غيرها وأرسلت إلى لوندره البارون (دى برونو) بصفة سفير فوق العادة فوصلها فى أواخر سبتمبر سنة ٣٩ وعرض على حكومته بالنيابة عن قيصره أن الروسيا مستعدة لأن تترك لانكلترا حرية العمل فى مصر وتساعدها على إذلال محمد على باشا بشرط أن تسمح لها بإنزال جيش بالقرب من إسلامبول فى مدينة (سينوب) الواقعة على شاطئ البحر الأسود ببر الأناضول لكى يتيسر لها إسعاف الباب العالى لو أراد إبراهيم باشا الزحف على القسطنطينية، فصغا اللورد (بالمرستون) إلى كلام سفير الروسيا ومال إلى هذا الرأى ميلاً شديداً ولولا استقباح الرأى العام له لقبله كل القبول وسلمه كل التسليم، لكنه لما رأى عدم موافقة الرأى العام لهذا المشروع اقترح على الروسيا أن تعلن أولاً بتنازلها عما تخوله لها معاهدة (انكارا سكله سى) من حق حماية الدولة العلية فرفضت الروسيا ذلك وأجّلت المخابرات بشأن تسوية المسألة المصرية إلى شهر يوليو سنة ١٨٤٠ لعدم اتفاق الدول على حالة مرضية للكل وافية بغرض الجميع ولتباينهم فى الغايات والمقاصد.

وفى خلال هذه المدة أرسلت الروسيا المسيو (برونو) ثانية إلى (لوندرة) ليطلب تعديل المشروع الأول، بأن يخوّل لكل من انكلترا وفرنسا الحق فى إرسال ثلاث سفن حربية فى بحر (مَرمَره) للإشتراك مع الجيش الروسى فى حماية إسلامبول لو هاجمها إبراهيم باشا فلم تفز الروسيا بمرامها فى هذه المرة أيضاً، هذا ولما علم محمد على باشا بهذه المخابرات وتحقق أن الدول الأوروباوية عموماً وانكلترا خصوصاً ساعون فى إرجاع جيوشه إلى مصر وجبره على ردّ كل ما فتحه من البلاد، وأن فرنسا لا يمكنها مساعدته، فضلاً عن تعصب باقى أوربا ومضادتها بأجمعها له أخذ فى الإستعداد لصدّ القوة بالقوة بحيث لا يسلم

شبراً من الأرض التى صرف ماله ورجاله فى فتحها إلا مضطراً وكلف سليمان باشا بتفقد سواحل الشام وتحصينها بقدر الإمكان سيما مدينتى (عكّا) و(بيروت) وأمر بتعليم كافة الأهالى جميع الحركات العسكرية وحمل السلاح، لكى يسهل له حفظ الأمن الداخلى بواسطتهم وصد المهاجمين بواسطة الجيش المتدرب على الحرب، ولزيادة جيشه استدعى من الأقطار الحجازية والنجدية الجيوش المصرية المحتلة لها وأخذ أيضاً فى توفير الأموال من بعض وجوه مصاريفها وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة الذى كان قد ألزمه الإقامة بمصر من مدة. وبالجملة تخلى عن بلاد العرب وتركها هملاً كما كانت لإحتياجه إلى المال والرجال لأنها كانت تكلفه سنوياً مبلغاً وقدره ٧٠٠٠٠٠ جنيه مصرى تقريباً بلا فائدة، ثم أرسل جزءاً عظيماً من العساكر الواردة من بلاد العرب إلى الشام للإستعداد لكل طارئ يطرأ وأرسل إلى ولده إبراهيم باشا الأوامر المشدّدة بأن يجتهد فى إطفاء كل ثورة جزئية يبديها سكان الجبل من أى طائفة خوفا من اشتداد الخطب فى الداخل حين الإحتياج للإنتباه لما يأتى من الخارج.

ثم فى أوائل سنة ١٨٤٠ عاودت النمسا الكرة وطلبت من الدول اجتماع مؤتمر فى مدينة فيينا لتسوية هذه المسألة التى أقلقت بال الجميع فقبلت الدول عقده فى مدينة لوندره، لا فيينا، وطلبت فرنسا أن يكون للباب العالى مندوب خصوصى فى هذا المؤتمر مراعاة له لكونه له السيادة العظمى على البلاد المتنازع بخصوصها.

فلما اجتمع هذا المؤتمر طلبت فرنسا إبقاء الشام كلها تحت يد محمد على باشا، فعارضتها الحكومة الإنكليزية فى ذلك وأصرت على ما طلبته أولاً وهو أنه لا يعطى له إلا النصف الجنوبى منها لكنها قبلت أخيراً بناء على إلحاح فرنسا إدخال عكّا ضمن هذا القسم بشرط أن تكون له مدة حياته فقط ولا تنتقل إلى ورثته بعد موته بل تعود إلى الدولة العلية، وقبلت الروسيا والنمسا والبروسيا

ذلك، لكن لم تقبله فرنسا بحجة أن حرمان ورثة محمد على باشا من بلاد صرف السنين الطوال عليها فى فتحها ليتركها لهم بعد موته مما يزيد فى حنقه على دول أوربا وربما لم يقبل هذا القرار المجحف بحقوقه فتلتزم الدول بإكراهه وسفك دماء العباد ظلماً، الأمر الذى لم تجر هذه المخابرات إلا لمنعــه فــشدّدت انكلتــرا وخصوصاً اللورد بالمرستون وزيرها الأول، وأبت إلا رجوع ما يعطى لمحمد على باشا من البلاد الشامية إلى الدولة العلية بعد موته، فمن عدم الإتفاق وتــشتت الآراء وبعُد الوفاق لم ينجح هذا المؤتمر وبقيت الحالة على ما هى عليه ثم لما تولى الموسيو (تيرس)[1] رياسة الوزارة الفرنساوية فى أول مارث سنة ١٨٤٠ لم يتبع خطة سلفائه فى إنهاء المسألة المصرية بالإتحاد مع انكلترا بل أراد أن يضع لها حداً باتفاقه رأساً مع الباب العالى ومحمد على باشا بأن يلزم الباب العالى أن يتــرك لمحمد على باشا، ولايات مصر والشام له ولذريته، ويهدده بمساعدة فرنسا لوالى مصر إن لم يذعن الباب العالى لهذه المطالب.

فأرسل لمحمد على باشا يخبره بأن لا يقبل مطالب انكلترا، بل يقوّى مركـــزه فى الشام ويتأهب للكفاح وأن فرنسا مستعدة لنجدته لو عارضته اتكلترا.

---

[1] هو سياسى شهير ولد فى مرسيليا فى ١٦ ابريل سنة ١٧٩٧ وتعلم الشريعة فى مدارس مرسيليا واكس واشتغل بالمحاكم إلى سنة ١٨٢١ ثم سافر إلى باريس واشتغل بالتحرير فى الجرائد وكتب تاريخ الثورة الفرنساوية فى ١٠ مجلدات طبعت من سنة ١٨٢٣ إلى سنة ١٨٣١ وكان من أكبر الساعين فى قلب حكومة لويس العاشر فى شهر يوليو سنة ١٨٣٠ ولذلك لما تولى لويس فيليب أريكة الملك بعد هذه الثورة عينه مأمورا فى الخزينة ثم ولاه وزارة المالية ثم نظارة الداخلية فى وزارة المارشال سولت الأولى فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٣٤ ثم صار رئيسا لمجلس النظار لأول مرة فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٦ وعهدت إليه أيضا نظارة الخارجية واستمرت وزارته إلى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٦ ثم عاد إلى منصة الأحكام فى أول مارث سنة ١٨٤٠ فطلب تحصين مدينة باريس والقيام بتجهيزات عسكرية مهمة خوفا من الإرتباكات الناشئة من تداخل الدول بين محمد على باشا والسلطان ثم استقال لإختلافه فى الرأى مع ملكه بخصوص المسألة المصرية وحينئذ ابتدأ فى تاريخه عن القنصلية والإمبراطورية ثم فى سنة ١٨٤٨ طعن فى سياسة لويس فيليب الخارجية وساعد على عزله وانتخب عضوا فى الحكومة المؤقتة وفى سنة ١٨٥١ عارض لويس نابليون فى تأسيس امبراطورية ثانية فسجنه لما أعاد الإمبراطورية من ٩ ديسمبر سنة ٥١ إلى ٧ يوليو سنة ٥٢ ثم فى سنة ٦٥ و ٦٦ أخذ يندد بسياسة الإمبراطور وصرفه النفقات الباهظة فى حرب إيطاليا وحملة المكسيك وفى سنة ١٨٧٠ كان ضد الحرب لتحققه من عدم استعداد حكومة فرنسا ولما حصل ما أنبأ به من تغلب البروسيا ألحّ بالمدافعة عن باريس وسعى لدى الدول للمساعدة فى إقامة هدنة فلما لم يفلح عاد إلى فرنسا وانتخب فى مجلس نوابها ثم فى ١٧ مارث سنة ٧١ تعين رئيسا للسلطة الإجرائية فتمكن من دفع الغرامة الحربية قبل ميعادها وخلص بذلك وطنه من احتلال الأجنبى وفى ١٧ أغسطس أطال مجلس النواب مدته ثلاث سنين ولقب بلقب رئيس الجمهورية ثم استقال فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ لمعاكسة الأحزاب له وخلفه المارشال ما كما هون وله تآليف سياسية شهيرة واشتهر أيضا فى الخطابة وتوفى فى سنة ١٨٧٩ واحتفلت الأمة بجنازته احتفالاً عظيما.

٨- معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠

فلما علم اللورد بالمرستون بهذه المخابرات حنق على الحكومة الفرنساوية وبذل جهده فى الإتفاق مع الروسيا وبروسيا والنمسا لإرجاع محمد على باشا إلى حدود مصر وإلزامه بالقوة إن لم يطع، ولقد نجح بالمرستون فى مسعاه وأمضى بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ مع من ذكر من الدول معاهدة صدق عليها مندوب الدولة العلية مقتضاها (أوّلاً) أن يلزم محمد على بإرجاع ما فتحه للدولة العلية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول مدينة (عكّا)فى هذا القسم (ثانياً) أن يكون لإنكلترا الحق بالإتفاق مع النمسا فى محاصرة فُرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لإشتغال الجيوش المصرية فى الداخل كى لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والإنكليزية (ثالثاً) أن يكون لمراكب الروسيا والنمسا وانكلترا معاً حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها. (رابعاً) أن لا يكون لأحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور ما دامت القسطنطينية غير مهدّدة. (خامساً) يجب على الدول الموقع مندوبوهم على هذا الإتفاق أن تصدق عليه فى مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق فى مدينة لوندرة.

وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدّق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والإمتيازات التى يمكن منحها لمحمد على باشا، وقبل إمضاء هذه المعاهدة ابتدأت انكلترا فى تحريض سكان لُبنان من دروز ومارونية ونصيريه على شق عصا الطاعة وأرسل اللورد (بونسونبى) سفيرها لدى الباب العالى ترجمانه المستر وود إلى الشام لهذه الغاية وأعلم بذلك اللورد (بالمرستون) برسالة تاريخها ٢٩ يونيو سنة ١٨٤٠ محفوظة فى سجلات المملكة. وبمجرد وصول المستر وود إلى محل مأموريته أخذ فى نشر ذلك بين الأهالى ولقد نجح فى

مأموريته وأشهر الجبليون العصيان وتجمعوا متسلحين وامتنعوا عن تأدية الخراج والمؤن العسكرية، لكن لم تتسع هذه الثورة الإبتدائية لتداركها فى أوّلها فأرسل المدد من مصر، واهتم كل من إبراهيم باشا وسليمان باشا وعباس باشا[1] فى إخمادها فأطفئت قبل أن يتعاظم أمرها وعادت السكينة فى كافة الأنحاء.

ومن ثم أخذ سليمان باشا فى تحصين مدينة بيروت لعلمه أنها أول مينا معرضة لمراكب الانكليز وكذلك بنى القلاع لحماية كل الثغور ووضع بها المدافع الضخمة ولكن لسوء الحظ لم تُجدِ هذه الإستحكامات نفعاً أمام مراكب الإنكليز والنمسا كما سيجئ.

ولما علمت الحكومة الإنكليزية أن المرحوم محمد على باشا مهتم فى إرسال العساكر والذخائر على طريق البحر إلى الشام أرادت أن تعارضه وتعاكسه، أما بأخذ دونانمته أو تشتيتها وتفريقها ليتعذر إرسال المدد برًّا لوجود الصحراء الرملية الفاصلة بين مصر والشام من طريق العريش فأرسلت أوامرها فى أوائل شهر يوليو سنة ١٨٤٠ إلى الكومودور (نابير) بأن يتوجه بمراكبه إلى مياه الشام ومصر لإستخلاص الدونانمة التركية لو خرجت من ميناء الإسكندرية وأسر أو إحراق الدونانمة المصرية لو قابلها فلما علمت فرنسا بهذا الخبر أرسلت إحدى بوارجها البخارية إلى بيروت لتبليغ قائد الجيوش المصرية هذا الخبر المشؤم فرجعت فى الحال المركب المصرية إلى الإسكندرية حتى إذا وصل الكومودور نابير لم يجدها فاغتاظ لذلك ويقال أنه قبل أن يبارح مياه بيروت أرسل إلى سليمان باشا كتابا بتاريخ ١٤ يوليو يظهر له فيه تكدره من إجراءات القواد المصريين فى الشام ومعاملتهم الثائرين بالقوة وأنهم أن لم يكفوا عن أعمالهم البربرية اضطر للتداخل وإنزال عساكره إلى بيروت فأجابه سليمان باشا بأنه لا

[1] هو عباس باشا ابن طوسون باشا بن محمد على باشا الكبير ولد فى جدة سنة ١٨١٦ حين كان والده ببلاد العرب لمقاتلة الوهابيين وتولى على الأريكة المصرية سنة ١٨٤٨ بعد موت عمه إبراهيم وقتل فى ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤.

يقبل ملحوظاته ويعلمه بأنه لا يخاطبه من الآن فصاعداً، وإذا كان عنده ملحوظات مثل هذه فليبدها لمحمد على باشا.

ولم يبتدئ شهر أغسطس سنة ١٨٤٠ إلا وقد ورد خبر معاهدة ١٥ يوليو إلى مصر والشام ووردت الأوامر إلى الدونانمة الإنكليزية بمحاصرة سواحل الشام وأسر المراكب المصرية، حربية كانت أو تجارية، فعاد نابير إلى بيروت بعد أن أخذ فى طريقة كل ما قابله من المراكب فوصلها فى ١٤ أغسطس، وأعلن العساكر المصرية بإخلاء بيروت وعكّا فى أقرب وقت ونشر فى أنحاء الشام منشورات لإعلام الأهالى بما قررته الدول من إرجاع الشام لمصر ما عداعكّا وتحريضهم على العصيان على الحكومة المصرية وإظهار ولائهم للدولة العلية العثمانية.

وفى يوم ١٤ أغسطس بلغ خبر هذه المعاهدة رسمياً إلى محمد على باشا وأتت إليه بعد ذلك قناصل الدول الأربع المتحدة وعرضوا عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية (عكّا) له مدة حياته وأمهلوه ١٠ أيام لإعطاء جوابه، فطلب منهم كتابة بذلك فلّبوا طلبه، ثم فى اليوم التالى أفهموه أن فرنسا لا يمكنها مساعدته قط لتصميم الدول على تنفيذ ما اتفقت عليه ولو أدّى ذلك إلى حرب أوربى لكنه أصر على عدم القبول والدفاع عن حقه إلى آخر رمق من حياته. وفى يوم ٢٦ أغسطس الذى هو غاية الميعاد المعطى له حضر إليه القناصل ومعهم مندوب الدولة وأخبروه أنه لا حق له الآن فى ولاية (عكا)، وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر فقط له ولذريته فاحتدّ عليهم غضباً وطردهم من عنده قائلاً لهم كيف يجوز أن أسمح لكم بالمقام فى بلادى وأنتم وكلاء أعدائى فى هذه الديار، فانصرفوا وأعطوه عشرة أيام أخر لإبداء جوابه بحيث أن لم يجاوب تكون الدول غير مسئولة عما يحصل له من الضرر وبعد انقضاء هذه المدة بدون أن يصل إليهم جوابه كتب القناصل بذلك إلى سفراء الدول بإسلامبول

فاجتمعوا عند الصدر الأعظم وقرّروا بإتحادهم أخذ مصر والشام من محمد على باشا.

وفى أثناء هذه المدة كانت فرنسا، إتباعاً لرأى المسيو تيرس، تستعد للقتال مساعدة لمحمد على باشا ولكن لسوء حظ الأمة المصرية كانت هذه الإستعدادات غير كافية ولا تتم إلا بعد ستة أشهر لعدم وجود السلاح والذخائر الكافية للحرب، لا سيما وأن فرنسا تكون فى هذه الحالة مقاومة لأكبر دول أوربا ولما تحقق أهالى فرنسا أن حكومتهم لا تقوى على مساعدة محمد على باشا فعلا بعد أن جرّأته على المقاومة ووعدته بالمساعدة هاج الرأى العام على الموسيو تيرس المعضد لهذه السياسة، التى عادت على مصر بالضرر العظيم، حتى التزم بالإستعفاء فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ لكن لم يجد استعفاؤه لمصر نفعاً لوقوفها بمفردها أمام أربع دول من أعظم الدول شأناً وأعلاهم مكانة وأكثرهم قوة إذ أرسلت فرنسا أوامرها لدونانمتها أوّلاً بالإنسحاب إلى مياه اليونان ثم بالعودة إلى فرنسا وترك مصر والشام لمراكب انكلترا تحرق موانيها[1] بمقذوفاتها الجهنمية وكان رجوع الدونانمة الفرنساوية فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ أى قبل استعفاء المسيو تيرس بعشرين يوماً.

إطلاق المدافع على موانئ الشام:

هذا ولم تشترك الدول الأربع فى محاربة محمد على باشا بل قامت انكلترا وحدها بهذا العمل وساعدتها النمسا والدولة العلية ببعض من مراكبها وعساكرها البرية للنزول إلى البر إذا أقتضى الحال ذلك، وأما دولة البروسيا فلم يكن لها مراكب إذ ذاك والروسيا لم ترد الابتعاد عن القسطنطينية ولما وصل إلى سليمان باشا بلاغ الكومودور نابير وعلم بمنشوراته للأهالى أعلن فى الحال بجعل البلاد تحت الأحكام العسكرية وذلك خوفاً من قيام الجبليين إتباعاً للإنكليز، وأدخل فى مدينة بيروت العدد الكافى من الجند وأرسل لإبراهيم باشا أن يحضر

[1] فى الأصل (مينها) وقد اعتاد المؤلف على كتابة (مين) ليقصد بذلك موانئ (المحرر).

إليه بجيشه الذى كان معسكراً بقرب مدينة (بعلبك) ليشتركا فى المدافعة عن موانئ الشأم فوصل إبراهيم باشا إلى بيروت وعسكر فى ضواحيها وفى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ وصل الأميرال (ستوبفورد) الذى كان يجول بمراكبه أمام الإسكندرية إلى مياه بيروت ليشترك مع (الكومودور نابير) فى إطلاق المدافع على موانئ الشام وفى ١٠ منه وصلهما العساكر البرية وكانت مؤلفة من ألف وخمسمائة من البيادة الإنكليزية وثمانية آلاف بين أتراك وأرنؤد.

وفى يوم ١١ منه أنزلت هذه العساكر إلى البر فى نقطة تبعد نحو ستة أميال فى شمال بيروت ولم يتمكن إبراهيم باشا من منعهم لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الإنكليزية وفى ظهر ذلك اليوم وبعد نزول هذه العساكر إلى البر أرسل إلى سليمان باشا بلاغ من الأميرالين الإنكليزى والنمساوى بأن يخلى مدينة بيروت حالاً فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كى يتداول مع إبراهيم باشا فى هذا الأمر الجلل، فلم يقبل طلبه وابتدئ فى إطلاق المدافع على المدينة واستمر الإطلاق حتى المساء وابتدئ أيضاً فى اليوم التالى قبل الفجر ولم ينقطع إلا بعد هدم أو حرق أغلب المدينة وأُحرقت كذلك كل الموانئ الشامية قصد استخلاصها من محمد على باشا وإرجاعها إلى الدولة العلية كما كانت، مع أن محمد على باشا لم يأت بأمر يدل على رغبته فى الخروج من تحت ظل الراية العثمانية بل لم يزل مؤكداً إخلاصه وولاءه للدولة ولم يطلب إلابقاء هذه الولايات له ولذريته مع تبعيتهم للباب العالى ودفعهم الخراج له اعترافاً ببقاء تلك التبعية، ولولا تقلب الأحوال بينه وبين السلطان لتم بينهما الإتفاق على أحسن وفاق وحقنت دماء العباد ويدل على رغبة الطرفين فى ذلك إرسال الباب العالى ساريم بك أولاً وعاكف أفندى ثانياً إلى محمد على باشا لحلّ هذه المسألة.

ولا يخفى أن محمد على باشا هو الذى خلص مصر من فئة المماليك الباغية ونشر بجميع جوانبها لواء الأمن وتسبب فى ازدياد الزراعة ونموّ التجارة حتى

توفرت لمصر أسباب التمدن وتيسر بهذه الكيفية لقوافل التجارة الأورباوية المرور بين الإسكندرية والسويس بدون خوف من تعدى أحد عليها، وله الفضل أيضاً فى استئصال شأفة الوهابيين من بلاد العرب وإعادة الأمن إلى طريق الحجاج واستخلص منهم مدينتى مكة والمدينة بعد أن استحال إذلالهم على أيدى العساكر الشاهانية، فضلاً عن أنه هو الذى فتح بلاد الروم، ولولا ما حصل لأعادها إلى الدولة العلية بعد ما يئست من رجوعها إليها وهو الذى أعاد الأمن إلى ربوع الشام بعد احتلاله لها ومنع تعدّى البدو على الحضر كما أنه أبطل القتال المستمر الذى كان لا ينقطع دائماً بين الدروز والمارونية الأمر الذى لم يحصل قبل احتلاله ولا بعده[1] وقد انحرف الأمير الكبير بشير عن موافقة إبراهيم باشا بعد أن حافظ على ولائه مدّة، رغبة فى أن يعطى له من لدن الباب العالى اسم أمير الجبل وينادى له بذلك على رؤس الأشهاد، فانعكس عليه أمره وعاد عليه شؤم خيانته فعُزل عن إمارة الجبل وألزم بمفارقة الشام فانتبه من غفلته وندم على ما كان منه من الزلل حيث لا ينفعه الندم ثم أوصلته إحدى السفن الإنكليزية إلى بيروت فقابله هناك الأميرال ستوبفورد وبعد أن عنفه على تذبذبه الذى حصل منه ونفاقه الذى أداه إلى أن يتبع الأقوى شوكة، وعدم حفظه للعهود، أمر بإرساله وتابعيه مع قليل من عائلته إلى جزيرة مالطة ولم يجبه إلى ما طلبه من إرساله إلى إيطاليا أو فرنسا فوصل هذه الجزيرة فى أول نوفمبر سنة ١٨٤٠ وكان عمره إذ ذاك خمساً وثمانين سنة وأمضى ما بقى من عمره مفكراً فى سرعة زوال النعمة وسوء عاقبة التذبذب وأن الأحوط للإنسان والأجدر به أن يحافظ على عهوده لأنه لو مات مع المحافظة عليها لمات بالشرف والمجد ولو عاش مع الخيانة والتلون لعاش مع الفضيحة والعار وتوفى فى سنة ١٨٥٠ فى قسطنطينية.

---

[1] أريد بذلك ما حصل فى بلاد الشام من تعدى الدروز على المارونية بل وعلى كافة المسيحيين من الطوائف الآخر سنة ١٨٦٠ وقتلهم إياهم وإحراقهم بيوتهم وانتهاكهم حرمة كنائسهم وعرض نسائهم ولولا حماية عبد القادر الجزائرلى لنصارى دمشق لقتلوا عن آخرهم الأمر الذى أوجب تداخل فرانسا واحتلال عساكرها البلاد الشامية مدة سنتين تقريباً ولولا نزاهة نابليون الثالث لصار هذا الإحتلال أبدياً.

إخلاء المصريين بلاد الشام:

هذا ولنقل بالإختصار، إن المراكب الإنكليزية والعساكر المختلطة التى أنزلت إلى البر فى عدة مواضع تمكنت من أخذ جميع المدن الواقعة على البحر وإخراج المصريين منها حتى لم يكن لمحمد على باشا بدّ من الإذعان إلى مطالب أوربا، وأنه من العبث المحض مقاومة الدول المتحدة فأصدر أوامره إلى ولده إبراهيم باشا بعدم تعريض عساكره للقتال والموت بلا فائدة وباستدعاء الجنود المعسكرة فى حدود الشام والإنجلاء عنها مع إتخاذ أنواع الإحتراس الكلى من العرب وسكان الجبل، فبلغ إبراهيم باشا هذه الأوامر إلى القواد جميعهم وأخذ الجنود فى الرجوع من كل فج وصاروا يتجمعون حول قائدهم الأعظم الذى قادهم غير مرة إلى النصر والظفر وبعد ذلك قسم الجيش عدة فرق كل منها تحت إمرة أحد ممن اشتهر من القواد بالبسالة والتبصر فى عواقب الأمور وصار الكل راجعين إلى مصر تاركين البلاد التى سفكوا فيها دمائهم وسيتركون فيها قبور إخوانهم.

وكان إبتداء الجيش فى الرجوع إلى مصر فى أواسط شهر ديسمبر سنة ١٨٤٠ ووصل الكل إلى القاهرة بعد أن ذاقوا مرارة النصب وتحملوا أنواع الذل والتعب وقاسوا شديد الوصب، مما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام ويكدر الأذهان فضلاً عن موت كثير منهم فى الطريق بسبب مناوشات العرب الذين زادت همتهم وجراءتهم لما تحققوا من عدم تمكن المصريين من العودة ورائهم واقتفاء آثارهم ومع ذلك فتمكن سليمان باشا من إرجاع مائة وخمسين مدفعاً بخيولها إلى مصر، وكثير من خيول السوارى التى هلك قسم عظيم منها بسبب العطش وشدة التعب.

وأما إبراهيم باشا وفرقته فلم يمكنهم العودة إلى القاهرة من طريق صحراء العريش لشدة ما لاقوه أثناء مرورهم فى فلسطين من معارضة العرب لهم الذين سدوا عليهم الطريق واحتلوا جميع القناطر المبنية على الأنهر حتى اضطر لمحاربتهم

فى كل يوم بل وفى كل ساعة، وأخيراً وصل مدينة غزة بعد أن استشهد فى الطريق ثلاثة أرباع من معه وكثير من المستخدمين الملكيين الذين أرادوا الرجوع إلى وطنهم مع عائلاتهم، فلما وصل غزة كتب لوالده إشعاراً بقدومه وطلب منه إرسال ما يلزم من المراكب لنقل فرقته إلى الإسكندرية وما يلزم لمؤنتهم وملبسهم.

وفى أثناء هذه المدة عرض الكومودور نابير على محمد على باشا أن الحكومة الإنكليزية تسعى لدى الباب العالى فى إعطاء مصر له ولورثته، لو تنازل عن الشام وردّ الدونانمة التركية إلى الدولة العلية فامتثل لهذا الأمر وقبل هذه الشروط لحفظ مصر لذريته وتم بينهما الإتفاق فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠. ولم يقبل الباب العالى هذا الإتفاق إلا بعد تردد وإحجام وتداول عدة مخاطبات بينه وبين وكلاء الدول الأربع المتحدة المجتمعين بمدينة لوندرة بصفة مؤتمر وصدر بذلك فرمان همايونى فى تاريخ ٢١ ذى الحجه سنة ١٢٥٦ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١) هذا مؤداه[1].

أولاً: أن الولاية تكون لمن يختاره الباب العالى من أولاد محمد على باشا الذكور ثم لأولاد أولاده الذكور وهلم جرا بحيث لايكون لأولاد البنات الحق فى الحكم مطلقاً.

ثانياً: يجب على من يعينه السلطان والياً على مصر أن يسافر بنفسه إلى القسطنطينية لإستلام فرمان التولية بيده.

ثالثاً: أن الذى ينتخب والياً لمصر يعتبر كأحد وزراء الدولة فى مخاطباته مع الباب العالى المراسلات السلطانية بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الحيثية مطلقاً.

---

(1) إن كافة التفصيلات الآتية مستمدة من مجموعة طبعت فى بولاق سنة ١٨٨٦ ومشتملة على كافة الفرمانات والمحررات الرسمية المختصة بمصر ابتداء معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠.

رابعاً: أن والى مصر يكون ملزماً بإتباع أحكام فرمان التنظيمات[1] الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته، وكل ما صدر أو يصدره الباب العالى من القوانين واللوائح ويكون الوالى ملزماً أيضاً بالسير فى ولايته طبق المعاهدات المبرمة أو التى تبرم بين الباب العالى والدول الأجنبية أيا كانت بدون تغيير ولا تبديل، بما أن الحكومة المصرية لم تخرج من كونها ولاية عثمانية كباقى الولايات.

خامساً: أن سائر الضرائب على اختلاف أنواعها يكون تحصيلها باسم الجناب السلطانى ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية.

سادساً: أن ربع المتحصل من الضرائب يدفع إلى الخزينة الشاهانية والثلاثة أرباع الباقية يصرف منها ما يلزم لمصاريف الإدارة وجباية الأموال وما يلزم أيضاً للوالى وعائلته وثمن البُر[2] الذى يرسل سنوياً إلى مدينتى مكة والمدينة المنورة.

سابعاً: أن هذه الضريبة يصير دفعها مدة خمس سنين تبدأ من سنة ١٢٥٧ هجرية وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها إما بزيادة أو نقصان حسب ما تستدعيه ثروة الحكومة والأهالى.

ثامناً: أنه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة ما يخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعين لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية وينظر فى تعيينها بعد، كما تقتضيه الإدارة الشاهانية.

تاسعاً: يكون لمصر الحق فى ضرب العملة من فضية وذهبية ونحاسية بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار.

(١) هذا الفرمان المعروف فى كتب الإفرنج بخط شريف الكلخانة صدر فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وتلى بجلسة حافلة حضرها وزراء و أعيان المملكة وقناصل الدول.

(٢) القمح (المحرر).

عاشراً: عدد الجيش المصرى يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً مدة السلم أما فى حالة الحرب فيزاد هذا المقدار إلى الحد الذى تقرره الدولة بما أن العساكر المصرية ملزمة اذذاك بالاشتراك والمساعدة فى القتال مع باقى الجنود الشاهانية.

حادى عشر: أن مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع فى الدولة، وحيث أن الجيش المصرى كان يبلغ فى ذاك الوقت زهاء ثمانين ألفاً فيؤخذ منهم عشرون ألفاً ويصير إرجاع الباقى إلى بلادهم ويرسل أيضاً من هذا القدر ألفان إلى دار السعادة كى لا يبقى فى مصر إلا الثمانية عشر ألفاً المقررة.

ثانى عشر: حيث أن مدة الخدمة العسكرية خمس سنين فيؤخذ سنوياً من أنفار القرعة أربعة آلاف شاب يرسل منهم إلى دار الخلافة أربعمائة ويبقى الباقون فى مصر.

ثالث عشر: أن من أدّى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود إلى بلده ولا يجوز إدخاله فى الجيش مرة أخرى.

رابع عشر: أن ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية.

خامس عشر: كذلك ملابس البحار وضباط البحرية وبيارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع فى بحرية الدولة العلية.

سادس عشر: لا يكون لوالى مصر الحق فى منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية إلا لغاية رتبة صاغ قول أغاسى بدخول الغاية فى المغيا.

سابع عشر: لا يكون لوالى مصر الحق فى إنشاء سفن حربية إلا بعد الحصول على إذن صريح من الدولة العلية.

ثامن عشر: حيث أن حق الوراثة على ولاية مصر لم يمنح لمحمد على باشا وعائلته إلا بهذه الشروط فلو أخلوا بإحدها، سقط حقهم وصار لجلالة السلطان الحق فى تولية من يشاء.

ولقد منحه الباب العالى أيضا ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار مدة حياته بدون أن تنتقل إلى ورثته كمصر، بمقتضى فرمان شاهانى أصدر فى اليوم الذى أصدر فيه الفرمان الأول أعنى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وكُلّف أن يقدم حساباً عن هذه الولايات سنوياً إلى دار الخلافة العظمى، وأن يمنع ما كان متبعاً فى السودان من إغارة الجند على قرى الأهالى وخطف بناقم وصبياهم ليبيعوها ويستولوا على ثمنها خصماً من ماهياقم ومرتباقم، وأن تمنع كلية عادة خصى بعض هؤلاء التعيسى الحظ لإستخدامهم فى السرايات بصفة حرس على الحريم (أغاوات)، وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ويرسل إلى الباب العالى قائمة بأسمائهم من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسى فما فوق ليصدر أمره بتثبيتهم فى وظائفهم.

فقبل محمد على باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضا ثم طلب من الدول أن تساعده فى تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك وأرسلت إلى الباب العالى لائحة بتاريخ ١٣ مارث سنة ١٨٤١ طلبت منه بها أن يعامله على حسب ما هو مدوّن بملحق معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وبلائحة ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى فرمان تاريخه ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ بتحوير فرمانها الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وهاك أهم ما فيه من الشروط:

أولاً: أن حق الوراثة يكون للأكبر سناً بين أولاده وأولاد أولاده الذكور مع بقاء الشرط الملزم لمن يستحق الولاية بهذه الكيفية بالسفر إلى مقرّ دار الخلافة العظمى لإستلامه الفرمان بيده.

ثانياً: أن ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العلية صاحبة السيادة بصفة خراج لا يكون ربع إيراد الحكومة قبل خصم مصاريف الجباية والإدارة بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة حالة الحكومة المصرية.

ثالثاً: أن يكون للوالى حق فى منح الرتب لغاية رتبة أمير ألاى بدخول الغاية فى المغيا، أمّا ما فوق ذلك فلا يكون إلا بإذن من الباب العالى.

ولما أقرت الدول على هذا التحوير بمقتضى لائحة تاريخها ١٠ مايو سنة ١٨٤١ أصدرت الحضرة الشاهانية فرماناً آخر فى ١١ ربيع آخر سنة ١٢٥٧ الموافق أول يونيو سنة ١٨٤١ مؤيدا لما فى الفرمان السابق وفى غرة جمادى الاولى سنة ١٢٥٧ (٢٠ يوليو سنة ١٨٤١) صدر فرمان آخر يجعل مقدار ما تدفعه الحكومة المصرية إلى الدولة العلية سنوياً ثمانية آلاف كيسة[1].

* * *

وبذا انتهت المسألة المصرية ونال الباب العالى مرغوبه من إرجاع الحكومة المصرية إلى حدودها، ورجوع الشام إلى الحكومة العثمانية فعاد هذا القطر إلى ما كان عليه من الفوضى وعدم الإتفاق بين الشعوب العديدة النازلة به المختلفة المذاهب والعقائد والعوائد حتى لا تمر سنة إلا ويحصل به ما يخل بالراحة العمومية بين الدروز والنصارى الأمر الذى كان امتنع كلية فى المدة التى كانت البلاد فيها تابعة للحكومة المصرية أى من سنة ١٨٣١ إلى أواخر سنة ١٨٤٠ وما كان ذلك إلا لحسن إدارة الحكومة المصرية وشدّة بطش إبراهيم باشا ومن تحت أمره ومعاملتهم الأهالى بالعدل والقسطاس بدون نظر إلى دياناتهم وجنسيتهم ولو استمرت تبعيتها لمصر مدة نصف قرن فقط لزال ما بين الأهالى من العداوة والبغضاء وساروا باتحاد تام فى طريق التقدم.

هذا ولما وصل محمد على باشا كتاب ولده إبراهيم باشا بطلب ما تقدم أرسل إليه كل ما يلزم لإرجاع الجند ومن معهم من المستخدمين الملكيين

[1] واستمر دفع الخراج بهذه الكيفية لغاية سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٥م) ثم زيد مقداره إلى مائة وخمسين ألف كيسة أعنى ٧٥٠٠٠٠ جنيه عثمانى بمقتضى فرمان صادر بتاريخ ١٢ محرم سنة ٨٣ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر من مدينتى سواكن ومصوّع ومديرية التاكة وتغيير ترتيب الوراثة فى خديوية مصر فى عهد الخديوى السابق إسماعيل باشا بأن حصرت الوراثة فى الأكبر من أولاده ثم لولاد الأكبر ثم فى إخوته عند عدم وجود ولد له ثم لولاد الإخوة على هذا الترتيب.

وعائلاتهم ولما أخذ العساكر فى النزول إلى المراكب أرسل إليه الكومودور نابير بأن يترك فى مدينة غزة كل من بجيشه من السوريين ليرجعوا إلى بلادهم وجبالهم لما أن الشام قد انسلخت عن مصر وأعيدت إلى الحكومة العثمانية فالتزم بتركهم وكان لذلك تأثير محزن فى قلوب المصريين لما علموا أن كل أتعابهم وما سفكوه من دمائهم وما فقدوه من إخوانهم فى ميادين القتال لم يعد على وطنهم بشئ بل ذهب أدراج الرياح ولكنهم تسلوا عن ذلك بما نالوه من الشرف وأكسب وطنهم فخراً مخلداً ومجداً مؤبداً.

ومن غريب المصادفة وأعجبها أن رجوع إبراهيم باشا مع جيشه إلى الإسكندرية وافق يوم خروج الدونانمة التركية من مينا الإسكندرية فى ٢٣ يناير سنة ١٨٤١ بعد أن مكثت بها ستة أشهر تقريباً والتزم محمد على باشا بردها إلى الدولة العلية بمقتضى الوفاق الذى أبرم بينه وبين الكومودور نابير فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠، فكان لهذا التصادف وقع محزن فى قلب محمد على باشا لضياع أتعابه هدراً وهباء منثوراً، لكنه علم أنه يلزمه ومن الواجب عليه أن يفرغ جهده ويبذل همته فى ترقية مصر وإصلاح شؤنها فإنها لو اعتنى بأمرها لدرت أضعافاً مما ينتج منها وهى على هذه الحالة.

ولم يظهر محمد على باشا ألما مما أصابه من ضياع ولايتى الشام وكريد اللتين صرف فيهما الأرواح العزيزة والأموال النفيسة بل أظهر أن قصده الوحيد هو ترقية مصر وإدخالها فى سلك الأمم المتمدّنة، وأن الأحوال اضطرته إلى فتح البلاد الشامية لا عن سبق إصرار ولتبليغ ذلك إلى الدول أمر باغوص بيك ناظر خارجيته أن يرسل لها منشوراً يقول فيه أن الله قد منّ على مصر بانتهاء الحرب طبق إرادته سبحانه وتعالى إذ لا يحصل فى العالم شئ إلا كما قررته إرادته فى الأزل وأبرزته قدرته إلى الوجود وأن جلالة السلطان المعظم قد منحته ولاية مصر له ولذريته إلى ما شاء الله وأنه يشكر الدول العظام على مساعدتهم إياه على نوال هذه الغاية، التى لولاها لما حصل عليها، وأنه سيفرغ ما فى وسعه

لتخفيف أثقال الأهالى وتحسين المالية التى نضبت إيراداقما لما استلزمه الحرب من المصاريف الباهظة التى جاءت بغير جدوى وإصلاح الإدارة وتتميم ما ابتدئ به من الأشغال النافعة للرى الذى هو قوام الزراعة وفتح الخلجان لتسهيل الملاحة والتجارة ونشر العلم بين أفراد الامة ليكون منها رجال أكفاء يقومون بخدمة وطنهم حق القيام.

وفى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٤١ صرف الجيش المصرى، ولم يبق منه إلا القدر المعين فى الفرمان الذى سبقت الإشارة إليه وبذا اقتنعت الدول بخضوعه لأوامر الدولة العلية وأمرت قناصلها بالرجوع إلى الاسكندرية فرفع قنصل النمسا العلم فى ١٥ أغسطس وفى ٢٣ منه رفعت بقية الدول أعلامها ورجعت المياه إلى مجاريها وأهدى محمد على باشا إلى قنصل انكلترا الموسيو (برنت) حصاناً مطهماً وسيفاً مرصعاً.

وفى أوائل شهر أكتوبر من هذه السنة أرسل السلطان إلى مصر أحد ياورانه ليظهر لواليها سروره من رجوعه عن المحاربة ودخوله تحت حماية الدولة العثمانية ويقدّم له سيفاً هدية من الحضرة السلطانية مع أفخر نياشين الدولة وكتاباً من جلالة السلطان، ولما علم محمد على باشا بذلك أرسل ولده سعيد باشا[1] لملاقاه الياور السلطانى عند نزوله إلى الاسكندرية فتوجه إليه وقابله هناك ثم وصلا إلى سراى شبرا من طريق البحر فى ١٠ أكتوبر وفى يوم ١١ منه صعد الياوران السلطانى إلى قلعة مصر فى موكب حافل يتقدمه آلاى من المشاة وألايان من السوارى مع موسيقاهم وكان الإزدحام شديد المشاهدة هذا المندوب السامى الذى لم يحضر إلى مصر مثله منذ مدة. وقابله محمد على باشا فى ديوانه بغاية الأبهة والجلال تحفه يميناً وشمالاً أكابر حكومته مع كافة الضباط والقوّاد الذين

[1] ولد هذا الأمير سنة ١٨٢٢ وتربى تربية حسنة وتقلد وظائف مهمة وحارب تحت إمرة أخيه إبراهيم باشا فى بلاد الشام وصعد إلى أريكة الحكومة المصرية سنة ١٨٥٤ بعد قتل عباس باشا فى ١٤ يوليو سنة ٥٤ وتوفى سنة ١٨٦٣ وم أشهر أعماله مساعدته الموسيو دىلسبس عند فتح برزخ السويس وتأسيس مدينة بورسعيد الواقعة على فم القنال من جهة البحر الأبيض المتوسط.

امتازوا فى واقعة (نصيبين) وما قبلها وكان سليمان باشا من الحاضرين وواقفاً فى أقرب موضع من سموّ الوالى فاندهش الياوران السامى من هذا الجمع العظيم والجيش الذى اشتهر بالمهارة والشجاعة، وقدم وقتئذ الهدية لمحمد على باشا وانصرف بعد أن قبلها منه بكل أبهة وجلال ثم بعد ذلك أخذ فى تتميم الإصلاحات التى عزم عليها لإيجاد التوازن فى المالية المصرية، فأصدر أمره بنزع المدافع من المراكب الحربية واستعمالها فى التجارة كى يظهر لأوربا أنه اكتفى واقتنع بولاية مصر الخصبة التربة المعتدلة الهواء الغزيرة المياه وقد تم ذلك فى أوائل سنة ١٨٤٢ ولم يبق من هذه المراكب العظيمة إلا العدد الكافى للحكومة والأمة.

وفى أثناء هذه السنة زار الخديوى اقليم الفيوم وأبطل احتكار الجلد والصوف ولما عاد إلى المحروسة أبطل احتكار سائر الأصناف التجارية ما عدا القطن خوفاً من نضوب الخزينة، إذ ربح بيع القطن من أهم مواردها[1] وكان عازماً أيضاً على التنازل عن احتكاره وجعل تجارته حرة لو سمحت خزينة الحكومة بذلك.

وفى ٩ يناير سنة ١٨٤٤ توفى باغوص بيك وزير خارجيته وكان لموته تأثير محزن عند محمد على باشا لما كان له عنده من المكانة العظمى لأنه كان يعتمد عليه فى الأعمال المهمة والمخابرات المدلهمة وخلفه فى منصبه أرتين أفندى.

ثم فى أوائل شهر أغسطس من هذه السنة خطر بباله أن يرسل لأوربا بإثنين من أعضاء عائلته الكريمة ليكونا قدوة لمن أرسل قبلهم ولمن يرافقهم من شبان المصريين وسبباً لمراعاة الحكومة الفرنساوية للإرسالية المصرية، وبعد أن بحث سموه فى هذا المشروع وتأمل فيه وتفكر فى نتائجه الحسنة وبعد المباحثة فى ذلك مع سليمان باشا قبل أن يرسل إلى مدينة باريس حسين بيك ثالث أولاده

---

[1] إن الحكومة فى ذات الوقت كانت محتكرة أغلب محصولات الأرض وغيرها من معامل الدجاج وأماكن حرق الجير والجبس فكان الفلاح ملزما ببيع متحصلات ارضه للحكومة بحسب الأثمان التى تقدرها وهى تبيعها داخل القطر وخارجه بالسعر الحاضر فكان يعود عليه من ذلك ربح عظيم.

والأمير أحمد بيك نجل ولده إبراهيم باشا، وبأن يرسل معهما أربعاً وثلاثين شاباً مصرياً وكلف سليمان باشا بإنتخاب البعض من المدارس الحربيـة والمـدارس الهندسية (مهندسخانة) فانتخب أحد عشر تلميذاً من مدرسة الطوبجيـة وسـتة عشر من مدرسة السوارى وسبعة من المهندسخانة وأرسل الجميع إلى مـدارس باريس الحربية.

وفى ٢٥ من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ وصل فريق منهم إلى مدينة ليـون وفى ٢٨ منه وصلها الأميران حسين بيك وأحمد بيك فقوبلا بكل تبجيل وتكريم وتفخيم وتعظيم ونزلا بلوكاندة (أوربا) وزارهما فيها حاكم المدينـة وأعـضاء مجالسها وقضاها وسائر مأمورى الحكومة وقضيا بهذه المدينـة يـومين زارا فى خلالهما آثارها ومحلاها العمومية وضواحيها اللطيفة وتنـزها فى نهرى الـسون والرون اللذين يجتمعان فى وسطها وكان يرافقهما فى جولاهما إثنان من ياوران الملك لويس فيليب، كان عينهما الملك لملاقاهمـا عنـد نزولهمـا فى مدينـة مرسيليا[1] ومرافقتهما إلى مدينة باريس الزاهرة وكانت مقابلة الأهالى لهمـا فى جميع البلاد التى مرّا بها تظهر محبة الفرنساويين لهما ولعائلتهما، ولما وصـلا إلى مدينة باريس قوبلا بأحسن مما قوبلا به فى مدينة (ليون) وقابلهما الملك وأحسن وفادهما حق الإحسان وتمتعا منه بالإمتنان.

زيارة الدوك دى مونبانسيه لمصر:

ولإظهار ما حصل له من السرور لإختيار محمد على باشـا مدينـة بـاريس لتهذيب أخلاق أولاده وثمرة فؤاده وتوسيع عقولهم وزيادة علـومهم، أرسـل ولده الدوك (دى مونبانسيه) إلى مصر ليتمم دراسة فن التاريخ بزيارة آثار مصر

[1] مرسيليا مدينة واقعة على البحر الأبيض المتوسط أسسها الفينيقيون سنة ٦٠٠ قبل المسيح وكانت فى عصر الرومانيين مناظرة لمدينة قرطاجنّة فكانت مراكبها تمر على كافة سواحل البحر المتوسط وتجوب عباب المحيط الأطلانطيقى حتى جزائر بريطانيا وبحر بلطيق ودخلها العرب مراراً كثيرة فى القرن الثالث عشر للمسيح ولقد زادت تجارتها بعد دخول الفرنساويين جزائر الغرب وفتح خليج السويس ولها مع مصر علاقات كثيرة.

القديمة منبع العلوم والمعارف ومهد الفنون واللطائف فوصل الأمير الفرنساوى إلى ثغر الاسكندرية فى صباح ٣٠يونيه سنة ١٨٤٥ وكان فى انتظاره بالثغر الأمير سعيد باشا ابن سمو الوالى فلما علم بقدوم السفينة المقلة للدوك توجه إليها ليهنئه بسلامة الوصول وكان ممن صحبه أيضا فى هذه الزيارة جاليس باشا المهندس الفرنساوى الذى أرسلته الحكومة الفرنساوية لمصر سنة ١٨٤٠ لتحصين الثغر الأسكندرى من طوارئ الزمان ونوائب الحدثان.

وبعد ظهر ذلك اليوم بثلاث ساعات جاء سعيد باشا وأخبره أن والده محمد على باشا قد جعل سراى القبارى تحت أمره ويدعوه إلى النزول بها كى يحظى بزيارة جنابه العالى، فقبل الدوك منه ذلك وشكره على عظيم التفاته وحسن اعتنائه ثم نزلا من السفينة الفرنساوية التى حيتهما بإطلاقها واحداً وعشرين مدفعاً وجاوبتها السفن المصرية بمثل ذلك.

فوصل إلى سراية القبارى ومكث فيها برهة شرب فى خلالها القهوة والمرطبات ثم وفد على السراى محمد على باشا فى عربة تجرها ستة من أحسن الخيول العربية وتحف بها كوكبة من فرسان المماليك لابسين ثياباً فاخرة مزركشة بالذهب والحجارة الكريمة على أحسن نوع وأتم وضع، فقابل الدوك بأحسن مقابلة وشكره على تشريفه الديار المصرية ثم عاد بمثل ما جاء به من الإجلال والتعظيم.

وفى صبيحة اليوم التالى ردّ الدوك إلى الوالى الزيارة فى سراى رأس التين العامرة فقابله الوالى وسائر ضباطه البرية والبحرية بدون أن ينقص منهم أحد إلا سليمان باشا فإنه كان مريضا بالقاهرة مما كابده من الأتعاب أثناء عودته من الشام وفى مساء هذه الليلة صنع له سموّ الوالى مأدبة فاخرة دعى إليها سراة القوم وأكابرهم وأعيانهم وسائر الموظفين من الفرنساويين وقدم لجناب الدوك الدكتور (كلوت بيك) مؤسس مدرسة الطب و(لنبيربيك) مؤسس مدرسة المهندسخانة وغيرهما من الفرنساويين الذين لهم الفضل الأعظم فى تأسيس

المدارس وبناء القناطر وكذلك كافة ما حصلت عليه مصر من التقدم فى زمن المغفور له محمد على باشا، ولقد صرف الدوك أسبوعاً كاملا فى مدينة الإسكندرية قضاه فى زيارة الإستحكامات والإسبتاليات والسفن الحربية وسرّ كثيراً من السفينة المسماة (بنى سويف) أكبر سفن المصريين فكان فيها مائة مدفع وألف ومائة جندى وكان قائدها سعيد باشا.

ثم ركب النيل ومعه سعيد باشا وعباس باشا فوصلوا إلى مصر ونزلوا بسراى شبرا فى يوم ٨ يوليو وكان بانتظارهم هناك إبراهيم باشا وبعد أن استراح الدوك قليلا ركب فى عربة مع إبراهيم باشا وسارا إلى القلعة حيث كانت معدة لإقامة محمد على باشا فوصلاها فى الساعة ١٠ مساء وكان مرورهما بين صفوف الأهالى والعساكر يتقدمهم جم غفير من حاملى المشاعل وفى يوم ٩ منه طاف الدوك فى أنحاء القاهرة للتفرج على ما بها من الآثار العربية، فشاهد كافة المساجد القديمة وقبور الخلفاء، وعند الأصيل توجه إلى مصر القديمة وعاد سليمان باشا وكان طريح الفراش فسرّ كثيراً من تنازل نجل ملك فرنسا إلى زيارته ثم شارف مقياس النيل بجزيرة الروضة (المنيل) وفى يوم ١٠ منه أقيمت صلاة احتفالية فى الكنيسة الفرنساوية تذكاراً لعيد جلالة ملكة فرنسا (مارى آميلى) والدة الدوك فحضرها مع كل ضباط الدونانمة التى رافقته إلى الإسكندرية.

وفى مساء ذلك اليوم زار الأمير عباس باشا وتوجها معا على طريق البر إلى مدينة السويس واستراحا أثناء السير فى السراى التى بناها عباس باشا فى الصحراء وبعد أن شارفا المدينة والمينا ذهب الدوك إلى جبل طود سينا لزيارة الأماكن المقدسة هناك وعادا إلى القاهرة. وأظهر الدوك رغبته فى السفر على طريق النيل إلى مصر العليا وزيارة آثار مدينة طيبة فقيل له أن السفر إلى هذه الجهات لا يستحسن إلا فى زمن الشتاء لما أن النيل يبتدئ فى الزيارة فى شهر يوليو وأن الاولى العودة إلى مصر فى أواخر الشتاء حين تكون مياه النيل قد

تناقصت فقال الدوك أنه لا يمكن ذلك لأنه ربما تشب نـار الحـرب فى بـلاد الجزائر فى أوائل الربيع وأنه لا بد أن يحضرها، فسلم عباس باشا ما طلبه الدوك وأصدر أوامره المشدّدة بتجهيز ثلاثة بواخر نيلية فجهزت فى أسرع وقت وعزم الدوك على السفر فى ١٤ يوليو سنة ١٨٤٥. ففى صبيحة ذلك اليوم توجـه الدوك إلى السراى بشبرا لوداع الأمير إبراهيم باشا فوجد عنده سليمان باشـا الفرنساوى، وكان قد نقه من مرضه قليلاً وجاء لتأدية واجبات العبودية لإبـن ملكه وخالف تشديدات الأطباء عليه بعدم الخروج خوفاً من عود المرض إليـه فقابله الدوك أحسن مقابلة وأظهر له سرور الملك وسرور الأمـة الفرنـساوية كلها مما أتاحه الله للمصريين من النصر فى بلاد الشام بحسن ترتيباته العـسكرية وتنظيماته الحربية، وأن فرنسا تودّ وجود أحد أبنائها الأعزة فى مثل هذا المنصب لأن هذا مما يعلى كلمتها ويحقق رغبتها فى تقدم مصر التى كانـت ولم تـزل فى مقدمة البلاد الشرقية.

ثم عاد الكل إلى فرضة بولاق حيث تنتظرهم البواخر المعدّة لـسفر الـدوك فنزل فى الأولى مع بعض معيته وكان يخفق عليها العلم الملوكى الفرنساوى ونزل فى الثانية الأمير سعيد باشا وحاشيته وفى الثالثة بقية معية الأميرين الفرنـساوى والمصرى وكان العلم المصرى المنصور الذى تبعه المصريون فى ساحة القتال غير مرة يرفرف فوق الباخرتين الأخريين.

وبعد أن ودعه الأمير إبراهيم باشا وسليمان باشا ومن كـان معهمـا مـن الامراء وأكابر الأعيان أقلعت البواخر فى الساعة ١٠ صباحا وكان الجوّ صحوا والريح رخوا فسارت تشق عباب البحر، ولم تزل الأبصار شاخصة إليها حـتى بعدت عن الأنظار ثم انصرف الجميع وعاد كل إلى محله مسرورا ممـا رآه مـن لطف الدوك وحاشيته ولم يلبث الدوك فى سياحته طويلاً بل عاد بعد أن شارف المنيا وأسيوط ودندرة وآثار مدينة طيبة ثم سافر توّا إلى فرنسا.

ولقد سرّ والده (لويس فيليب) لما بلغه ما لقيه ولده فى الديار المصرية من حسن الملاقاة وكرم الوفادة فأهدى لسمو محمد على باشا الجران كوردون من نيشان الليجيون دونور، وكان إرساله مع أحد مستخدمى نظارة خارجيته المسيو (دى منترو) فوصل المرسل إلى مصر فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٥ واستقبله سمو الوالى بقاعة الإستقبال بسراى القلعة العامرة وكان الإحتفال جامعاً لكافة أمراء مصر وقوادها البرية والبحرية الذين اشتهروا وحازوا قصب السبق فى حروب الشام الأخيرة، ولم يشهد هذا الاحتفال سليمان باشا الفرنساوى لأنه كان مرافقاً لإبراهيم باشا فى بلاد إيطاليا وكان قد ذهب إليها طلباً للشفاء من مرضٍ باطنى أَلَمَّ به منذ مدة وكان الأطباء أشاروا عليه بالتوجه إليها لمداواته بالإستحمام بالمياه المعدنية.

٩- رحلة إبراهيم باشا إلى أوربا

سفر إبراهيم باشا إلى أوربا:

وأما محمد على باشا فلم يكن سروره بهذه الهدية صافياً، بل كان يشوبه الكدر مما ألم بأكبر أولاده الأمير إبراهيم باشا من المرض الداخلى الذى أنهك قواه حتى تحيرت الأطباء فى علاجه وفى آخر الأمر أشار عليه الدكتور (لالمان) طبيبه الخاص به بأن يسافر فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ إلى حمامات (سان جيتانو) بالقرب من مدينة بيز[١] بإيطاليا، فسافر إليها وبعد أن استمر وداوم على الإستحمام فى مياهها المعدنية مدة بدون فائدة، أشار عليه الأطباء مرة ثانية بالتوجه إلى مياه فرنيه الواقعة على جبال البيرنية الشامخة الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا فكتب إبراهيم باشا لوالده بذلك وطلب منه إخبار حكومة فرنسا بحضوره إليها فانشرح (لويز فيليب) ملك فرنسا لمجئ شجاع مصر وفاتح مورة والشام الذى عم ذكره جميع الأقطار إلى بلاده، ولقد أمر والد الأمير سليمان باشا بمرافقته لولده الأعز فى هذه السياحة كى يكون له دليلاً ومرشداً فى هذه البلاد التى لم يسبق له توجه إليها، فسر بذلك لما أنه يودّ أن يرى وطنه العزيز بعد أن غاب عنه مدة ٢٥ سنة فسافر إلى (بيزا) ومنها إلى (فلورنسا) مع إبراهيم باشا وحاشيته ومنها إلى (ليفورن) فجنوة[٢] وقابله شارل البربت[١] ملك سردينيا فرحب به وأضافه أربعة أيام متوالية.

---

[١] هى فرضة واقعة على البحر المتوسط وهى قديمة العهد جداً وكانت فى القرن الثالث عشر للميلاد من أعظم بلاد إيطاليا تجارة ولها امتياز التجارة فى القسطنطينية وأنطاكية وسائر موانئ الشام والروم ثم تعطلت تجارتها بسبب تداخلها فى الحروب الدينية بين البابا وإمبراطورية ألمانيا ولم تعد بعد ذلك إلى ما كانت عليه من التقدم فى أنواع التجارة والملاحة ثم فتحها نابليون الأول وصارت تابعة لفرنسا من سنة ١٨٠٧ إلى سنة ١٨١٤ ومن ذلك العهد تبعت بلاد التوسكان فى تقلباتها السياسية وهى الآن داخلة ضمن مملكة إيطاليا.

[٢] هى مدينة قديمة واقعة على البحر المتوسط يقال إنها أسست قبل الميلاد بسبعمائة سنة وبعد أن حكمها الرومان مدة ودخلها غالب طوائف المتوحشين الذين أغاروا على بلاد إيطاليا فى القرن الخامس واستقلت فى القرن العاشر وصارت جمهورية تجارية كانت تعادى جمهورية البندقية واستمرت كذلك إلى آخر الجيل الخامس عشر حيث بلغت ذروة المجد والغنى ثم أخذت فى الإنحطاط شيئا فشيئا لتنازع أغنيائها فى السلطة وفى سنة ١٨٠٥ احتلها نابليون الأول وصارت تابعة لفرنسا إلى سنة ١٨١٤ حيث أعطاها مؤتمر فيينا إلى ملك سردينيا وهى الآن ضمن مملكة إيطاليا.

وفى أثناء إقامة إبراهيم باشا فى مدينة جنوه سافر سليمان باشا إلى مدينة طولون[2] من أعمال فرنسا، لإجراء الترتيبات اللازمة لإقامة أميره حين قدومه إلى أرض فرنسا فوصلها فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٤٥ وكان فى انتظاره هناك مأمور الحكومة وجم غفير من الأهالى أتوا من كل فج لمقابلة هذا الشجاع الفرنساوى الذى تجرع غصص الفاقة فى فرنسا وخرج منها فقيراً وإن لم يكن حقيراً، وعاد إليها بعد خمس وعشرين سنة مكللاً بالنصر والظفر ومتحصلاً على رضا سمو أميره وافتخار كافة ضباط الجيش المصرى به حيث قام بجميع ما يلزم للوطن العزيز بالذمة الصادقة والهمة العالية.

فبعد أن أجر المحلات اللازمة لإقامة أميره وحاشيته قضى مدة انتظاره فى التفرج على استحكامات المدينة من جهتى البر والبحر وعلى ما بها من الترسانات والسفن الحربية وجميع الأعمال الفنية، وبينما جميع الأهالى منتظرون سمو الأمير المصرى المنصور متشوقون لرؤيته إذ وصل إليها من طريق البحر فى صبح يوم ٢ نوفمبر، تنقله احدى سفن مصر الحربية، وأدت التحية لهذا الأمير بارجة الأميرال بطلقها أحداً وعشرين مدفعاً ورفعها العلم المصرى على أعلى صواريها وكذلك كافة السفن الفرنساوية رفعت العلم المصرى ثم أطلق من إحدى الطوابى البرية واحد وعشرون مدفعاً وأرسلت الأخبار تواً إلى باريس بالتلغراف لإخبار الملك بقدوم سموّ ضيفه فأرسل الملك تلغرافاً يهنئه بسلامة وصوله وقد حيته أيضاً بإطلاق المدافع السفينة النابلتانية المسماة بأوزانيا التى كانت راسية بطولون، وأما سفن الدول الأخرى فاكتفت برفع أعلامها مع

[1] ولد هذا الملك فى سنة ١٧٩٨ وتربى فى فرنسا حيث كان عقله يميل إلى حب الحرية الفرنساوية وفى سنة ١٨٣١ تولى ملكاً على مملكة سردينيا وأدخل فيها إصلاحات كثيرة وأحدث فيها منافع عديدة وساعد تقدم الصناعة والفلاحة وأبطل استعباد الأهالى وفى سنة ١٨٤٨ ساعد طالبى الحرية من الإيطاليين على محاربة النمسا فانتصر عليها فى عدة مواقع ولكنه انهزم فى واقعة نوفار الشهيرة وفى ٢٣ مارس سنة ١٨٤٩ تنازل عن الملك لولده فيكور عمانويل وانتقل إلى البورتغال وتوفى هناك بعد قليل فى مدينة أوبورتو.

[2] هى من أحصن موانئ فرنسا الحربية المنيعة الكائنة على البحر المتوسط وبها مرسى دونانمة هذا البحر ويبلغ عدد سكانها نيفاً ومائة ألف نسمة وتجارتها قليلة.

العلم المصرى على جميع صواريها وكان دخول السفينة المقلة لسموه المينا فى الساعة ٨ صباحاً وعند دخولها ذهب لتهنئته على السفينة حاكم المدينة البحرى ليتلقى من سموه الأوامر، وبعد أن مكث فى الوابور ثلاث ساعات للإستراحة من مشاق البحر نزل إلى البر فى الساعة الحادية عشرة وكان فى انتظاره على الرصيف الماركيز دى لافاليت مندوباً من قبل جلالة الملك والحاكم البحرى وكثير من الضباط البرية والبحرية، وكان الألاى الثالث من المشاة البحرية مصطفاً على جهتى طريق الترسانة والألاى التاسع عشر من المشاة البرية مصطفاً أيضاً من باب الترسانة إلى سراى الحكومة المعدة لإقامة سموه، وكان فى مقدمة الموكب فرقة من الجندرمة يتبعها ضباط البر والبحر ثم سموّ الأمير إبراهيم باشا وعن يساره سليمان باشا وهما لابسان أفخر الملابس الشرقية المزركشة بالذهب، وخلفهما عدد كثير من الخدم السودانيين حاملين الشبكات المحلاة بالحرير والتراكيب المنمنمة، ومر سموه بهذه الهيئة بين صفوف العساكر والأهالى والكل يقابلونه بالتهليل والتفخيم والتكريم والتعظيم.

ثم فى اليوم التالى سافر سليمان باشا إلى مدينة مرسيليا فبورفاندر، فبربنيان، ففرنيه لإستعداد المحلات اللازمة لإقامة الأمير وتابعيه وبعد تأدية هذه المأمورية عاد الباشا إلى مدينة بربنيان وكان قد دعاه الجنرال الكونت دى كاستيلان قائد الفرقة الفرنساوية المعسكرة فى هذه الجهة ليشهد المناورات التى عزم الكونت على عملها إكراماً له ثم بعد أن حضر هذه المناورات عاد إلى مدينة بورفاندر لإنتظار أميره.

وفى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٤٥ بارح سموه مدينة طولون قاصداً مدينة مارسيليا فوصلها عند ظهر ذلك اليوم، ولما وصل حيَّته القلاع باطلاق مدافعها وعند نزول سموه إلى البر قابله الجنرال (كونت دوبول) قائد الحامية وسائر مأمورى الحكومة وكان نزول سموه فى منزل أحد التجار المشهورين الذين لهم علاقات دائمة مع البلاد المصرية وهو منزل (اخوان باسترى) وهناك زاره أكابر

البلد من تجار وأعيان ثم دعا سموه مأمورى الحكومة إلى مأدبة أعدّها لهم، وبعد الفراغ من تناول الطعام ذهب إلى التياترو وقابله هناك جميع المتفرجين بالتهليل والتصفيق كما هى عادة الإفرنج عند إظهار استحسانهم أو سرورهم من أمر وبعد انتهاء التشخيص عاد سموه باليمن والإقبال إلى منزل باسترى اخوان فقضى ليلته فيه إلى الصباح.

وفى اليوم التالى الموافق (٣٠ نوفمبر) زار المدينة ومرّ فى أهمّ شوارعها فعند مروره من شارع بائعات الأزهار قدمن لسموه باقة من الزهور الجميلة فتعطف سموه بقبولها منهن.

وفى مساء الساعة التاسعة توجه (الى البالو) الذى أعدّه الجنرال (كنت دوبول) إكراماً لسموه فمرَّ فى جميع غرف الرقص وصار يلاطف السيدات والمدموازلات برقيق لفظه وسليمان باشا يترجم لهن عباراته حتى انشرحن من ملاطفته وأعجبهن حسن التفاته إليهن وتعطفه السنى جهتهن وعليهن.

وفى صبيحة أوّل دسمبر سنة ١٨٤٥ زار سموه ما حوته المدينة من ورش وفابريقات وجميع الأماكن الصناعية وكان رحمه الله يتأمل بغاية الدقة إلى آلاتها اللطيفة الغريبة ويعجب من حسن صنعتها العجيبة، ومما أدهش مهندسى هذه الفابريقات حدة ذكاء الأمير وقوة فكره وفهمه هذه التركيبات الميكانيكية حتى أنه أبدى لهم بعض ملحوظات لتحسين بعض الآلات مع عدم تعلم سموه العلوم الهندسية بل ولا غيرها من العلوم مطلقاً.

وفى يوم ٢ منه أولم وليمة فاخرة لأعيان تجار هذه المدينة وأصحاب الفابريقات وفى يوم ٣ منه فى الساعة الرابعة مساء أقلع من مارسيليا قاصداً بورفاندر بعد أن وزع الهدايا الثمينة على كل من احتفل بلقائه وأعطى ألفاً وخمسمائة فرنك إلى حاكم المدينة بقصد توزيعها على الفقراء، ووصل سموه إلى فرضة بورفاندر فى ٤ منه وقضى يوم ٥ فى سفينته وفى اليوم السادس تناول

طعام الظهر فى وليمة أعدّها لسموه تجار المدينة وبعد انتهاء الوليمة سافر سموه إلى مدينة بربنيان[1] وكان وصوله إليها قبيل وقت الأصيل فقابله هناك الجنرال كونت دى كستيلان مقابلة عسكرية واستعرض أمامه الجيوش المعسكرة فى هذه المدينة وضواحيها ثم تناول سموه طعام المساء عند الكونت فى وليمة فاخرة عظيمة باهرة كان أعدّها لسموه ودعا إليها كل أعيان المدينة وضباط الحامية وفى يوم ٧ منه تناول طعام العشاء عند مدير الإقليم المدعو بالمسيو (فابس). وفى صبيحة يوم ٨ منه سافر سموه فى عربة إلى فرنية ورافقه فى طريقه الجنرال (كونت دى كستيلان) ولم يزل راكباً جواده حتى أمضى مسافة ٢ كيلو متر خارجاً عن المدينة ثم عاد بعد أن ودع سموه وداع إخلاص وولاء وكان الجنرال أرسل أوامره إلى مدينة فرنية باستقبال الأمير إبراهيم باشا بكل ما يليق بمقامه الرفيع من الإحترام والتجيل فسار سموه طول نهاره فيما بين جبال البرينية الشامخة مع جزء من ليله، وقبل أن يصل المدينة بمسافة فرسخين وجد عساكر الجند رمة مصطفة على جانبى الطريق وأهالى الجبال مجتمعون فى الأودية وعلى قمم الجبال ينتظرون قدوم الأمير المصرى متزينين بأفخر لباسهم حاملين أسلحتهم كما هى العادة المعتادة عند سكان الجبال.

وبمجرد ما أطلقت المدافع من قلعة (فيل فرانش) إيذاناً بقدوم سموه أطلق الأهالى بنادقهم فى الهواء تعظيماً لمقام زائرهم الأفخم وبعد قليل أحاط بعربته جم غفير من الأهالى حاملين مشاعل متقدة ولم يزالوا مرافقين له ومتابعيه حتى وصل إلى المدينة فتابعوا إطلاق البنادق مهللين بأصوات الفرح والبشر، وكان بانتظاره عند تشريفه المدينة شيخ البلد وقسيسها فقابلاه وخطب كل منهما خطبة وجيزة هنأ بها سموه على سلامة الوصول وأظهر فى خلالها ما نال بلادهم من الشرف بتشريف جنابه الأكرم وختم كل منهما عبارته بطلب البقاء له من بادئ النسمات ومبدع الكائنات وشافى العلل والآفات، ثم مرت عربته من تحت

[1] هى مدينة حصينة لا تبعد عن البحر إلا مسافة ثمانية كيلومتر ولها أهمية حربية من الطبقة الأولى لوجودها بالقرب من حدود إسبانيا ومن الطرق المارة فى مضايق جبال بيرينيه موصلة بين المملكتين.

قنطرة نصر أقيمت فى أول شارع احتفالاً وتزييناً لجنابه وكان مكتوباً عليها هذه الكلمات إلى المنصور فى قونية ونصيبين، وعند باب الحمام أقيم له قنطـــرة أخرى عليها هذه الجمل الأربع إلى نجــــــل محمد على باشــــا الأكـــبر إلى ممدن الشرق إلى صـــــــديق فرانسا إلى الشـــجاع المصرى.

ولما وصل سموه إلى الحمام توجه بلا توان إلى المحل الذى كان معـــدّاً لجنابـــه الرفيع فى لوكاندة الحمام وأخذ الجمع فى الإنصراف رويداً وقضى سموه فى مياه قرنية أربعة أشهر طلباً للشفاء فكانت صحته تتحسن يوماً عن يـــوم حيـــث أن الهواء وافقه سيما بملاحظة همة الدكتور لالمان طبيبه الخاص ولكنه سئم الإقامـــة فى هذه الجهة المنعزلة وفضّل مبارحتها عن الإقامة بها لولا تشديد طبيبه عليـــه، نعم كان يزوره أحياناً الجنرال كونت دى كستلان قائد أوردى بربنيان وبعض من موظفى الحكومة فى هذا الإقليم وما كانت هذه الزيارات القليلـــة تكفـــى لتسليته ففى أوائل شهر فبراير أذن له الدكتور لالمان بالتوجه إلى بربنيان لو أراد بشرط أن يكون انتقاله فى عربة تسير الهوينى فرضى سموه بهذا الشرط.

وسافر إلى المدينة فى ٥ فبراير سنة ١٨٤٦ حتى وصلها فى الساعة الحاديـــة عشر بعد الظهر بدون أن يعلم الجنرال كونت (دى كستيلان) وكـــان بمعيتـــه طبيبه الذى كان لا يفارقه أصلاً وبعد أن قضى سموه يومين عاد إلى الحمامـــات وفى ٤ مارث زار هذه المدينة مرة أخرى فقابله فيها الجنرال ورافقه عند عودته إلى خارج المدينة وكان هناك فرقه من جنوده وأركان الحرب تـــشتغل بوضـــع قنطرة من السفن على نهر يمر بالقرب من المدينة لمرور العساكر قصد التمـــرين فتم وضعه فى أقل من القليل ولم يحتج إلى مضى وقت من الزمن ومر عليه الجيش بحضور سموه فسر من مهارتهم وسرعة حركاتهم وإتقان عملهم ثم عاد إلى قرنيـــة مصحوباً باليمن والإقبال ولما تم الشفاء لسموه فى أوائل ابريل عزم على السفر إلى مدينتى باريس ولوندرة وأخبر والده بذلك فكتب سمو الوالى رحمـــه الله إلى حكومتى فرنسا وانكلترا يخبرهما بقدوم ولده إليها بقصد السياحة.

فلما علم إبراهيم باشا بأن والده كتب إليهما وتحقق من ذلك بادر بالسفر مع حاشيته من فرنيه فى النصف الثانى من شهر إبريل سنة ١٨٤٦ من طريق بوردو، فمدينة تور حيث كان فى انتظار سموه قطار حديدى خاص به فوصل إلى باريس الزاهرة فى الساعة الأولى بعد ظهر يوم ٢٥ منه ولا حاجة إلى ذكر ما لقيه سموه أثناء الطريق فى المدن العظيمة التى مر عليها من الإحتفالات بل نكتفى بأن نقول أنه قوبل أحسن مقابلة واحتفل بمروره بنوع لم يسبق فى تاريخ الشرق من قبله.

وكان فى انتظار سموه على رصيف المحطة الكولونيل (تييرى) أحد ياوران الدوك (دى مونبانسيه) من طرف جلاله الملك لملاقاته ومرافقته أثناء إقامته فى عاصمة المملكة الفرنساوية وكانت المحطة جامعة من الداخل والخارج لجماهير الأهالى بين نساء ورجال، ولم يتأخر أحد من التلامذة المصريين الموجودين هناك بل أتى الكل للتشرف بمقابلة نجل مليكهم وولى عهد حكومتهم فنزل سموه من القطار وتبعته حاشيته والتلامذة المصريون وهنأه الكولونل (تييرى) بسلامة الوصول نائباً عن جلالة الملك وكافة أعضاء العائلة الملوكية، وأخبره بأن الملك يدعو سموه للاقامة فى سراى الإليزيه بوربون[1] فقبل سموه ذلك وشكر الملك على ما كان منه من حسن القبول. وما ظهر من باقى حكومته من سروره بمقابلتهم فى سائر الجهات التى مر بها، ثم ركب سموه مع حاشيته العربات الملوكية التى أعدت لإنتظارهم وساروا توّا إلى السراى بين صفوف الأهالى وكان كلما يمرّ على جماعة يصرخون بقولهم فلتحى مصر فليعش إبراهيم باشا فليحفظ الله سمو واليها ولم يزالوا على هذه الحالة حتى وصل إلى السراى وكان المحل الذى أعدّ لإقامة سموه من هذه السراى القديمة العهد هو الذى أقام فيه

[1] هى سراية فاخرة بناها الكونت وثريه سنة ١٧٢٨ ميلادية ثم اشتراها لويس الخامس عشر ملك فرنسا وأهداها لعشيقته مادام دى بومبادور سنة ١٧٦٥ ثم اندرجت ضمن أملاك الأمة أثناء الجمهورية الأولى ثم أعطيت لنابليون لما تولى أريكة الإمبراطورية سنة ١٨٠٤ وصارت من ذلك العهد تابعة لكل ملك يتولى وهى الآن معدة لسكن رئيس الجمهورية أثناء مدة تعيينه والذى يسكنها الآن هو المسيو سادى كارنور رئيس الجمهورية الفرنساوية حالاً.

الإمبراطور نابليون بعد عودته من جزيرة البه والسرير الذى أعدّ لنوم سموه هو الذى كان معدًّا لنوم الإمبراطور.

ولقد قضى سموّ إبراهيم باشا يومى ٢٥ و ٢٦ قبل أن يقابله الملك مقابلة رسمية وكان سموه يطلع على مبانى المدينة متخفياً ثم فى يوم ٢٧ احتفل الملك وأولاده وزوجاتهم بمقابلته بحضور الملكة والبرنسيس اديلاييد فى سراى اللتويلرى[1] فى قاعة المقابلات الإحتفالية وكان جلالة الملك متحلياً بكسوة رئيس الجيوش وكذلك نجله الدوك دى نيمور وأما البرنس دى جوانفيل فكان لابساً ملابس فيس أميرال بحرى والدوك دى مونباسيه كسوة أميرالاى طوبجى.

وكان حاضراً عند الإستقبال كل من المارشال سولت الملقب بدوك دلماسيا رئيس النظار والمسيو جيزو ناظر الخارجية وقبل مجئ إبراهيم باشا ببرهة حضر إلى السراى الملوكية سفير الباب العالى المدعو سليمان باشا وكان حضوره فى الساعة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم وعند قدومه أقبلت العربة الملوكية المقلة لسمو الأمير إبراهيم باشا يتقدمها خياله من خيالى اسطبلات الملك ويتبعها ثلاث عربات أخر ملوكية. وكان مع سموه الكونيل تييرى المعين لمرافقته وفى العربات الأخر سليمان باشا الفرنساوى وغيره من حاشية الأمير، ولما وصل سموه إلى قاعة الإستقبال قدمه سفير الباب العالى إلى جلالة الملك فصافحه وشكره على ما لقيه نجله الدوك (دى مونبانسيه) من الإكرام وحسن المقابلة أثناء سياحته فى القطر المصرى وقد روى أن الملك قال أثناء مقابله سليمان باشا الفرنساوى أجدّك المركيز دى سيف؟ فقال له الباشا لا بل إن والدى كان أحد طحانى مدينة ليون، فردّ عليه الملك بقوله أن ذلك مما يزيدك شرفاً ونبلاً وبعد أن تكلم الملك قليلاً مع إبراهيم باشا والحاضرين من حاشيته عاد سمو الأمير إلى السراية بنفس الإحتفال الذى جاء به.

---

[1] إن الباني لهذه السراية هى كترين دى مديسيس سنة ١٥٦٤ ولم يتم بناؤها إلا فى عهد الملك لويز الرابع عشر وقد سكنها ملوك فرنسا أو رؤساء جمهوريتها تبعاً لتقلب الحكومات إلى أن أحرقها ناترو الكومون فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧١ ولم تبن ثانية بعد.

وفى مساء ذلك اليوم عاد سموه إلى سراى الملك لتناول طعام المساء على مائدة جلاله الملك ولما حضر الأمير والمدعوّون قام الملك فى الساعة السادسة والنصف إلى قاعة الطعام وجلس إبراهيم باشا عن يمين جلاله الملكة أمام زوجها الأفخم وكان المدعوّون من أكبر رجال المملكة بين أمراء وقوّاد ووزراء ثم تجاذب الملك والحاضرون أطراف الحديث أثناء الأكل وكانت جلالـه الملكة تلاطف ضيفها برقيق ألفاظها وتسأله عن حالات عمومية فى الشرق إلى أن انقضى الطعام فى نحو الساعة ثمانية ونصف مساء وعاد سموّ الأمير إبراهيم باشا إلى مقرّه بسراى الإليزيه بصحبة الكولونل تيرى ومن كان معه من حاشيته.

وفى صبيحة يوم ٢٨ منه توجه سموه إلى سراى الإنفاليد[1] لزيارة قبر الإمبراطور نابليون الاول وصحبه فى هذه الزيارة الدوك دى مونبانسيه والكولونل تيرى وسليمان باشا، فقابل سموه على باب السراى الدوك دى ريجيو حاكمها والضباط من كهول الجيش الفرنساوى حاملين السلاح تعظيماً لجنابه العالى فزار سموه السراى بجميع أركانها وأثنى على الحكومة الفرنساوية التى خصصت هذا البناء الشاهق لمن يعجز عن الكسب من شجعانها إما لتقدمه فى السن أو لإصابته بفقد أحد أعضائه فى الدفاع عنها وعن شرفها، ثم نزل بموكبه الحافل إلى القاعة المبنية تحت السراى وبها محفوظة جثة الإمبراطور التى احتفل بإرجاعها من جزيرة سانت هيلان (وقد دفن بها) فى ١٥ ديسمبر ١٨٤٠ وبعد برهة خرج منها إبراهيم باشا وتوجه لزيارة المدرسة الحربية وبعد ذلك تنزه قليلا فى منتزه غابة بولونيا ثم قصد سراى الدوك دى مونبانسيه لتناول العشاء فى مأدبة خصوصية أعدها الدوك إكراماً لزائره وقياماً ببعض واجبه.

[1] تأسست سراى الإنفاليد سنة ١٦٧٠ فى عهد لويز الرابع عشر ملك فرنسا الذى بلغت مدة حكمه ثلاثا وسبعين سنة لأنه ولد فى سنة ١٦٣٨ وتولى سنة ١٦٤٣ وعمره خمس سنوات وتوفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥.

وفى يوم الخميس الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٤٦ ذهب سموه فى الساعة ٣ بعد الظهر إلى سراى لوكسنبورج للتفرج فى دار التحف فسر مما رآه فيها من الصور الجميلة خصوصاً اللوحة المشهورة التى رسم فيها المسيو هوراس فيرنيه مقتل المماليك بقلعة مصر المحروسة.

وفى يوم الجمعة أول مايو توجه صباحاً لمقابله الملك الذى كان يستقبل أكابر الدولة لمناسبة عيد دولته الفخيمة فأهدى الملك إليه بعد المقابلة نيشان (اللجيون دونور) من درجة جران كوردون فشكره سمو الأمير على هذه الهدية التى دلت على ما بين مصر وفرنسا من المحبة والوفاق الخالصين من كل شائبة، ثم دخل سموه مع جلاله الملك إلى قاعة الإستقبال العمومية وشهد مرور وفود المهنئين مع اختلاف ملابسهم بين ملكية وحربية على اختلاف أجناسهم وأشكالهم، وكان بجانب سموه الدوك دى مونبانسيه فكان يعرّفه اسم كل من مرّ من أمامهما ولما وقع نظره على المسيو تيرس، الذى كان وزيراً لفرنسا فى سنة ١٨٤٠ ولم يقدر على مساعدة الحكومة المصرية على المقاومة وعدم قبول الشروط التى عرضتها عليه الدول، كما مر ذلك فى بابه، تغير وجه سموه واستشاط غضباً وود أنه لم يوجد فى هذا الإحتفال حتى لا يرى وجه هذا الرجل الذى بسوء سياسته أوجب الويل للأمة المصرية.

وبعد انقضاء رسوم التشريفات الملوكية عاد سموه إلى سرايته وفى المساء توجه سموه لتناول الطعام فى مأدبة أعدّها له المارشال سولت وزير فرنسا الأول وبعد انتهاء الوليمة توجه سموه مع جناب الوزير وسائر المدعوين إلى السراية الملوكية لسماع نغمة طقم الموسيقى، الذى أعدته بلدية باريس احتفالاً بعيد جلالة ملكهم وعند منتصف الليل شاهد سموه بحضور الملك وسائر أعضاء العائلة الملوكية السواريخ وحرائق البارود التى أحرقت على شاطئ نهر السين كما هى العادة فى المواسم والأعياد فسر سمو الأمير من هذا المنظر البهيج الذى لم يسبق لسموه رؤيته فى الديار المصرية.

وفى يوم السبت الموافق ٢ منه زار سموه سراى محكمة الإستئناف العليا وحضر إحدى جلساتها وكان مترجمه الخاص يترجم له ملخص أقوال الأبوكاتية ويعبر لسموه عما تصدره القضاة من الأحكام ويشرح له كيفية ترتيب المحاكم فى فرنسا وكيفية سير الأحكام بها، فشهد سموه بصلاحية هذا الترتيب للأمم المتقدمة فى الحضارة ووعد من معه بإدخاله فى الديار المصرية حينما ينتشر التعليم ولو قليلاً بين أبنائها ليعلم كل ماله من حقوق وما عليه من الواجبات[١] وبعد أن استراح سموه يومى الأحد والإثنين توجه فى يوم الثلاث ٥ مايو سنة ١٨٤٦ إلى قلعة (فنسين)[٢] ليحضر المناورات العسكرية التى أمر الملك بإجرائها احتفالاً بسمو زائره وكان فى انتظاره هناك الدوك (دى نيمور) والدوك (دى مونبانسيه) أنجال الملك وأيضا خمسة عشر ألف جندى لإجراء مناورة تمثل واقعة نصيبين ولما وصل سموه صدحت الموسيقات العسكرية بأنغامها الحربية وتحركت العساكر بغاية الإنتظام كأنهم شخص واحد وكان سموه متحلياً فى هذه الحفلة بنيشان (اللجيون دونور) وراكباً جواداً عربياً فتوجه مع أنجال الملك وكل القواد المدعوين إلى هضبة عالية كانت تشخص مركز العثمانيين ليشاهد هجوم الفرقة المعينة للإستيلاء على هذه الهضبة وبعد أن هجمت هذه الفرقة مرتين تمكنت بمساعدة الطوبجية من احتلالها كما حصل فى واقعة نصيبين.

فسر سموه من نظام العساكر الفرنساوية وتدربهم على الحركات العسكرية وشهد بأن هؤلاء الجند لو وجدوا من يحسن قيادتهم لا يهزمون أمام أى عدّو كان لأنهم مستوفون عدة وعدة، ولما انتهت المناورة فى نحو الساعة الرابعة بعد

---

(١) لقد حقق سمو خديوينا المعظم محمد توفيق الأول ما تمناه ووعد به جده الكريم قبل الآن بنحو خمس وأربعين سنة بإنشاء المحاكم الأهلية وتعميمها فى كل البلاد المصرية مما كان سببا فى أمن الإنسان على ماله وروحه ومن ألا تعبث بحقوقه أيدى الإعتساف وتتلاعب بها أهواء الأغراض ولذلك حق على كل مصرى أن يشكر سمو خديوينا الأعظم ومليكنا الأكرم على من أولانا من المنن والمزايا التى لولا ما جبل عليه سموه من الخصال اللطيفة والسجايا الشريفة ما تخلصنا من ربقة الذل ولا حصلنا على المطلوب إلا بعد مرور السنين والأجيال وهيهات هيهات فالحمد لله قد ساوى بين الجليل والحقير فى الأحكام بالدقة والإحكام فجزاه الله عن الرعية خيرا ووقاه ضيرا ولازال ممتعا بأنجاله وأشباله ورجاله وأحزابه.

(٢) هى قلعة تبعد عن باريس بنحو ستة كيلومترات بناها لويس أوجست ملك فرنسا سنة ١١٨٣ وحوصرت غير مرة بدون أن يتمكن الأعداء من دخولها لمناعتها وكان يحبس فيها من يخشى هربه من أعداء المملكة وهى الآن مدرسة الطوبجية وصارت مستودع المدافع ومهماتها.

الظهر زار سموه قشلاقات العسكر وفى الساعة السادسة تناول الطعام فى مأدبة أعدّها لسموه ضباط الجند وكانت قاعة الطعام مزينة بالسيوف والبنادق يتخللها قليل من الأزهار ولم يعد سموه إلى باريس إلا عند الساعة العاشرة يرافقه فى عربته الملوكية سليمان باشا الفرنساوى والكولونيل (تـيـيرى) ياورانـه وفى اليوم السادس منه زار سموه المجمع العلمي (انستيتوت) الكتبخانة الملوكية وفى السابع شارف محل الضربخانة وفى الثامن زار الإسبتالية العسكرية وخصص اليوم التاسع منه للإطلاع على ما تحتويه الكتبخانة من الكتب العربية فلما أطلع عليها اندهش مما وجده فيها من الكتب النفيسة التى ربما لا يوجد لبعضها نسخ أخرى فى غيرها من الدول سواء كان فى الشرق أو فى الغرب وتعجب مـن اهتمـام الدول الأجنبية باللغة العربية أكثر من اهتمام أهلها بها.

وفى اليوم الحادى عشر منه حضر سموه الإحتفال بتوزيع الجوائز على التلامذة المصريين الموجودين إذ ذاك بباريز وكان بمعية سموه المارشال (سـولت) رئيس الوزراء والدوك (دى مونبانسيه) فسر جنابه من تقدم التلامذة خصوصاً نجله أحمد بيك لأنه كان ماهراً وفى المعارف وافراً وفى يوم أربعة عشر زار جناب الأمير مدرسة الصنائع والفنون وتفقد كل ما بها من الآلات الميكانيكية وأبـدى لأساتذتها بعض ملحوظات استدلوا بها على ما لسموه من توقد الفكر وشـدة الذكاء الطبيعي ثم فى اليوم التالى شرف سموه مجلس الأعيـان (سـناتو) بهيئة احتفالية يتقدمه جمع من الفرسان وحضر الجلسة بتمامهـا واستحـسن نظـام الحكومة الشورية التى منها تستمد القوة الحاكمة آراء الأمة بواسطة منـدوبين ينتخبون بالإنتخاب العمومى لينوبوا عن الأمة فى إبداء آرائها واقتراح ما تريده من الإصلاحات أو التغييرات، فلما رأى ذلك ودّ أن يكون بمصر مجلس ينـوب عن أهلها لإنارة حاكمها وإرشاده لما يلزم للأمة من الإصلاحات لولا أنه حـال دون ذلك عدم تقدم الأمة فى معارج التمدن والتهذيب السياسى.

وفى أحد وعشرين مايو سنة ١٨٤٦ شرف سموه محل الخواجات (كريستوفل) المشهورين بإتقان صناعة البلور وكذلك شرف غيره من المحلات الصناعية مما دل على شغف جنابه بالاطلاع على المواد الصناعية والبحث عن أسباب تقدمها بين الأمم الأجنبية وانحطاطها فى الشرق، مع أنه لما كانت الدولة العربية فى أوج تقدمها فى سائر فروع الصناعة وامتيازها بانتشار العلوم بين أهليها، كانت تلك الأمم الغربية التى تدهشنا الآن باستيفائها الأشياء العلمية واختراعاتها الصناعية فى حالة التوحش والخشونة البربرية.

وفى يوم ٢٥ منه حضر سموه استعراض حامية مدينة باريس فى ميدان (شان دى مارس) وكانت مؤلفة من خمسة وعشرين ألفاً من المشاة وستة آلاف من الخيالة والألاى الخامس من الطوبجية، وصحبه فى هذا الإحتفال العسكرى الدوك (دى نيمور) وسليمان باشا وغيره من الضباط المصريين الذين رافقوه ولازموه فى هذه السياحة.

سفر إبراهيم باشا إلى انكلترا:

وبعد هذه الإحتفالات والمقابلات عزم سموه على السفر إلى بلاد الإنكليز قبل عودته إلى الديار المصرية فأعدت له الحكومة الفرنساوية قطاراً خاصاً لركوبه إلى مدينة (دييب) الواقعة على شاطئ بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا وباخرة حربية لنقله إلى البر الإنكليزى وفى أول يونيو ودع سموه جلالة الملك وجميع أعضاء عائلاته.

وفى صبيحة اليوم الثالث منه عزم سموه على مبارحة باريز فركب مع من معه العربات الملوكية وتوجه إلى محطة (سان لازار) فى موكب حافل بين صفوف الأهالى وصفوف المودّعين، حتى وصل المحطة باليمن والإقبال وكان هناك فى انتظاره فرقة من الجند مع الموسيقى لتأدية مراسم الوداع وودّع سموه من قبل جلالة الملك أكبر ياورانه، وبعد قليل سار القطار قاصدا مدينة (دييب) على

طريق زوان[1] ولم تستوقفه هذه المدينة مع مالها من الشهرة التاريخية والآثار القديمة بل سار توًا إلى مينا (دييب) فلم يجد الباخرة التى كانت بانتظاره لعدم تمكنها من الدخول إلى المينا بسبب جزر البحر بل كانت فى فرضة صغيرة بالقرب من مينا دييب تدعى (تريبور) فتوجه إليها سموه وفى الساعة السادسة من يوم ٤ يونيو أطلق الربان البحار للسفينة فشقت عباب البحر بسرعة عجيبة ووصلت مينا (بورت سماوث)[2] فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى وقد احتفل الإنكليز بإبراهيم باشا عند نزوله إلى البر احتفالاً باهراً وكان فى انتظاره على المينا الأميرال (تشارلس أوجل) حكمدار المينا وجميع ضباط الحامية ورئيس البلدية وقد عين الماجور (كولنوود ديكسن) من الطوبجية لمرافقته أثناء إقامته فى بلاد الانكليز وإنما انتخب لتضلعه فى اللغة العربية وليستغنى سموّ الأمير به عن ترجمانه ثم توجه بصحبه الأميرال إلى ديوان البحرية (أدميرالتى) وبعد أن استراح برهة ركب سموه إلى المترل الذى أعدّ لإقامته وحاشيته.

ولما وصل سموه حضر رئيس وأعضاء البلدية بملابسهم الرسمية والتمسوا مقابلته فأذن لهم بذلك ولما استقر بهم الجلوس قام الرئيس وخطب خطبة هنأ بها جنابه بسلامة الوصول، وشكر فيها والده على تسهيل التجارة بين انكلترا ومستعمراتها الهندية حتى فى أثناء الحرب بينها وبين مصر فتشكر له سموه بعبارة وجيزة عن هذه الزيارة وما قاله من المدح فى حق والده.

وبعد أن أقام سموه يوما فى (بورت سماوث) سافر قاصدا مدينة (لندن) عاصمة بريطانيا العظمى فوصلها فى يوم ٨ يونيو سنة ١٨٤٦ قبل الظهر وتوجه توًا إلى (أوتيل ميفار) الذى كان استأجره سموه لإقامته مع حاشيته وفى الساعة

---

[1] هى مدينة عظيمة تبعد عن باريس بمسافة ١٣٧ كيلومترا وبها آثار قديمة أشهر ما فيها كنيسة بنيت فى القرن الثالث للمسيح عند ابتداء انتشار الديانة المسيحية بفرنسا ومما يجعل لها شهرة تاريخية لا تمحوها الدهور محاكمة الفتاة (جان دارك) وتنفيذ الحكم عليها بالإعدام حرقاً سنة ١٤٢١ بمعرفة الإنكليز الذين كانوا فى هذه الأعصر الوسطى فى حرب دائم مع فرنسا.

[2] هى أعظم موانئ انكلترا وواقعة على بحر المانش وبها ترسانات مهمة وحياض متسعة لتعمير المراكب الحربية ويقال أن مينها تسع كافة سفن انكلترا الحربية وبها مدرسة بحرية ويبلغ عدد سكان هذه المدينة زهاء مائة ألف أغلبهم من عائلات النوتية وكانت تعرف عند الرومانيين بالمينا الكبرى (بورتوس مجنوس).

الثانية بعد الظهر حضر اللورد (ابردين) وزير الخارجية وقابله مقابلة سرية استمرت مدة طويلة لم يعلم ما قيل فى خلالها ثم زار سموه الكولونيل (كامبيل) الذى كان قنصلاً فى مصر ثم حضر السير (روبرت بيل) الوزير الأول والدوك (دى ولنجتون) قاهر (نابليون الأول) فى واقعة (وترلو) والبرنس (جورج دى كامبردج) وأخيراً الكومودور (سير تشارلس نابير) الذى اشتهر بضربه سواحل الشام كما مر، وقيد الكل أسماءهم فى دفتر المقابلات لأن سموّ الأمير إبراهيم باشا لم يمكنه مقابلتهم نظراً لما تحمله من مشاق الأسفار.

وفى اليوم التالى الموافق ٩ منه ذهب سموه وضباطه إلى سراى (باكنجهام) لمقابلة البرنس ألبرت[1] زوج جلاله الملكة فيكتوريا، وجريا على ما هو متبع فى المقابلات الانجليزية لم يؤذن بالدخول مع إبراهيم باشا لمقابلة البرنس ألبرت لأحد من الضباط المصريين، لكن بطريق الإستثناء أذن لسليمان باشا بذلك فقابلهما البرنس بكل بشاشة وترحاب وهنأ سموّ الأمير إبراهيم باشا على وصوله وتمنى استمرار علائق المحبة والمودة بين الحكومتين الإنكليزية والمصرية وبعد انتهاء المقابلة ذهب الأميران معا إلى ميدان (سانت جمس بارك) لحضوره استعراض الجند، فوجدا بالباب الدوك (ولنجتون) وأركان حربه فقدمهم البرنس ألبرت إلى إبراهيم باشا وسليمان باشا ثم توجه الجميع بين صفوف الأهالى إلى محل الإستعراض وكان الأمير إبراهيم باشا يستجلب أنظار الحاضرين بكسوته الإرجوانية المزركشة بالذهب ونيشان (اللجيون دونور) وبعد انتهاء الإستعراض عاد الأميران إلى سراى (بوكنهام) والمتفرجون يصفقون سروراً واحتفالاً إلى أن وصلا إلى السراى فعاد إبراهيم باشا إلى الفندق.

---

[1] ولد هذا البرنس سنة ١٨١٩ وهو ابن البرنس ارنست دوك سكس كوبور وتهذب فى المانيا ثم تزوجته الملكة فيكتوريا سنة ١٨٤٠ ورزقت منه ثمانية أولاد ولم يتداخل قط فى الأعمال السياسية بل اجتهد فى استمالة الأهالى إليه بمساعدته كافة المشروعات الأهلية وحمايته لأرباب الفنون والصنائع ثم منحه البرلمان الجنسية الإنكليزية وتعين قلد مارشالاً وعضواً فى المجلس الخصوصى وتوفى سنة ١٨٦١ ماسوفا عليه من أهله وذويه وجميع من عرفه.

وفى يوم ١١ منه توجه سموه لحضور الإحتفال المعدّ لتوزيع الجوائز على كل من حاز قصب السبق فى ميدان الفنون اللطيفة وبعد عودته قدم له سليمان باشا المسيو (أوكونل) زعيم الارلانديين[1] وبعد أن زارا كثيراً من اللوردات ووزراء الدولة الإنكليزية سافر من لندن فى الساعة الخامسة من ظهر ذلك اليوم قاصداً (برمنجهام) و (منشستر) وغيرهما من المدن الصناعية أو التجارية للبحث عن أسباب ثروة الأمة الإنكليزية وإدخال بعض هذه الصنائع لمصر خصوصاً ما توجد فيها مادته الأصلية مثل القطن والحرير وغيرهما.

ولا حاجة لنا بذكر تطواف سموه بالتطويل خوفاً من الإطالة، ويكفينا أن نقول أنه ساح كافة بلاد بريطانيا واسكوتلاندا وارلاندا الشهيرة ثم عاد إلى لوندرة فى اليوم الخامس من شهر يوليو سنة ١٨٤٦ وبعد أن قضى يومه وليلته فى الإستراحة، خرج مع بعض حاشيته وطاف خفية فى أهم شوارع المدينة ثم الحارات التى يسكنها الفقراء وتعجب من وجود كثير من الفقراء فى ضنك شديد بين أفراد هذه الأمة التى بلغت أعلى الثروة وأغلى الغنى، يسكنون أماكن لا تليق بسكنى البهائم مع وجود القصور الباذخة بجوارها مما يزيد فى إظهار حقارة هذه المساكن الرثة، وعند عودته وجد العربات الملوكية فى انتظاره ليتوجه إلى سراى باكنجهام لمقابلة جلالة الملكة فكتوريا فذهب توّا إلى السراى وقابل الملكة مقابلة خصوصية استمرت ساعتين من الزمن ثم عاد ثانياً إلى السراى فى نحو الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم (٦ يوليو سنة ٤٦) لتناول العشاء على المائدة الملوكية فكانت الملكة تلاطفه فى أثناء الطعام وتسأله عن صحة والده وعن حالة بلاده وتشكره على مساعدة حكومته للتجارة الإنكليزية وتمنت دوام المحبة بين حكومتها والحكومة المصرية.

[1] ولد هذا الرجل الشهير سنة ١٧٧٥ من عائلة عظيمة وتعلم فن المحاماة وقبل محامياً سنة ١٧٩٨ فذاع صيته ودخل فى الجمعيات الساعية فى تحرير أرلندة وطنه وفى سنة ١٨٢٨ انتخب عضواً فى مجلس العموم ولكنه لم يقبل لعدم قبوله أداء اليمين القانونى لمخالفته لمذهبه الكاثوليكى ولم يدخل مجلس العموم إلا فى سنة ١٨٣٠ بعد ما تغيرت صورة اليمين واشتهر بعد ذلك بخطاباته وكتاباته طلباً لفصل أرلندة عن الحكومة الإنجليزية وتوفى سنة ١٨٤٧.

وفى صبيحة اليوم السابع سافر من طريق نهر التيمس الذى يمر بمدينة لوندن إلى مدينة (جرينويتش) حيث زار المستشفى البحرى المقام هنـاك لإقامـة مـن يصاب من البحارة الإنكليزية بعاهات تمنعه عن الإكتساب وكان تأسيس هـذا المستشفى فى سنة ١٦٩٦، وهو أشبه شئ بسراى الأنفاليد بفرنسا التى مـرت الإشارة إليها.

وفى مساء ذلك اليوم أعدّت له شركة الهند الشرقية[1] مأدبة فاخرة قـام فى ختامها أحد أعضائها وشكر الحكومة المصرية على مساعدة هـذه الـشركة فى جميع أعمالها وفى يوم ١١ يوليو صنع حاكم مدينة لندن (اللورد مايور) مأدبـة عظيمة لإبراهيم باشا فى دار الحكومة (مانسن هوس) ودعا إليها نخبـة رجـال الحكومة وكان من جملتهم اللورد جون رَسَل فألقى فى ختام المأدبة خطاباً مطولاً أبان فيه ما يعود على مصر من مصافاة انكلترا واتخاذها خليلة.

وفى يوم ١٣ أولم لسموه اللورد بالمرستون. وكان المدعوون قلـيلين وقابـل اللورد سموه من الباب كما قابله اللورد مايور وفى انتهاء الوليمة قـال اللـورد بالمرستون مقالة أنيقة لم يخرج فيها عن موضوع خطاب اللورد جون رَسَل.

عودة إبراهيم باشا إلى مصر:

وكانت هذه الوليمة خاتمة الإحتفالات التى أقيمت فى بلاد الإنكليز إكرامـاً للأمير إبراهيم باشا وحاشيته ففى الساعة السابعة ونصف من صباح يـوم ١٤ منه قصد سموه محطة السكة الحديدية بين صفوف المودعين وبعـد أن قـام لـه بواجب الوداع كل من حضر، وخصوصاً القائم بأشغال الدولة العلية المـدعو

(1) أسس هذه الشركة بعض تجار لندن سنة ١٥٦٠ قصد تبادل التجارة مع البلاد الهندية وفى سنة ١٦٢٤ منحها البرلمان الإنكليزى حق احتكار التجارة فى هذه البلاد ثم أبطله كلية فى سنة ١٨٢٣ وبعد أن استحالت هذه الشركة من تجارية إلى سياسية واشتغلت بإدارة البلاد الواسعة التى فتحتها إدارة مستقلة تحت حماية مراقبة الحكومة الإنكليزية واشتغلت من ثم فى فتح ما بقى من هذه البلاد ففتحها حتى جبال (همالايا) وفتحت جزءاً غير قليل من بلاد الهند الصينية ثم ألغيت هذه الشركة سنة ١٨٥٨ عقب ثورة الجنود المؤلفة من سكان البلاد وصارت من ذلك العهد تابعة للحكومة الإنكليزية كباقى المستعمرات.

أديب أفندى، سافر سموه على القطار البخارى إلى فرضة (جبرت) فوصلها فى نحو الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم ثم ركب الباخرة الإنكليزية (افنجز) وسافر توّاً إلى بوغاز جبل طارق قاصداً العودة إلى وطنه بحراً وكان معه كثير من العمال الإنكليز الماهرين فى صناعة الأقمشة القطنية لإستخدامهم فى الفابريقات التى أنشأها والده فى مصر ومقدار عظيم من الآلات الميكانيكية، وعدد وافر من الطيور الداجنة كان اشتراها من جمعية لندن الحيوانية لإستكثارها فى القطر المصرى.

ولما وصل سموه أمام مدينة لسبون (لشبونة) عاصمة البرتغال أراد أن ينزل إلى البر لمشاهدة المدينة وزيارة ملكها وكان ذلك فى ٢٣ يوليو سنة ١٨٤٦ لكن لمناسبة وضع الملكة غلاماً وإقامة صلاة احتفالية فى كنيسة لسبون الكاتدرائية لم يتيسر للأمير إبراهيم باشا مقابلته فى سرايته، لأنه كان توجه إلى الكنيسة لحضور الإحتفال فتوجه الأمير إليه هناك للتفرج ثم ركب البحر وسار إلى جبل طارق ورسا قليلاً بمينا كادكس (قادس) بإسبانيا والبوغاز، ثم استمر فى سيره إلى أن وصل جزيرة مالطة[1] فحيته الحامية الإنكليزية بإطلاق مدافعها من قلاعها ومن سائر السفن الراسية فى الميناء. وفى الساعة التاسعة من صبح اليوم الخامس من شهر أغسطس سنة ١٨٤٦ رست السفينة المقلة لجنابه فى مينا الإسكندرية فقابله أخوه سعيد باشا الذى كان وقتئذ حاكم المدينة وجميع القناصل ومأمور والحكومة وزينت المدينة إجلالاً لجنابه السامى ثم فى اليوم التالى سافر إلى القاهرة على طريق النيل فوصلها متمتعاً بالصحة التامة متفكراً فيما رآه فى سياحته من عجائب الأمور وفيما يمكن إدخاله فى مصر من الصنائع والفنون لإستغنائها عن واردات أوربا وزيادة رفاهية سكانها.

[1] هذه الجزيرة صغيرة لا يزيد طولها عن ٢٨ كيلومترا ويبلغ عرضها ١٦ كيلومتر وهى ذات أهمية عظيمة حربية من الدرجة القصوى لوقوعها فى منصف البحر المتوسط بين جبل طارق والإسكندرية ولأهمية مركزها تنازعتها الأمم من فينيقيين وقرطاجيين وعرب وغيرهم إلى أن وهبها شارلكان امبراطور المانيا وملك إسبانيا فى القرن السادس عشر لإحدى طوائف الرهبان المعروفة بشغالية مالطة وبقيت معهم إلى سنة ١٧٩٨ فاحتلها بونابرت أثناء مجيئه إلى مصر ثم دخلها الإنكليز سنة ١٨٠٠ وثبت تملكهم لها بمعاهدة فيينا سنة ١٨١٥ ولم تزل تابعة لهم إلى الآن وقد حصنوها حتى صارت من أهم نقطهم الحربية الواقعة على طريق الهند.

هــذا ولم يكن والده محمد على باشا بمصر حين عودته بل كان قد توجه إلى القسطنطينية فى شهر يوليو من هذه السنة ليقوم بواجــب العبوديــة إلى ســدة الخلافة العظمى، وليظهر لأوربا أنه ما زال محافظاً على الولاء لجلاله الــسلطان الأعظم أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وليزيل ما كمن فى صدور أكابر الدولة ووزرائها من الكراهة والبغض له.

ثم عاد منها بالتحية والإقبال فى صــبح ١٤ أغــسطس ســنة ١٨٤٦ إلى الإسكندرية وأطلق من قلاعها مائة مدفع وواحد ايذاناً بوصول سموّ أمير البلاد وممدّن العباد.

ولما عاد إبراهيم باشا إلى مصر عاد له المرض واشتد عليــه وهــو مــرض الإسهال (الدوسنتاريا) فأمره الأطباء بالسفر إلى جزيرة مالطة ومنها إلى شواطئ إيطاليا الشهيرة بجودة الهواء فسافر فى شــهر أكتــوبر ســنة ١٨٤٧ وبــارح الإسكندرية فى ٩ منه.

وفاة إبراهيم باشا ووالده:

وفى أثناء هذه المدة ظهرت على محمد على باشا علامات الهرم وضعفت قواه الجسمية والعقلية، فأشارت عليه الأطباء أيضاً بالسفر خارج القطــر لتــرويح النفس ولإستراحته من أتعاب الإدارة وأوصاب الحكومــة فــأذعن لمــشورهم وسافر من الإسكندرية فى أوائل فبراير سنة ١٨٤٨ قاصــداً جزيــرة مالطــة فأحسن الحاكم الإنكليزى مقابلته وأكرم وفادته وسافر منها قاصداً مدينة نابولى حيث كان هناك ولده إبراهيم باشا، وفيها وصل إليه خبر ثورة أهالى فرنسا على ملكهم لويز فيليب وعزلهم إياه ومناداهم بالجمهورية، فحزن لذلك محمد علــى باشا لما كان بينهما من علائق المودة والمحبة وثقل عليه المــرض وازدادت قــواه العقلية ضعفاً حتى التزم الأطباء المرافقون له بإرجاعه إلى الإسكندرية فوصلها فى

أواخر شهر مارث سنة ١٨٤٨ وتبعه ولده إبراهيم باشا فأقام والده بسراى رأس التين ومعه أحذق الأطباء.

وعاد هو إلى مصر وعقد ديواناً تحت رياسته لإدارة أحوال الحكومة مدة مرض والده وأرسل بذلك إلى دار الخلافة فورد فى منتصف شهر يوليو سنة ١٨٤٨ مندوب يدعى مظلوم بيك من قبل الخليفة الأعظم ومعه أمر بتولية إبراهيم باشا مكان والده إلى أن يشفى فلم يحتفل احتفالاً كلياً بهذا المندوب لمرض أبيه وانتشار الوباء فى أنحاء القطر. وفى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٤٨ سافر إبراهيم باشا مع هذا المندوب إلى القسطنطينية للمثول بين يدى الحضرة السلطانية واستلام فرمان التولية من يدها الشريفة وكان سفر سموه إلى جزيرة رودس على إحدى الدوارع المصرية تخفره الدونانمة المصرية بتمامها ومنها ركب سفينة عثمانية كانت فى انتظاره فوصل إلى إسلامبول فى ٢٥ أغسطس وتشرف بالمثول لدى السدة العلية ونال منها كل رعاية والتفات، لكنه لم يلبث أن عاوده المرض فأسرع بالرجوع إلى مصر إتباعاً لمشورة الأطباء فسافر من القسطنطينية فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٨ على إحدى السفن العثمانية فأوصلته إلى جزيرة رودس، وكان فى انتظاره السفينة المصرية (بنى سويف) فركبها ووصل ثغر الإسكندرية فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٤٨ وكانت قد خفت وطأة الوباء بعد أن أهلك عدداً عظيماً من الأهالى، وبعد أن زار والده فى سراى رأس التين عاد إلى القاهرة وجمع بالقلعة ديواناً عظيماً من علماء البلد وأعيانها وقناصل الدول وتلا الفرمان العلى الشأن المؤذن بتوليته على أريكة الحكومة المصرية وأطلقت المدافع ايذاناً بذلك واستبشاراً بما هنالك، واستمر سموه قابضاً على أزمة الحكومة والأحكام إلى أن اخترمته المنون فى ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ وكانت ولادته فى مدينة قوله سنة ١٧٨٩ فتولى بعده عباس باشا ابن أخيه طوسون باشا.

وكانت وفاة محمد على باشا فى يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ عن ثمانين سنة قضاها فى تحسين القطر المصرى وتخليصه من أعدائه المماليك وفتح الكثير من البلاد وإجراء الإصلاحات مثل فتح المدارس وإنشاء الترع والجسور وتأسيس الورش والفابريقات، فمات رحمه الله مأسوفا عليه من كل مصرى حرّ النزعة وسنأتى فى الباب التالى على بيان ما فعله من الإصلاحات، بدون اختصار مخل ولا تطويل ممل، ليحظى القرّاء بما لهذا الشهم العظيم من الأيادى البيضاء على وطننا العزيز الذى كان مضغة فى أفواه المماليك يستنزفون ثروته ويضعفون قوته بفعلهم ما لا خير فيه، مما أتينا فى صدر هذا الكتاب على بعضه لأن استقصاء ما ارتكبوه فى مصر من المظالم والمحرّمات يستلزم المجلدات الضخمة بل يتعسر حصره فعلى من يريد الوقوف على أعمالهم أن يطالع الكتب المطولة فى فن التاريخ فإنها كثيرة لا تحصى وأسماؤها لا تستقصى.

١٠ - خاتمـــــة

فيما فعله محمد على باشا من الاصلاحات والتأسيسات

أن أوّل ما شرع فيه محمد على باشا رحمه الله ممدّن مصر مـــن الإصـــلاحات ليعيد إليها مجدها الأثيل تأسيس المدارس لبث العلوم والمعارف بـــين المـــصريين الذين هجر وطنهم العلم، فأخذ العزيز فى إحياء المدارس بعد أن كانـــت فيهـــا دوارس وأعاد العلوم إلى وطنها ومرباها ليستضاء بمسراها، فأســـس مدرســـة الطب بأبى زعبل بناء على طلب الدكتور كلوت بيك الفرنساوى سنة ١٢٤٢ هجرية (١٨٢٦م) وأتى لها بالأساتذة من البلاد الأورباوية وذلك أن كلـــوت بيك أظهر لمحمد على باشا احتياج البلاد لتأسيس هذه المدرسة لتـــستغنى عـــن الأطباء الأجانب، وليوجد بمصر أطباء كافية للجيوش البرية والبحرية وقدّم لـــه بذلك تقريراً إضافياً قال فى آخره يجب أن يكون بمصر مدرسة طبيـــة تكـــون تلامذتها من الوطنيين المخلصين الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم وارتقائه فى سلم التمدّن والعمران، ويتوصل لذلك بإنشاء اسبتالية عمومية يتعلم فيها مائة وخمسون شاباً ممن لهم إلمام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبـــادئ الحساب ويلزم أن تدرس لهم اللغة الفرنساوية وأنواع الطب بفروعـــه ســـيما الجراحة وتكون مدة الدراسة أربع سنوات يختبر التلامذة فى آخر كل سنة منها، فسر الباشا من هذا المشروع وأصدر أوامره بتأسيسها وجعلها تحـــت رياســـة كلوت بيك.

وجعل أيضاً مدرسة للطب البيطـــرى وولى رياســـتها للموســـيو هـــامون الفرنساوى، ومدرسة المهندسخانة ورئيسها (لامبربيك) الفرنساوى، ومدرســـة للموسيقى، وأخرى لتعليم الصنائع والفنون، وهذا كله غير المدارس الإبتدائيـــة والتجهيزية التى أنشئت فى أنحاء القطر المصرى ومدرسة الألسن بناء على طلب

العالم الفاضل رفاعة بيك فقد جاء فى الخطط المصرية لعلى باشا مبارك فى ترجمة البيك المذكور ما نصه:

عرض رفاعة بيك للجناب العالى أنه فى إمكانه أن يؤسس مدرسة لتعلم اللغات الأورباوية ويمكن أن ينتفع بها الوطن ويستغنى عن الدخيل فأجابه إلى ذلك ووجه به إلى مكاتب الأقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع فأسس المدرسة وفى المدة المعينة امتحنت التلامذة فى اللغة الفرنساوية وغيرها من العلوم المدرسية، فظهرت نجابة التلامذة، ثم شكل بها قلم ترجمة ترجم فيه كثير من الكتب. وكان بهذه المدرسة قسم تجهيزى خاص وهو أيضاً تحت رياسته وكان معلموها من تلامذه مدرسة الألسن فنبغ منها رجال بارعون فى الإنشاءات العربية نظما ونثراً وفى العلوم العربية كذلك، ثم ألغيت هذه المدرسة مع غيرها من المدارس فى مدة المرحوم عباس باشا.

وأنشأ أيضاً مدرسة لتعليم الزراعة العلمية والعملية ببلدة قديمة تدعى (نبرُوه) من مديرية الغربية، وأتى لها من البلاد الأورورباوية بالمعلمين وآلات الفلاحة المستعملة فى بلادهم وجعل فيها من شبان المصريين ٤٠ تلميذاً لدراسة فن الزراعة الذى عليه مدار الثروة فى سائر البلاد وإتقان هذا الفن النفيس علماً وعملاً، وكذا صناعة استخراج السمن والجبن من اللبن واعتنى العزيز بتلك المدرسة وذهب إليها بنفسه وكان يودّ نجاحها، لكن الأهالى والحكام كانوا لا يرغبون فى هذه الإصلاحات وينسبون إليها عدم الفائدة وأنها لا تساوى ما يصرف عليها ومع ذلك لم يحصل لهمته فتور حتى كثر اللغط بزيادة مصاريفها وعدم ظهور نتيجة منها ولما رأى ناظرها المسيو (جران جان) عدم رضا الأهالى عنها، استقال من وظيفته وخلفه فيها شخص أرمنى تربى فى فرنسا فتبع أهواء الأهالى وعوائد المزارعين فاضمحلت المدرسة بالكلية وكان ذلك داعياً إلى نقلها لشبرا الخيمة لتكون تحت نظر الموسيو (هامون) ناظر المدرسة البيطرية، فأجتهد فى ترتيبها وإتقان التعليم فيها على أسلوب المدارس الفرنساوية، لكن لم يمتنع

المعارضون عن معارضته ولم ينتظروا حسن النتيجة فاضمحل حالها ودرس أمرها ولم تأت بالثمرة المطلوبة.

وأسس أيضاً المدارس الحربية منها مدرسة المشاة (بيادة) وكانت بمدينة دمياط ومدرسة الخيالة بسراى مراد بيك الكبير ورئيسها المسيو (فاران) من ضباط الجيش الفرنساوى ومدرسة الطوبجية بمدينة (طره) بالقرب من القاهرة ومؤسسها الكلونيل (سيجيرا) الإسبانيولى.

ولم يكتف العزيز بإنشاء المدارس فى كافة أنحاء القطر المصرى وتأسيس المدارس العليا بالعاصمة، لعلمه أنه يكون بهذه الطريقة دائماً محتاجاً لمعلمين من الأجانب ما دام لم يكن لديه من المصريين من يقوم مقامهم فى المستقبل فتكون مصر بسبب ذلك ملزمة باستخدام الأجانب فى حكومتها، اضطرّ إلى إرسال عدد عظيم من شبان المصريين إلى أوربا عموماً وباريس خصوصاً لتلقى العلوم بها لما اشتهرت به مدارسها من اتساع المعارف ودقة التعليم. ولا يخفى ما كان فى ذلك من مخالفة عوائد الأهالى الذين لم يفقهوا ولم يعلموا ما ينجم عن هذا المشروع من تقدّم وطنهم بالنفع العميم فأخذوا يندبون حظ أولادهم الذين ساعدهم الحظ الأوفر بدخولهم فى جملة من اختير للسفر وصاروا يستعملون كل الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة التعلم والتعليم لكن لم يفد بكاؤهم ولا انتخابهم شيئاً، بل صمم العزيز على إخراج مشروعه من حيز الفكر إلى حيز العمل مراعياً فى ذلك منفعة البلاد والعباد متيقناً أنهم يكونون عوناً له ولمن يسمو أريكة الولاية من بعده على الإصلاح والتقدم فى سبل الفلاح بقلب ثابت وعزم شديد.

فأرسل فى أوائل سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذاً وفتحت لهم مدرسة خصوصية عهدت إدارتها إلى المعلم الشهير الموسيو (جومار) فقام بما عهد إليه خير قيام، ورتبها ونظم دروسها وعين لها مهرة الأساتذة وخص كل واحد من التلامذة بفنّ معلوم لشدّة إتقانه، فقد جاء فى كتاب الموسيو (هامون) نقلاً عن تقرير

تقدّم من الموسيو (جومار) إلى محمد على باشا سنة ١٨٢٨ أنه خصص من التلامذة اثنين للعلوم السياسية، وكان يدرس لهم قانون حقوق الملل والإقتصاد السياسي وأكثر اللغات الأوروباوية المستعملة فى السياسة، ويسوحون بلاد أوروبا للوقوف على عوائد أهلها ونظاماتها الداخلية والخارجية وحالتها الإقتصادية وأربعة للإدارة العسكرية وثلاثة للبحرية يدرسون العلوم الهندسية للدخول فى إحدى المدارس الحربية أو البحرية، وثلاثة أيضاً للعلوم الميكانيكية يتعلمون الهندسة العملية ويتدربون فى المعامل والفابريقات ويتعودون على بعض الأشغال اليدوية، وكذلك فرقة لفن الطوبجية والإستحكامات وخص منهم عدداً عظيماً لدراسة الكيمياء الصناعية لاسيما ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج والقيشاني وصناعة السكر، ليكونوا مدربين على المعامل التى أنشئت بمصر كما سيجئ، وفريقاً لصناعة الطبع والرسم والحفر فى الحجر والخشب لأعمال الخرط الجغرافية والرسومات اللازمة للكتب العلمية وبعضهم للزراعة العملية التى هى من أهم العلوم والفنون بالنسبة لمصر واتساع أرضها وخصوبتها.

وكانوا يبحثون عما يمكن إدخاله فى القطر المصرى من الأشياء التى توافق تربتها من أنواع الثمار ويشتغلون أيضاً بالتاريخ الطبيعى وقليل من علم البيطرة، ومنهم من تخصص لدرس المعادن وكيفية استخراجها وذلك للبحث عما عساه يوجد بمصر من المعادن وخصوصاً الفحم الحجرى والحديد حيث كان محمد على باشا باذلاً جهده فى استكشافهما فى مصر، لعلمه أنهما روح الصناعة والتجارة والملاحة وبهما تقدّمت الأمة الإنكليزية عن غيرها من الأمم وصارت ملكة البحار.

ثم فى سنة ١٨٣٢ أرسل أيضاً إلى باريس ١٢ تلميذاً من مدرسة الطب لإتمام دروسهم وأرسل غيرهم إلى أن بلغ عدد من أرسل من المصريين إلى سنة ١٨٤٢ مائه تلميذ.

ثم أنشأ العزيز للوازم الخيالة وتحسين نوع الخيل فى القطر المصرى اصطبلات لتربية الخيول واستنتاجها وقد قال الموسيو (هامون) الذى كان ناظراً على مدرسة البيطرة والإصطبلات فى زمن المغفور له محمد على باشا فى كتابه الذى ألفه على مصر أنه لما تولى العزيز على مصر، لم يكن بها من الخيل إلا القليل غير الكافى بحاجات الزراعة والجند لكن لما اجتهد رحمه الله فى شأن إنماء الزراعة وتوسيع نطاقها والأخذ فى تجنيد القدر العظيم من العساكر الخيالة جمع سموّه عدّة من جياد الخيل ذكوراً وإناثاً وأنشأ لها اصطبلات بقرب القاهرة ثم نقلها بجوار سراية شبرا، فلم تحصل الثمرة المقصودة بل كان نتاجها يموت أو يتعب من كثرة الأمراض، ولما كان المسيو (هامون) المذكور ناظراً على مدرسة البيطرة بأبى زعبل أمره العزيز بالتوجه إلى اصطبلات شبرا وتفقدها وتحرير تقرير عما يراه لازماً لها من الإصلاحات حتى تأتى بالنتيجة التى أنشئت لأجلها، فتفقدها وقدم للعزيز تقريراً بما رآه لازماً لها من التحسينات فكلفه الباشا بإجراء كل ما يجده موجباً لنجاحها فتولى إدارتها وبنى لها محلات جديدة مستكملة للشروط الصحية ورتب لها كافة ما يلزم لها من المآكل والمشارب، فنتجت وكثر عدد خيولها وأنشأ اصطبلاً آخر بقرب (نبروه).

ثم لما رأى الأعيان والأمراء وأعضاء عائلة الباشا رغبته فى تكثير الخيل واعتنائه بأمرها رغبوا فيها وأكثروا من اقتنائها وتنافسوا فى تخيرها، فسموّ إبراهيم باشا السر عسكر كان له اصطبلات بجوار قصر النيل وفيها أربعمائة فرس تقريباً جميعها من الصافنات الجياد، وكذا كان لعباس باشا اصطبلات بالقرب من المطرية أغلبها من كرائم خيل العرب وكذا كان عند كثير من الأمراء والأعيان اصطبلات وفيها خيول جيدة، فكان لأحمد باشا يكن اصطبل فيه نحو ثلاثين فرساً وأيضاً لما كان إبراهيم باشا ببلاد الشام أرسل إلى مصر العدد الكثير من إناث الخيل الشامية ففرّقت فى البلاد المصرية.

وكذلك أنشأ للوازم الجيش عموماً معامل لصناعة البارود والبنادق وسبك آلات المدافع وعمل الأحذية والملابس الضرورية للجيش حتى أصبح جميع لوازم الجندى من سلاح ولباس يصنع بالقطر المصرى على نفقة الحكومة تحت ملاحظة الأوروباويين الذين استخدموا لهذه الغاية الجليلة.

ولم يكن اهتمام العزيز محمد على باشا بالبحرية أقل من اهتمامه بالعساكر البرية فأنشأ بمينا الإسكندرية ترسانات لصناعة السفن التجارية والحربية، وكان الرئيس عليها رجلاً وطنياً يقال له الحاج عمر وكان من الحذاقة والنباهة على جانب عظيم لكن لما دمرت أغلب السفن المصرية فى واقعة نـاوارين الحربية وشرع العزيز فى عمل دونانمة أخرى استحضر من فرنسا المهندس الحاذق الماهر الموسيو سريزى بيك لتعميق الترسانة ليكون بها من المياه ما يكفى لحمل السفن الكبيرة المزمع على إنشائها ثم أخذ فى تأسيس ورش مخصوصة لفتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصوارى والقلوع وكافة ما يلزم للسفن وفى أثناء هذه الأعمال جمع من جهات الأرياف العدد الكافى من شبان الأهالى لتعلم هذه الصنائع تحت مراقبة معلمين من البلاد الأجنبية فاختص كل فريق بفرع من فروع مصالح السفن حتى أتقنها.

وكانت نتيجة ذلك إتمام عدة سفن فى أقرب وقت بين حربية وتجارية مع الإتقان، بحيث أنها عادلت أحسن السفن الأوروباوية واستغنت الحكومة بذلك عن شراء سفن من الخارج، نعم كانت الحكومة تشترى كافة ما يلزم لها من حديد وأخشاب من البلاد الأجنبية بأثمان فاحشة لعدم وجودها فى بلاد مصر وشدّة الإحتياج إليها.

ولم يكن ذلك داعياً لفتور همة محمد على باشا بل استمر على إنشاء السفن بمصر ولم يصغ لكلام التجار الذين كانوا دائماً يثبطونه عن إنشائها ويبدون له مالا مزيد عليه من الصعوبات وكثرة المصاريف، ويدخلون عليه بكل حيلة لينثنى عزمه عن هذه الوجهة الشريفة المبدأ والغاية، وصارت بذلك الدونانمة

المصرية تعادل أو تفوق دونانمة الدولة العلية وأحسن السفن الحربية المصرية السفينة المسماة بالمحلة الكبرى والمنصورة والإسكندرية، وكل منها يحمل مائة مدفع، وأما مصر وعكّا فإنهما يحملان ٩٨ مدفعاً هذا سوى السفن الصغيرة التى تقل حمولتها عن هذا المقدار وكان عدد من بها من الجند والبحرية نيفاً وخمسة عشر ألفاً بخلاف الصانعين بالترسانة وكان عددهم لا ينقص عن ٤٠٠٠. وبالجملة فقد بلغت مصر فى مدته درجة لم تبلغها قط منذ ولاية الرومانيين عليها فكانت قوّتها البرية والبحرية على ما جاء فى كتاب كلوت بيك تزيد عن ٢٧٦ ألف جندى منها ١٣٠ ألفا من الجنود المنتظمة و ٤١ ألفاً من الباشبوزق و١٩ ألفاً وخمسمائة من البحرية والباقى من عساكر الرديف وتلامذة المدارس الحربية.

وغير ذلك كان له اعتناء كلى بإنشاء الإستحكامات اللازمة لحفظ سواحل مصر من إغارة الأجانب عليها كما حصل فى سنة ١٨٠٧ فأحضر لذلك المهندسين الحربيين من الأجانب، وكلفهم باختيار المواقع المهمة من جميع السواحل المصرية اللازمة لإنشاء استحكامات بها فأسست طبق رغبته العلية وأحضر لها المدافع اللازمة وعين لحفظها العساكر الكافية، فتحصنت بذلك مصر وازدادت قوّتها أضعافاً حتى قاومت الدولة العلية وبذلك انتصرت مراراً على غيرها، كما سبق ذكر ذلك فى محله، وزيادة على ذلك مال كثير من قوّاد الدولة العلية للإنحياز إلى مصر لما شاهدوا فى عزيزها من الكفاءة والقدرة على أجلّ الأعمال وأنفعها وسلم أحمد باشا فوزى قبودان الدونانمة الشاهانية دونانمته إليه بما فيها من الجند وكانت مركبة من ٩ سفن كبيرة وستة عشر سفينة صغيرة تحمل ستة عشر ألفا من الجند البحريين و ٥ آلاف جندى برى، فبذلك يظهر جلياً أن الديار المصرية اكتسبت بحسن تدبير عزيزها قوة يمكنها بها أن تقاوم أكثر من دولة حتى اضطرت الدول ليأمنوا على أنفسهم من صولة الديار المصرية أن يتعاهد بعضها مع بعض بإرجاع مصر إلى حدودها الأصلية، كما

رأيت فى هذا الكتاب، وفى ذلك أكبر شاهد على قوة فكر العزيز وسعة عقلــه وعلوّ همته ومكانة شهامته وحسن تدبيره.

ومن إنشاءات محمد على أيضاً فابريقات الغزل ونــسيج القطــن والحريــر والكتان والصوف فكان للقطن خاصة ١٨ فابريقة وكانت فى أهم مدن القطر، كالمنصورة ودمياط ورشيد. إذ كان ينسج فيها قلوع السفن والمحلــة الكــبرى وشبين الكوم وقليوب وزفتى وميت غمر فى الوجه البحــرى وبــنى ســويف وأسيوط، وبهما أكبر فابريقات الصعيد ثم فى المنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا بالوجه القبلى، وأكبر الفوريقات فوريقة بولاق مصر التى كانت تسمى بفوريقة مالطة لكثرة وجود المالطية بها وكان رئيسها المسيو (جوميل) الفرنساوى الذى اجتهد فى نشر زراعة القطن فى القطر المصرى، وأقدمها الخورنفش بمصر الــتى أنشئت سنة ١٨١٦ وأنشأ العزيز عدّة فوريقات أخر لغزل الكتان وأنشأ أيضاً المبيضة بين بولاق وشبرا لتبييض مقاطع الكتان وبصم أقمشة الشيت وكان يبصم بها أيضاً المناديل فترغبها النساء كثيراً وفيها أيضاً أنوال النسيج الحرير وقد جعل بها ٢٠٠ نولا لنسيج المقصب وغيره وأحضر لها صناعاً من إسلامبول فأتقنــت صنعته وصار ما ينسج بمصر يضاهى فى الرقة وحسن الصنعة ما يصنع فى بــلاد الهند ونحوها.

وأنشأ بالقاهرة فوريقة لفتل حبال المراكب وغيرها من التيل وقد كان هــذا النبات مفقوداً من مصر فأوجده بها وأنشأ فى بولاق فوريقة الجوخ أحضر لها فى مبدأ الأمر رجالاً فرنساويين أداروها مدة وتربى تحت أيديهم جماعة مــن شــبان المصريين، ولم يكتف محمد على باشا بذلك بل أرسل جملــة مــن الــشبان إلى فوريقات سيدان وليون من أعمال فرنسا المشهورة بصناعة الجوخ فتعلموا تلك الصنعة وأتقنوها ثم عادوا إلى مصر واستخدموا بفوريقة بولاق فحسن الجــوخ وصار يستعمل فى ملبوس العساكر، وكان ينسج بها أيضاً أحرمــة وســجاجيد للزوم العسكر ثم أنشئت فوريقة بمدينة فوّه لعمل الطربوش تحــت إدارة رجــل

مغربى وجلبت لها الشغالة من تونس فنجحت حتى صار المتحصل يوميا ستين دوزينة.

ومن إنشاءاته فوريقات السكر بالصعيد فأنشأ واحدة فى الزيرمون وأخرى بساقية موسى وأخرى بالروضة، ومن ذلك إدخال زراعة النيلة بالقطر المصرى فجلب لها عدداً من مزارعى بلاد الهند لتعليم الأهالى وانتشرت زراعتها بالبلاد وكان أغلب محصولها يستعمل فى المصابغ التى أنشأها بشبرا وغيرها من بلاد الوجه البحرى والقبلى وأنشأ أيضاً معاصر الزيت فكان منها فى الوجه البحرى مائة وعشرون معصرة لعصر زيت الكتان والسمسم وفى القاهرة أربعون لزيت القرطم وعدد عظيم فى الوجه القبلى لاستخراج زيت الخس خصوصاً فى مديرية إسنا وأخرى لزيت السلجم فى أخميم وما جاورها.

ولشدة اعتنائه رحمه الله بإصلاح أحوال مصر ورفاهية أهلها لم يكتف بانشاء المعامل والفوريقات بل وجه اهتمامه لإيجاد المواد الأصلية لهذه الصنائع بالبلاد المصرية، فأمر بالإكثار من زراعة القطن والتيل والنيلة وكافة النباتات التى لها دخل فى الصناعة، ثم عنّ له أن يدخل تربية دود القز إلى الديار المصرية حتى تستغنى به البلاد عما يأتى لها من الشام وغيرها فأمر بإنشاء عدة سواقى وتوابيت بالمحل المعروف برأس الوادى (شرقية) وأن يزرع شجر التوت اللازم لتغذية الدود وذهب بنفسه إلى هذا الإقليم للإسراع بإنشاء السواقى وإقامة الأبنية اللازمة لسكن المعينين من الفلاحين لتعهد الأشجار بالسقى والخدمة، فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى كان بها ألف ساقية وغرست أشجار التوت لتربية دود القز والحرير كما هو حاصل فى بلاد الشام وجبل الدروز ثم استحضر العزيز من هذه الجهات كثيراً ممن لهم إلمام ودراية بتربية دود القز وصناعة الحرير وجمع لهم عدداً وافراً من أهالى الشرقية الخالين عن العقار، لتعليمهم وسكنوا فى كفور بنيت لهم وزين هذا الوادى بالسواقى والأشجار حتى صار أهلاً للسكنى بعد أن كان قفراً وعراً وفضاء متسعاً.

وقال كلوت بيك فى كتابه على مصر أن جميع ما غرس من شجر التوت بجهة الوادى يبلغ ثلاثة ملايين شجرة فى جهات متعددة تبلغ مساحتها عشرة آلاف فدان وكان مقدار الحرير المتحصل سنة ١٨٣٣ تسعة آلاف وتسعمائة وخمسة وسبعين أوقة، وكان لذلك أماكن وخدم أتى بهم العزيز من الخارج وتعلم منهم الأهالى وبلغت دواليب الحرير مائتى دولاب ثم اضمحل ذلك بعده حتى كأن لم يكن ولا يستعمله الآن إلا القليل من الأهالى. اهـ.

ثم أحضر رحمه الله من بلاد أوربا عدداً وافراً من أغنام أوربا المعروفة بالمرينوس وذلك لتحسين جنس الأغنام المصرية وتحسين صوفها فإن صوف الغنم المصرية على ما جاء فى كتاب هامون الفرنساوى بسبب طوله وخشونته وصلابته كان غير جيد لعمل الجوخ والطرابيش والثياب الرفيعة فكان العزيز يشترى سنوياً من صوف غنم أوربا بقيمة ثمانمائة ألف فرنك.

ووزعت الأغنام الأوربية فى مديرية البحيرة وجعل لها مدير خاص بها وعين لها رعاة من العرب ولكن لقلة المرعى بهذه المديرية ووجود أغلبها على حافات الترع وفى مواطئ الأرض الرطبة تولدت فيها الأمراض، ومع ذلك لم يكن لها ما يقيها حرّ الصيف وبرد الشتاء حتى مات منها كثير، ثم ذهبوا بها إلى الصحراء لكثرة مرعاها عن غيرها فكان يتعلق الرمل بأصوافها وجلودها فيضر بصحتها وجودة صوفها فلذلك لم تحصل منها الثمرة المقصودة، ثم كلف العزيز الموسيو هامون بالنظر فى أحوالها وترتيب ما يوجب صحتها وتحسين صوفها وإكثار نتاجها وأمره بتوزيعها فى المديريات البحرية بحيث لم يبق فى مديرية البحيرة إلا ألف وخمسمائة رأس منها وصدرت أوامر أيضاً ببناء مراحات بسبرباى ومحلة روح والمنصورة وغيرها، فنظر الموسيو هامون فى أمرها وسنّ لها لائحة تتبع فى كل جهة وأهم ما بها أن عدد المراح الواحد لا يزيد على ألف ويكون له ناظر أوروباوى وكاتب ليقيد ما يموت وما يولد وجنس الذكر والأنثى وأن يميز

البطون بعضها عن بعض بعلامات تعرف بها كنتاج أوّل بطن بعلـــم بخرقـــة فى الأذن اليمنى ونتاج البطن الثانية فى اليسرى إلى غير ذلك من العلامات.

ولرغبته فى تحسين الأغنام فى كافة أنحاء القطر من تلك الأغنام اشترى مـــن العرب أربعة آلاف رأس وقدرها من الأهالى ووزع فى الجهات جملة من ذكـــور الأغنام المرينوس واستمر الحال على هذا المنوال، وقد قال الموســـيو هـــامون فى كتابه أنه وجد منها فى القطر المصرى سنة ١٨٣٧ ميلادية سنة ١٢٥٣ هجرية ٧٥٤٨ رأساً، ومع بذل الإجتهاد والإهتمام لم يتم غرض العزيـــز مـــن تلـــك المصلحة لعدم قيام المستخدمين بما عينوا له على الوجه المطلوب، فإنه لم يحـــصل من صوفها بعد عشر سنين من تجزئتها إلا نحو ستمائة أوقة مع كثرتهـــا وكثـــرة مصاريفها ولم يستغن عن شراء الصوف من البلاد الخارجية ثم لم يـــزل حـــال الأغنام فى الإضمحلال حتى لم يكن منها الآن إلا آثار قليلة فى بعض جهـــات الوجه البحرى. اهــ.

وأما اهتمام محمد علي باشا بأمور الرى الذى عليه مدار الزراعة فى القطـــر المصرى فإنه كان عظيماً جداً ولا شك أنه أدرك بقريحته الوقادة وفطنته النقادة أن مدار سعادة مصر بالأصالة هى الزراعة ولا يسوغ لها أن تتوقع ثروة إلا إذا كان من محصولها الزراعى وأن حياتها متعلقة بنيلها، إلا أن أرض مـــصر أقـــرب للتلف من غيرها اذهى تابعة للنيل وجوداً وعدماً فإذا أغمض النيل عنها عينـــه سنة من السنين أو حجب عنها فيضانه الممزوج بالطمى المخصب الـــذى هـــو بالنسبة لأرض مصر بمثابة السماد كانت السنة سنة جدب كما أنه إذا أغرقهـــا بمائه الزائد عن الحاجة كان الضرر أعم والخطب أدهى وأهم، وحسبك فى ذلك ما جاء فى القرآن الشريف فى سورة يوسف عليه السلام من ذكر سبع بقـــرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف، فالآية قد جاءت فى وصف مصر على وجه التحقيق وقوله تعالى "فما حصدتم فذروه فى سنبله" يرشـــد إلى الإحتيـــاط والإحتـــراس ولذلك كان حكماء ملوك مصر يحتاطون فى سنى الخصب فلا يخرجون الزائـــد

عنهم لغيرها من البلاد، ويعتنون كل الإعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان واستمر الحال كذلك حتى وقعت مصر فى قبضة المماليك فكانوا لا ينظرون لعمارتها بل يأخذون كل ما طاب لهم وراج فى كل عام حتى صارت مصر خراباً وأهمل أمر النيل وترعه حتى كانت الأراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الأقاليم، إلى أن هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل ولو بقى حكم إبراهيم بيك ومراد بيك عشرين سنة لفسدت جميع أرض مصر الزراعية ومن فيها، ولما قيض الله لمصر المرحوم محمد على باشا أدرك أهمية النيل بالنسبة لمصر وأخذ فى إحياء مواتها فوجه اهتمامه أوّلاً إلى إيصال الماء إلى مدينة الإسكندرية لرى ما بينها وبين فرع رشيد من الأراضى.

وصدرت أوامره السنية سنة ١٢٣٣ هجرية الموافقة سنة ١٨١٩ ميلادية بحفر ترعة المحمودية وأن تعمق حتى تجرى صيفاً وشتاء وأن توسع بحيث يسهل لجميع سفن النيل منها الوصول إلى المدينة بأنواع المحصولات فى زمن قريب بلا كبير مصرف ولا مشقة مع حصول تمام النفع للأهالى وحيواناتهم ومزروعاتهم. وكانت قبل ذلك تجارات القطر لا تصل إلى الإسكندرية إلا من ثغر رشيد أو دمياط وذلك مستوجب لكثرة المصرف وزيادة المشقة جداً فإن سفر البحر المالح لا يخلو عن الخطر وكانت لا تخلو سنة عن غرق بعض السفن والبضائع والآدميين. ولأهميتها جمع لها عدد عظيم من الأهالى من جميع مديريات القطر حتى تمت فى أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها وقد بلغ ما صرف عليها إلى تمامها ٣٠٠ ألف جنيه، على ما نقله كلوت بيك، وهذا بالنسبة لما ترتب عليها من المنافع شئ يسير كما هو مشاهد وجعل فيها فمها عند ناحية العطف وكان ذلك سبباً فى اتساع عمارة تلك الناحية وكثرة خيراتها، إذ كانت مرسى للسفن التجارية وجعل مصبها بالقرب من الإسكندرية وقد حصل منها منافع جمة وفوائد عديدة، كأحياء غالب الأراضى التى بجوانبها من العطف إلى الثغر، بعد أن كانت ميتة غير صالحة للزراعة ولما اتسع نطاق الزراعة بسببها اتضح عدم كفاية مياه المحمودية بجميعها واحتيج إلى تركيب وابورات العطف، ثم إنه عند

تمام حفرها جعل فى فمها وفى مصبها قناطر كانت مانعة لسفن النيل والسفن الآتية من الخارج من الدخول فيها فكانت التجارة تنقل مرتين عند فمها وعند مصبها وبالعكس.

ولما علم العزيز بأن وجود القناطر ينشأ عنه المصاريف الباهظة التى توجب تأخير تجارة القطر المصرى فضلاً عن المشقة وكان غرضه درء المضار وتذليل الصعوبات، أمر جنابه العالى بإزالة تلك القناطر وصنع هويسات على فمها ومصبها وذلك فى سنة ١٨٤٢ الموافقة سنة ١٢٥٨ هجرية، وسميت هذه الترعة بالمحمودية نسبة إلى السلطان محمود الثانى سلطان القسطنطينية.

وقد شرع العزيز محمد على باشا فى إنشاء كثير من الترع والجسور والقناطر لتعميم الرى وأتم أغلبها، ومن أكثر هذه الأعمال فائدة وأكبرها عائدة إقامة القناطر على فرعى النيل المفترقين عند شلقان وذلك أن هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة بالدلتا ومنهما تروى عدّة مديريات وهى القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية والبحيرة إلا أن انتفاع تلك المديريات منهما لا تكون تاماً إلا فى زمن فيضان النيل، أما فى زمن التحاريق فميا ههما تنصب فى البحر المالح ولا تعود منهما على الزراعة أدنى فائدة ولذلك استصوب المرحوم محمد على باشا إقامة قنطرتين عليهما من أمام شلقان إلى بر المناشى إحداهما على البحر الشرقى والثانية على البحر الغربى، وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرّين وأن يبنى رصيف على رأس الجزيرة يكون ابتداؤه من الشاطئ الغربى من فرع دمياط وانتهاؤه إلى الشاطئ الشرقى من فرع رشيد وأن يكون هذا الرصيف عالياً جداً بحيث لا يرتفع إليه الماء فى زمن الفيضان، وأن يعمل لهذه القناطر عيون بأبواب محكمة تقفل وتفتح بحسب الإقتضاء لحبس الماء وإرساله عند اللزوم، وأن يعمل أيضاً لمساعدة القناطر ثلاث ترع (رياحات) كبيرة تكون فوهاتها من فوق تلك القناطر وإحدى هذه الترع تكون معدة لرى القليوبية والشرقية والدقهلية بغاية الراحة وفوهتها من

الشاطئ الشرقى قبلى شلقان، والترعة الثانية تكون فوهتها مـــن وســـط رأس الجزيرة أعنى من منتصف الرصيف وتكون معدة لرى المنوفية والغربية، والترعة الثالثة يكون مأخذها من فوق القناطر الخيرية ببر المناشي وتكون معـــدة لـــرى مديرية البحيرة، وأن يعمل لهذه الترع الثلاثة قناطر وعيـــون بحـــسب ميزانيـــة الأرض وأن يعمل لها أبواب تقفل وتفتح عند اللزوم فإذا فتحت القناطر الخيرية والرياحات على هذه الكيفية ترتب منه أنه فى وقت فيضان النيل تفتح القنـــاطر الخيرية وقناطر الترع الثلاث لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الرى وفى أيام التحاريق تقفل الأبواب المذكورة قفلاً محكماً فترتفع المياه أمـــام القنـــاطر المذكورة فتنصب فى الرياحات وبذلك تزيد فيها المياه أيام التحـــاريق ويتـــسع بذلك نطاق الزراعة الصيفية.

ولذلك أمر محمد على باشا ببناء هذه القناطر، وعند وضع أوّل حجر مـــن أساسها احتفل احتفالاً رسمياً وكان ذلك على مـــا جـــاء فى كتـــاب موســـيو (وانترينيه) فى يوم ٩ إبريل سنة ١٨٤٧ بحضور جنتمكان وقناصل الدول وجم غفير من أعيان الاهالى والتجار الوطنيين والأجانب، وعندما تنـــازل رحمـــه الله بوضع الطين على الحجر الأول بيده الطاهرة أطلقت المدافع إيذاناً بالإبتداء بهذا الفعل العظيم الذى يعود على مصر بما لا يقدر قدره من الفوائد وانتشر البـــشر والسرور فى أنحاء القطر بين الاهالى واستبشروا بالسعادة والرفاهية بسبب هذا البناء، الذى لو لم يكن لمحمد على باشا إلا هو لكفاه فخراً جميلاً ونـــبلاً جلـــيلاً واستحق من المصريين الثناء عليه والإخلاص له ولعائلتـــه الكريمـــة وحاشـــيته العظيمة.

ومن منشآته رحمه الله تلغرافات الإشارات، رتبه الموسيو (ابـــرو) بمـــساعدة الموسيو (كوست) بين مصر والإسكندرية فى سنة ١٨٢١ ميلادية بنـــاء علـــى أوامر عزيز مصر، وذلك لتصل إليه أخبار جيوشه المشتغلة بقتـــال اليونـــان فى أقرب وقت وقد جعل لهذا التلغراف ثمانى عشرة محطة بنيت فيها الأبراج العالية

وأتى لها بالنظارات والآلات من بلاد أوربا، وقد تم هذا المشروع حتى وردت الأخبار من الإسكندرية إلى القاهرة وبالعكس فى مسافة لا تزيد عن أربعين دقيقة.

* * *

وبالجملة أصبحت مصر ذات بهجة ونضارة وزهرة وغضارة بل أضحت مدينة السلام ودارة الاستسلام ومناراً للعلم وعلماً للحق، فاتسق النظام واستتب المرام والتأمت الحال بعد أن استحال وأخصب القطر وأثرى، فزالت فاقته وانتشرت إفاقته واستوفر أسباب التقدّم بعد أن أوشكت أركان التمدن أن تتهدم، حيث العزيز (برّد الله مضجعه) برّد الغليل وشق الغُلة وآسى القطر بحكمته وأزال العلة فأسرع لمصر الصفاء وتزلف لها غبَّ غيبة وجفاء، وفنى فى فنائها الروع وأحييت بها السكينة فأسكنت الربوع وأبيد الظلم والمَيْل ونُشر لواء العدل الظليل وسُوّى بين الحقير والجليل، والوضيع والأثيل والدخيل والأصيل، وأحُكْمت بين مختلف الأقوام عُرى التآلف وبثُت رُوح الإخاء والتحالف، ومنُحت المنح وأُجْزلت الجوائز وحفظ العزيز العُرف لذويه وأغضب قلوب أهل الإلحاد وموازريه وكان جميل صنعه وجليل مصُطنعه سُلماً، إلى ملتمسه وبلاغاً لمبتغاه، فهادنته صروف الزّمان وتخطته حوادث الحدثان ولوت عنه عوادى الملوان وغفر للدّهر هفواته وعفى عنه من زلاّته بعد أن انتهى لجنابه حلّ الأمور وعقدُها وفتقها ورتقها، وعانى المشقات بعوالى الهمم وحمى وطيس الحروب واحتدم، وطهُرت البلاد من العاثين ووطد أركان الأمن باستئصال جراثيم المفسدين وملّك المقسطين أزمة الأحكام وقدّ هامات الظالمين بصمصام الإنتقام حيث كانت لهم سطوات وصولات ووقعات وبطشات فكانوا أحكموا أسباب الوقاحة وقطّعوا أوصال السماحة ومدُّوا أطناب المظالم وأطنبوا فى بث المحارم، وعمدّوا إلى استعباد المصرى فكان عميداً وأثقلوا كاهله بالبلايا حتى صار سيره وئيداً، ولجّوا فى غلوائهم واستمروا فى جهالاتهم وتهافتوا فى ضلالاتهم وجمعوا فى غواياتهم فكان تاريخهم نوادر مساءات وبوادر سوآت ولكن أبى الله

إلاّ أن مّرضت أهواؤهم وتصرّمت علاقاتهم وانبتت أواخيهُم ورثّ عهد شوكتهم ووهن زمام صولتهم بمصاليت الجُند وصناديد العزيز فى ذلك العهد إذ أعملوا عوامل الفتك، وشحذوا أسنة البتك وإن شئت فقل كانوا حُماة الإنسانية وذادتها ورُعاة المروءة وكتيبتها، كل ذلك بتدبير واشارات العزيز كوكب عصره وفريد دهره والأقوام، ومنبعث العدالة والنظام ممدن مصرنا وعزيزها الأول وقد خلفه خلف أضاعوا بقية الفظائع وآثروا الحقائق فأودوا الشبهات بحججهم القواطع، فأصبح الناس يحمدون غب السرى ويتناقلون صحف اليمن والأمان بلاا مترا[1]، حتى تبوأ أريكة الملك خير مملك على التحقيق، ألا وهو خديوينا الداورى الأكرم (محمد باشا توفيق) فأتم للنظام مُعدّاته وشيد للعلم مناراته وأكمل للعدل منصّاته وأسبغ للإرتقاء لُباناته، حتى أجمعت القلوب على محبته وولائه بما أفعمها سروراً من عواطفه السنية وآلائه وأنعشها بإبادة غواشى الدهر وبأسائه، فقد بلغ بمصر من المترلة غاية ليس وراءها مُطّلع لناظر حتى ساوت سواها من الأمم المُعجبة بالمدينّة فى ميدان الرفاهة والتفاخر، سيما فى عصر الوزارة الوطنية المحضة الرياضية أبيات النفوس العصاميّة حيث صرفت فى بلوغ القطر اُمنيته عنايتها وبذلت فى تقدّمه جهدها المستطاع ورعايتها، وحفظت لأبنائه حقوقاً طالما ماطلها فيها الدّهر وانتقت للهيئة الحاكمة رجالاً ازدهى بمآثرهم تاريخ هذا العصر غُذوا بلبان الحكمة فآخاهم الإخاء وعُنوا بالعدالة فصافاهم الصّفاء فمتع اللّهم مصرنا بشموس علا التوفيق وأنجاله الفخام وأمتعه بدوام وزارتها الحالية وأيدّ مناصب رجالها البررة الكرام، وأفض على قطرنا من قطرات فيوضاتك الإلهية وأمنحنا جميعاً من لحظات عنايتك الصمدانية ما يعضد آمالنا وينجح أعمالنا لنحظى بمرضاتك فى الحال ولنفوز بتنزل رُحماك فى المآل.

وإلى هنا أمسكت عنان اليراع واقتصرت من الجُلّ على القُلّ بل على البعض من الكُل وجعلت هذه العُجالة سهلة المأخذ لمن رام الإطلاع على مناقب جمعتُ

[1] هكذا فى الأصل (المحرر).

شتاتها من مفرقات الرقاع ما بين غربية وشرقية، وعربيّة وأعجميّة، وتحاشيت فيها عمّا غرب مبناه وعزب مغزاه، وليس قصدى أن يقال فلان ألفّ، وصار له فى كتيبة الكتب مؤلف، وإنما هذه خدمة لوطنى الأعز الأغرّ، حملنى على القيام بها حُبّيه الصادق الأبرّ، ومع ذلك أرجو إقالة عثارى عند العثور فيها على السقط، واذّكر أيها المطّلع (من ذا الذى ما ساء قطّ)، أحسن الله لنا خواتيم الأمور، بجاه خاتم المرسلين وصلّى وسلم عليه وعلى إخوانه النبيين وآله وصحابته الأكرمين والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين ما جمع كاتب بين حرفين، وبلغ الكمال المطهّر من التشيّع والمين.. آمين.

* * *

تذييل: تقريظ الكتاب*

(يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة البهية ببولاق مصر المعزية الفقير إلى الله تعالى محمد الحسينى أعانه الله على أداء واجبه الكفائى والعينىّ)

سبحان من جعل حوادث الأوّلين عبرة للآخرين وأحوال الماضين عظة وإرشاداً للغابرين يتفكرون فيما كان لهم من معالى الأمور فيأتسون ويتدبرون ما أخنت به عليهم الدهور فيتعظون، لهذا كان علم التاريخ من أجل العلوم التى لها فى نفوس العقلاء أعظم وقع والفنون التى بها للإنسان أكبر نفع، فاعتنى به العقلاء ودوّن فيه النبلاء والفضلاء وكان ممن حذا هذا الحذو ونحا هذا النحو الشاب النبيه النبيل، والفطن الأريب الجليل، الفائق بذكائه على أقرانه، الكامل فى أخلاقه وجميع شانه ذو الطالع السعيد حضرة محمد بيك فريد نجل ذى الكمالات التى لا تحصى والمزايا الحسنة التى لا تستقصى، صاحب الهمة العلية والأخلاق البهية الذى زادت به روح الحكومة المصرية انتعاشاً، ذو السعادة ناظر الدائرة السنية الآن أحمد فريد باشا أدام الله مجده وأكمل سعده، فإن حضرة البيك حفظ الله طلعته وأزهر نبعته ألف هذا الكتاب الذى كأنه الجوزاء والثريا حسناً وفاق غيره بلطفه الأسنى المسمى (البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة المحمدية العلوية) سفر أسفر لنا عن بعض آثار أصل هذه العائلة الشريفة المرحوم محمد على باشا، ذى المزايا البارعة المنيفة، ونجله البطل الهمام إبراهيم باشا الأسد الضرغام ورجاله الفخام، وكشف لنا عما قاسوه من المشاق المهولة والمصاعب الشديدة وقطعوه من كل عقبة كؤد فى حضرهم وأسفارهم البعيدة، حتى ذللوا فى ملك مصر كل شامس وقيدوا كل شريد وقربوا مما لم ينله غيرهم فى إصلاح هذا القطر كل بعيد، قصموا كل صنديد بسيف السطوة والجولة، وقطعوا كل جبار عنيد بسهام الجبرية والصولة حتى غدت مصر بهم آمنة من صيال الصائل، لا تخشى اختلاس لص ولا اغتيال

* وضعنا هذا العنوان من عندنا لأنه يحتوى على تقريظ الكتاب وآثرنا نشرها ليكون الكتاب كاملاً (المحرر).

الغائل، فيا له من كتاب ما أرق لفظه وأدق معناه، وما ألطف تشييده وأمكن مبناه ولما بلغ من الحسن غايته ومن جودة التأليف نهايته، انتهض مؤلفه حفظه الله لطبعه على ذمته، رغبة فى عموم نفعه بالمطبعة الزاهية الزاهرة ببولاق مصر القاهرة فانتهى طبعه بحمد الله على هذا الوضع اللطيف والشكل الظريف، فى ظل الحضرة الفخيمة الخديوية، وعهد الطلعة المهيبة البهية التوفيقية حضرة من أجرى أمور رعيته على نهج السداد، فبلغوا من الثروة والرفاهية غاية المراد، وسلك فى إصلاح أحوالهم سبيل الرشاد، أدام اللهمّ سدّته ملتثم الشفاه ومأمن كل خائف أوّاه، وأطل بقاء حضرات أنجاله الكرام وأشباله الفخام، ملحوظاً هذا الطبع بنظر من عليه جميل أخلاقه بمزيد اللطف يثنى حضرة وكيل الأشغال الأدبية محمد بك حسنى، وكان تمام طبعه وكمال ينعه فى أواخر رجب الفرد من هجرة سيد الأولين والآخرين صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

* * *

وقد قرّظه الأستاذ الفاضل الشيخ طه محمود قطارية الدمياطى أحد فضلاء المصححين بهذه المطبعة مؤرخاً عام طبعه فقال:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اللهمّ) إنا نحمدك على نعمك ما ظهر منها وما بطن لاسيما نعمتى الإيمان والأمان فى الوطن ونصلى ونسلم على سيدنا محمد أفصح الناس لهجة، الذى جاء للعيون بالقرّة وللوجوه بالبهجة وعلى آله مفاتيح النعمة وأصحابه مصابيح الظلمة (أما بعد) فإن أقوى دليل على رسوخ قدم التمدن الآن بين المصريين وأن الله زادهم بسطة فى العلم وكساهم جلابيب السعادة فى هذا العصر التوفيقى الذى أخذت فيه الأرض زخرفها وازينت ما نراه من اشتغال الناس كافة بأسباب التقدّم وإكبابهم على وظيفتى التعليم والتعلم وتدوينهم للكتب فى جميع الفنون، اتحد فى ذلك صنيعهم واستوى فى سلوك هذه السبيل شريفهم ووضيعهم، فكلهم على هذا المنوال ناسج ولهذا الباب والج، بعد أن كان حيّ

العلم بينهم مقبوراً وحمى الآداب عنهم حجراً محجوراً، وطالما أصبح الكاتب وهو فيهم شئ لا يذكر والمؤرخ أعز من الكبريت الأحمر، أما اليوم فإنك لا تشاء أن تمرّ فى طريق إلا رأيته مزدحماً بشيوخ وشبان كلهم من ذوى العلم والعرفان، وممن سلك من أبناء مصر فى هذا العصر هذه السبيل مؤلف التاريخ الجليل المسمى (البهجة التوفيقية) وهو الأمير ابن الأمير (محمد بك فريد) جاء فى تاريخه هذا بما يشرح الصدور من أنباء عزيز مصر ومحىّ مواتها الحاج محمد على باشا روّح اللهم رَوحه واجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، وأجزه عن المصريين خيراً، جمع فيه محاسن أعماله التى أخرج بها مصر وأهلها من ظلمات الجهالة والخوف إلى نور العلم والأمن واستأصل برأيه السديد وبأسه الشديد شأفة الطائفة العاسفة التى سلطها الله على مصر ما شاء أن يسلطها، ثم جعل حتفها على يد هذا الخديو الكبير، الذى لم يسمع الزمان له بنظير وهذه الأعمال الخيرية والهمة العلية العلوية هى التى بعثت هذا المؤلف الهمام لتأليف هذا التاريخ ونشره بين الأنام ليتدبر أولو الألباب إذا وقفوا على هذا الكتاب وليعرفوا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها إذا علموا أن مصر لم تكن لتصلح للسكنى قبل جدّ العائلة المحمدية كما يشهد بذلك آباؤنا والكتب التاريخية ومما زادنى سروراً أن مؤلفه "حفظه الله" قام بطبعه وتعميم نفعه.

ملحق

صفحات من الطبعة الأولى للكتاب

كتاب

(البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية)

تأليف

حضرة الذكى الالمعى ذى القول السديد محمد بك فريد
وكيل قلم قضايا الدائرة السنية وأحد
أعضاء الجمعية الجغرافية
الخديوية

ليس بانسان ولا عالم ❊ من لم يع التاريخ فى صدره
ومن درى أحوال من قد مضى ❊ أضاف أعمارا الى عمره

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الاميرية ببولاق مصر المحمية

١٢٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل فن التاريخ عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تأمل واذّكر والصلاة والسلام من الملك السلام على نبينا محمد سيد ولد عدنان القائل حب الوطن من الايمان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه من خاضوا الفيافى والقفار حتى جاء تاريخهم من أحسن الآثار ﴿أما بعد﴾ فأقول وأنا المتوكل على مولاى المبدى المعيد عبده محمد فريد غفر الله له ولوالديه ولأرباب الحقوق عليه لما كان لفن التاريخ فوائد جمة وثمرات مهمة تعرب عما مضى من كوارث الازمان والاوقات وتكشف عن وجوه الحوادث قناع الشبهات فلكثرة نفعه وعظم وقعه كان له فى الكتاب المبين أصل قوى متين قال الله تعالى يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون استدل على بطلان دعوى اليهود فى ابراهيم أنه يهودى وبطلان دعوى النصارى أنه نصرانى بأن التوراة والانجيل انما نزلا من بعده ولله الحجة البالغة والحكمة الدامغة اذ لولا التاريخ لجهلت الدول ومات فى الايام الأخر ذكر الاول عن لى مع قلة بضاعتى وكساد صناعتى أن أؤلف فى وطنى العزيز مختصر تاريخ وجيز يدل على فضل جنتمكان محمد على باشا الكبير على الشان من هو أكبر مؤسس لديارنا المصرية وأشهر مهندس لخططها النيلية على أحسن الوجوه كما شهد له بذلك الوجوه برّد الله مضجعه وجعل فى رياض النعيم مرتعه وحيث كنت ممن تربى فى المدارس الخديوية ذات الثمرة المرضية رأيت أن أعتنى بتأليف هذا الكتاب قياما

للوطن

وكرهوا الضريبة المصرية لما رأوا بين السكان بدون نظر الى مستندهم ثم انه ربما كان الاولى بالحكومة المصرية وقتئذ أن تراعي عوائد البلاد وطباع أهليها ثم تصلح كيفية ضرب الاموال وتوزيعها على الاهالي شيأ فشيأ لكنه لا يجوز من جهة أخرى أن الامة المصرية تقوم بكافة مصاريف الجيش والادارة مع ما هي عليه من الفاقة والفقر المدقع الناشئ من تسلط المماليك عليها أحقابا متوالية بل من العدل أن كلا من الامتين الشامية والمصرية يشترك في مصاريف ما يلزم للحكومة كما أنهما يشتركان في التمتع بخيراتها والاستظلال بظلال الأمن الشامل للولايتين وعلى كل حال لم تصادف الادارة المصرية في تحصيل هذه الضريبة من الصعوبات ما لاقته في ادخال الشاميين في الخدمة العسكرية فانه أدخل منهم في الجيش المصري ثمانية عشر ألفا ما بين دروز ومتوالية ومسلمين وغيرهم من كل الشعوب والاجناس وهو الامر الذي ازدادت به كراهة الشاميين للادارة المصرية وذلك لان الدولة العثمانية ما كانت تدخلهم في العسكرية كرها بل كانت تكتفي بمن يدخل باختياره من سكان جبل لُبنان وكان يندرج منهم سنويا في الخدمة العسكرية ألف لا غير وعما كان سببا في زيادة كراهة الشاميين للامة المصرية عدم الانتظام في أخذ الشبان كما هو جار الآن في مصر وسائر الدول المتمدنة بان يخدم الشاب مدة معينة ثم يعود الى أوطانه ويكون أخذه بطريق القرعة مع المساواة بين كل الافراد بل كانت الطريقة المتبعة في أخذهم أن يدخل الضابط المعين لذلك في القرى ويختطف الشبان بالقوة وربما لم يتم له ذلك الا بعد مقاومة عنيفة يكون من ورائها أحيانا قتل بعض من الفريقين ولقد ذكر أحد من كانوا في معية البرنس (دي جوانفيل) نجل (لويس فيليب) ملك فرنسا حين كان سائحا في البلاد الشامية أثناء احتلال المصريين لها أن الحرس الذي كان معينا لحراسته أثناء جولانه في جبال لُبنان كان كلما رأى في طريقه شابا قوي البنية صالحا للخدمة العسكرية ضبطه وأرسله مع بعض الجند الى أقرب ألاي ليلحقه به دون أن يعلم أقاربه بذلك ولا غرابة في مثل هذا فان هذه الطريقة كانت متبعة في مصرنا أيام محمد علي باشا ومن بعده ولم تبطل الا من عهد قريب

ولقوة المصريين اذ ذاك وعدم تهاونهم في المجازاة على أقل عصيان بأشد العقاب لم يجسر

(خاتمة)

(فيما فعله محمد على باشا من الاصلاحات والتأسيسات)

ان أول ما شرع فيه محمد على باشا رحمه الله بمدن مصر من الاصلاحات ليعيد اليها مجدها الاثيل تأسيس المدارس لبث العلوم والمعارف بين المصريين الذين هجروها منذ هجرهم العلم فأخذ العزيز فى احياء المدارس بعد أن كانت فيها دوارس وأعاد العلوم الى وطنها ومرباها ليستنير بها القطر. فأسس مدرسة الطب بأبى زعبل بناء على طلب الدكتور كلوت بك الفرنساوى سنة ١٢٤٢ هجرية وأتى لها بالاساتذة من البلاد الاوربية وذلك ان كلوت بك أظهر لمحمد على باشا احتياج البلاد لتأسيس هذه المدرسة لتستغنى عن الاطباء الاجانب وليوجد بمصر أطباء كافية للجيوش البرية والبحرية وقدم له بذلك تقريرا اضافيا قال فى آخره يجب أن يكون بمصر مدرسة طبية تكون تلامذتها من الوطنيين الخالصين الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم وارتقائه فى سلم التمدن والعمران ويتوصل لذلك بانشاء اسبتالية عمومية يتعلم فيها مائة وخمسون شابا من اهم المام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادى الحساب ويلزم ان تدرس اهم اللغة الفرنساوية وانواع الطب بفروعه سيما الجراحة وتكون مدة الدراسة أربع سنوات يختبر التلامذة فى آخر كل سنة منها فسر الباشا من هذا المشروع وأصدر أوامره بتأسيسها وجعلها تحت رياسة كلوت بك

وجعل أيضا مدرسة للطب البيطرى وولى رياستها للموسيو هامون الفرنساوى ومدرسة المهندسخانة ورئيسها (لامبير بك) الفرنساوى ومدرسة للموسيقى وأخرى لتعليم الصنائع والفنون وهذا كله غير المدارس الابتدائية والتجهيزية التى أنشئت فى أنحاء القطر المصرى ومدرسة الالسن بناء على طلب العالم الفاضل رفاعة بك فقد جاء فى الخطط المصرية لعلى باشا مبارك فى ترجمة البيك المذكور ما نصه

عرض رفاعة بك للجناب العالى انه فى امكانه أن يؤسس مدرسة لتعلم اللغات الاوربية ويمكن ان ينتفع بها الوطن ويستغنى عن الدخيل فأجابه الى ذلك ووجهه الى مكاتب الاقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع فأسس المدرسة وفى المدة المعينة

فهرست كتاب البهجة التوفيقية



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة